الثقافة الجديدة

فكر علمي ... ثقافة تقدمية

346
2011

(الثقافة الجديدة).. 58 عاما
من الكفاح من اجل
"فكر علمي... ثقافة تقدمية"!

مقالات

جواد كاظم لفته
إبراهيم إسماعيل
لطفي حاتم
صالح ياسر
مصباح كمال

طاولة مستديرة

حول الاسكان في العراق

نصوص قديمة

نيكوس بولانتزاس

نصوص مترجمة

رشيد خويلب

حوارات

حوار مع الروائي والباحث
جاسم عاصي

أدب وفن

جاسم العايف بشير حاجم
نبيل الربيعي نجاة نعيم
سلام حربية كاظم ناصر السعدي
نزار محمد سعيد عبدالرزاق صالح
مقداد مسعود حسينة بنيان

الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

المواد المنشورة تعبر عن آراء اصحابها

346

اغلق تحرير العدد في 10 تشرين الاول 2011

السعر : 2000 دينار

الاشتراك السنوي : (6أعداد) : 50 دولار أو ما يعادلها و 100 دولار للمؤسسات.
ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت :
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد – شارع ابو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع في المكتبة الوطنية :781
يمكن تحويل مبالغ الاشتراك على الحساب المصرفي للمجلة :

ALJADID
Lloyds TSB Bank plc
Sort Code 30-93-89
Account No: 1871659
UK

ترجو هيئة التحرير المساهمين في المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
*أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الألكتروني أو على قرص مدمج. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية. وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير، فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لاتعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الألكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والاعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

7- (الثقافة الجديدة).. 58عاما من الكفاح من اجل "فكر علمي... ثقافة تقدمية"!

مقالات

10- في مضامين السياسة التعليمية الجديدة لتطوير التعليم العالي .....جواد كاظم لفته

20- نظرة على واقع التعليم العالي في عراق اليوم .....إبراهيم إسماعيل

25 -النزاعات الوطنية والتدخلات الدولية.....لطفي حاتم

32- الاقتصاد السياسي لأزمة سقف الديّن الأمريكي الأخيرة .....صالح ياسر

43- هل هناك مشروع لإعادة هيكلة شركات التأمين العامة؟.....مصباح كمال

طاولة مستديرة

55- حول الإسكان في العراق

نصوص قديمة

68- إعادة الإنتاج الموسعة للطبقات الاجتماعية.....نيكوس بولانتزاس

نصوص مترجمة

81- تزايد أعراض الأزمة في الاقتصاد العالم.....ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

89- حوار مع الروائي والباحث جاسم عاصي.....حاوره : سعدون هليل

ادب وفن

مقالات

100- كزار حنتوش: مساء سبعيني.. وقصيدة ضائعة.....جاسم العايف

106- حُسين مِردان سيّدُ النَدامى.....نبيل الربيعي

قصص قصيرة

112- اغفاءة النيتروجين.....سلام حربة

118- الولادة لـ(ئورهـان كمال).....ترجمة: نزار محمد سعيد

122- ليلة زفاف عبد الكريم قاسم.....مقداد مسعود

نقد ادبي

133- الفاعليات البنيوية في القصيدة الأحادية.....بشير حاچم

139- فؤاد التكرلي وسر عقدة أوديب .....نجاة تميم

149- جماليات البحث عن الحرية في رواية (لعبد شويخ البدوي).....كاظم ناصر السعدي

شعر

154- نصوص الكاهن.....عبدالرزاق صالح

157- ثلاث قصائد.....حسينة بنيان

لوحـة الغلاف الاول : الفنـان الرائـد حافـظ الدروبي.. من رواد المـدرسة الانـطباعـية في الفن التشكيلي العراقي المعاصر.

لوحـة الغلاف الاخير: الفنانه يقين الدليمي لها العديد من المعارض والمشاركات التشكيليه.

كلمة العدد

في 23 من آب عام 2008 اغتيل الفقيد كامل شياع احد نجوم الثقافة الوطنية والديمقراطية العراقية، عضو هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) ومستشار وزارة الثقافة العراقية.

لم تكن الرصاصاتُ الغادرةُ التي أطلقها القتلة في ذلك اليوم تستهدف شخص **كامل شياع**. فقد كتب في أحد النصوص التي تركها قبل رحيله (**عودة من المنفى**): "أعلم أنني قد أكون هدفاً لقتلة لا أعرفهم ولا أظنهم يبغون ثأراً شخصياً مني. رغم ذلك كله، أجد نفسي مطمئناً عادة لأنني حين وطأت هذا البلد الحزين سلمت نفسي لحكم القدر بقناعة ورضا. وما فعلت ذلك كما يفعل أي انتحاري يسعى إلى حتفه في هذا العالم وثوابه الموعود في العالم الآخر، فالقضية بالنسبة لي تعني الحياة وليس الموت". يمكن القول ومن دون أدنى تردد أن تلك الرصاصات كانت تستهدف **الرهان/ المشروع** الذي يمثله كامل؛ انه رهان المثقف العضوي، رهان الدولة المدنية الديمقراطية العصرية، بإزاء دولة المحاصصات وفوضاها "المنظمة"، رهان الديمقراطية، بإزاء الإرهاب والشمولية والدكتاتورية، رهان الوطنية العراقية الأصيلة، بإزاء ملوك الطوائف والاحتلال.

يبدو أن من كان يقفُ وراءَ تلك الرصاصات الغادرة... أراد أن يقول لنا أن تلك الرصاصات أقوى منا، إنها السيدة. غير أن التأريخ لن تكتبه هذه الرصاصات، الملثمة، المرتزقة، الخائبة. التأريخ لن يكتبه الجلاد، كما درجت أدبيات الخنوع على أن تقول لنا، بل سيكتبه الشهداء كما يكتبه أولئك الذين يواصلون مواجهة مشاريع التدمير والإرهاب.

****

وفي ظهيرة الخميس الثامن من أيلول/سبتمبر2011 اغتيل وبكاتم صوت أيضا المسرحي والإعلامي المعروف الفنان هادي المهدي و تزامن اغتياله مع التحضيرات للتظاهرات التي شملت معظم المحافظات والعديد من بلدان المهجر، والتي جرت يوم2011/9/9، وهذا يكفي لتفسير مغزى الاغتيال في مثل هذا اليوم بالتحديد. ليس الأمر مجرد مصادفة، فمن خطط لعملية الاغتيال الشائنة هذه كان يعرف ما يريد، إنه أراد إيصال رسالة واضحة لمتظاهري اليوم التالي، 9/9 مفادها أن من يتجاوز "الخطوط الحمر" سيكون مصيره كمصير هادي، إنها "طلقات تحذير" لكن ليس في الهواء الطلق بل باللحم الحي!! الشهيد هادي المهدي كان يعرف ما يقوم به من عمل، سوية مع شباب ساحة التحرير وساحات العراق الأخرى، وما يحمله ذلك العمل من آمال واعدة تقض مضاجع القتلة والفاسدين وسراق المال العام، لذا كان يعرف قتلته بأسمائهم الصريحة حيث أشار إليهم في وثيقة تتداولها منظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان، كان قد ابتدأها بالقول: "**اشهدوا أنهم يعدون لاغتيالي بأسمائهم المدونة أدناه**"!!

الطلقات الخائبة إذن ذاتها، والمسدسات الكاتمة للصوت ذاتها، مصوبة لرموز ثقافية وفنية معروفة، لكامل وهادي، وغيرهم كثيرين، من أولئك الحاملين لمشروع ثقافي وطني عابر للطوائف ومتاريسها الملغمة دوما.

والمثير للانتباه أيضا انه ورغم مرور ثلاثة أعوام على استشهاد كامل شياع ما زال قتلته يمشون طلقاء على ما يبدو، وما زالت لجنة التحقيق في جريمة اغتياله تبحث عن "الأدلة" كما يبحث المرء عن إبرة في كومة قش، وتردد الأجهزة المعنية العبارة الأثيرة: "**ما زال التحقيق جار لملاحقة القتلة**"!! هكذا إذن وبعد ثلاثة أعوام ونيف، أصبح اغتيال كامل مجرد حدث عابر، وتسجل الحادثة ضد مجهولين، كما جرت العادة مع الكثير من الشهداء. ونفس الشيء بالنسبة للفقيد هادي المهدي، فرغم مرور عدة أسابيع على استشهاده فان مصير قضيته يبدو كمصير قضية كامل: **مازال البحث عن الجناة مستمرا**.. تؤكد اللجنة التحقيقية!!!

من حقنا بعد كل هذا أن نسأل السلطات المختصة: ما الهدف من تشكيل اللجان التحقيقية؟ هل المطلوب العثور عن القتلة الفعليين وتقديمهم الى القضاء لينالوا جزائهم على ما اقترفوه من جرائم أم أن القضية شكلية ينطبق عليها المثل: **عثرنا على المقتول والقاتل هرب**؟! حتى هذه اللحظة يبدو الأمر كما لو أن الهدف "الأسمى" عند البعض هو إضاعة دم الشهيدين، بين ملفات التحقيق حتى تموت القضايا بالتقادم، كما هو مصير المئات بل الآلاف من الشهداء، علما أن هذه قضايا لا يشملها التقادم.

هنا لا بد من تجاوز الصمت لأنه سيؤدي الى تحويل شهداء الحرية والكرامة الى مجرد أرقام في قوائم طويلة لا تنتهي.. ويصبح ضروريا مواصلة محاربة الفجيعة في بلاد يتقاتل فيها "الكبار" على كعكة السلطة، حتى أصبح الخروج من الأزمة المستعصية من المستحيلات في ظل هيمنة نظام المحاصصات السيئ الصيت.

ولكامل وهادي نقول: أنتما باقيان بين أجمل مثقفي العراق الذي نريده ديمقراطيا فيدراليا موحدا ومستقلا وسيد نفسه.. لا عراق الحروب والقيامات المتواصلة ومتاريس المتحاربين.

نعلم أن استشهادكما الدامي يشهد بان الطريق طويل، وان يوم فرحنا الحقيقي ما زال بعيدا، لكنكما ستظلان دائما ملهمين لمن أحبوكما، وهم كُثر وسيواصلون نضالهم من اجل الحرية والخبز والكرامة والديمقراطية. أما القتلة فما زالوا يمارسون، كعادتهم، "هواية" الاغتيال ولعبة الموت ومشاهد الدم وكواتم الصوت مشرعة ولكن أعمارهم قصيرة !

ختاما نقول، انه وانطلاقا أيضا من المثال الذي قدمه الشهيدان كامل شياع وهادي المهدي، والمئات من الواهبين من أمثالهم، نود التأكيد الخاص والاستثنائي، في هذه المرحلة المضطربة والمفتوحة، على أهميّة تنشيط دور المثقفين والمبدعين، سوية مع القوى الأخرى، في تثبيت التوجهات والخيارات الوطنية الكبرى، والرهان المستمر على قدرة هؤلاء بمختلف اتجاهاتهم الفكرية والسياسية في مجال بلورة الرؤى، وصياغة الأفكار وإنتاج التصورات لإثراء الحوار حول كبريات القضايا التي تواجه بلادنا ورفد مسيرة النضال من اجل استعادة السيادة والاستقلال التامين وبناء أسس الديمقراطية، والمساهمة النشيطة في استشراف المستقبل. فالمثقفون كانوا على الدوام، وما زالوا وسيظلون حملة مشاعل التنوير والحداثة والديمقراطية.

(الثقافة الجديدة).. 58عاما من الكفاح
من اجل "فكر علمي... ثقافة تقدمية"!

في هذا العام، 2011، وفي هذه الأيام تحل الذكرى الثامنة والخمسون لصدور العدد الأول من مجلة (الثقافة الجديدة) التي لم يكن قد صدر منها إلا عددان فقط حتى تم سحب امتيازها وبالتالي توقفها عن الصدور وذلك بقرار من السلطات الحكومية آنذاك. لقد دفع هذا القرار المجحف وغير الديمقراطي مجموعة من الشخصيات السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية وبينهم فنانون وأساتذة جامعة وصحفيون وأدباء وممثلون، يعبرون عن مختلف أطياف المجتمع العراقي، الى توجيه مذكرة الى رئيس الوزراء العراقي حينئذ فاضل الجمالي يطالبونه فيها *"أن **يعيد النظر في سياسة الحكومة تجاه الحركة الفكرية ويفسح المجال لحملة الأقلام على اختلاف لآرائهم وتباينها بالتعبير عن أفكارهم في جو علمي تسوده الحرية والثقة بالمستقبل وبذلك وحده يستطيع الفكر العراقي أن ينمو ويتطور*".**

تاريخ صدور هذه الوثيقة هو 1954/1/15 وبالتالي فان عمرها 57عاما ونيف، وقد عثر الباحث **د.عقيل الناصري** على هذه الوثيقة التاريخية في اضبارة الفقيد الدكتور **علي حسين الوردي** في مديرية الأمن العامة وهي مطبوعة على ورق ستنسيل، ووضعها مشكورا تحت تصرف المجلة.. وها نحن نعيد نشرها لإطلاع الناس عليها وخصوصا الأجيال الجديدة والباحثون المهتمون بتاريخ العراق السياسي والثقافي، وأيضا احتفاء بالذكرى الثامنة والخمسين لصدور العدد الأول من المجلة، التي ظلت على الدوام وفية لشعارها العتيد "فكر علمي... ثقافة تقدمية"!

المذكرة المرفوعة إلى رئيس الوزراء فاضل الجمالي
حول سحب امتياز مجلة (الثقافة الجديدة)

فخامة رئيس الوزراء المحترم

يعاني العراق أزمة فكرية حادة ليس مصدرها اختلاف الآراء والأفكار فحسب وإنما هذا الجو الخانق الذي لا يسمح بوجود أية حركة فكرية أيضاً، فاختفت المجلات وندرت الكتب وأصبح المتعلمون يتخبطون في هذا الجو المعتم دون أن يستطيعوا إيجاد السبيل لحل مشاكلهم الفكرية. إن مسؤولية الحاكمين عن تشجيع الحركة الثقافية وتنميتها وتطويرها أمر واضح لا شك فيه، فمن واجبهم خلق الجو الحر الذي تنمو فيه الآراء والأفكار وتشجيع المثقفين بكل الوسائل الممكنة على شحذ أقلامهم ومعالجة مختلف المشاكل الفكرية التي تشغل بال المتعلمين من أبناء الشعب. ولكن الحكومات العراقية المتعاقبة لم تقم بواجبها في هذا الميدان فضايقت بذلك الثقافة والتفكير وثبطت عزائم المثقفين. ففضلاً عن عدم تشجيعها للطباعة والنشر التشجيع الكافي فإنها وقفت حجر عثرة في سبيل المجهودات الثقافية التي قام بها الأفراد وبمحاولتها تقييد الأفكار ومنعها من الانطلاق في الأجواء الحرة التي تسمح لها بالبقاء إن كانت صالحة وتقودها إلى الفناء إن كانت فاسدة مغرضة. في هذا الجو الحر وحده يستطيع المثقفون أن يعبروا عن آرائهم وأفكارهم بإخلاص في مختلف مشاكل الحياة فيؤدوا بذلك الواجب الثقيل الملقى على عواتقهم تجاه

مواطنيهم. في هذا الجو الحر وحده تتمكن الروح العلمية التي تهدف إلى اكتشاف الحقيقة من النمو فينكشف هزال بعض الأفكار وخطلها وسقم قسم من الإنتاج الفكري الذي وجد في انعدام هذا الجو المجال واسعاً لاحتلال الصدارة في عالم الفكر دون ان يستحق ذلك فأساء إلى الحركة الفكرية وإلى المواطنين الراغبين في العلم. وفي هذا الجو الفكري الحر وحده يمكن أن تنشأ نهضة فكرية في العراق ويمكن أن يساهم المثقفون مساهمة فعالة في إيجاد الحلول الشافية لجميع المشاكل الفكرية والاجتماعية. ولكن انعدام هذا الجو أدى مع الأسف الشديد إلى ما نراه من قحط فكري في العراق وتأخر في جميع الميادين الثقافية رغم تنامي عدد المثقفين وتكاثرهم. إن سحب امتياز مجلة الثقافة الجديدة بعد صدور عددها الثاني، بغض النظر عن اتفاقنا أو عدم اتفاقنا في الآراء مع الكتاب الذين كتبوا، ليعتبر مظهراً من مظاهر هذا الاضطهاد الفكري الذي ندعو لإزالته، سيما وأن هذه المجلة قد سدت فراغاً كبيراً في الحياة الثقافية واحتلت مكانة حسنة، وإننا في وقتٍ أحوج ما نكون فيه إلى أمثالها. أما عن الحجة التقليدية التي تتهم بها المجلات الثقافية وهي تجاوزها الحدود الثقافية إلى السياسة فلابد من التفريق بين الثقافة السياسية وبين معالجة مشاكل السياسة العلمية الآنية أو مساندة حزب سياسي معين، فإن الثقافة السياسية العامة ولا ريب إنها ليست المقصود بالمنع للمجلات الثقافية.

إننا نرجو من فخامة رئيس الوزراء أن يعيد النظر في سياسة الحكومة تجاه الحركة الفكرية ويفسح المجال لحملة الأقلام على اختلاف لآرائهم وتباينها بالتعبير عن أفكارهم في جو علمي تسوده الحرية والثقة بالمستقبل وبذلك وحده يستطيع الفكر العراقي أن ينمو ويتطور ويبلغ المستوى الرفيع الذي نصبو إليه وتتمكن ثقافتنا العربية وتراثنا القومي من احتلال المحل اللائق بهما بين الثقافات العالمية.

1954/1/15

الموقعون على المذكرة:

هشام الشواف	إبراهيم كبة	فهد المولى
صلاح الناهي	يوسف العبيدي	صلاح خالص
محمد عزيز	إسماعيل الشيخلي	صفاء الحافظ
عبد اللّه إسماعيل	حسين جميل	محمد حديد
عبد القادر البراك	مهدي الرحيم	عبد الملك نوري
شاكر خصباك	مصطفى كامل ياسين	صالح أحمد العلي
عبد الوهاب البياتي	فيصل السامر	حميد القيسي
نوري خليل الرازي	علي الوردي	عبد الجليل الطاهر
خالد طه النجم	قاسم حسن	هادي حسين علي
صادق البصام	عبد الفتاح إبراهيم	مسعود محمد
عبد الرزاق الشيخلي	محمد بابان	كريم الحاج شريف
يوسف العاني	أحمد عزت القيسي	نجيب الصائغ
ذو النون أيوب	زكي جميل حافظ	ناجي الراضي
محمد حسن الصوري	محمود صبري	

مقـــــالات

في مضامين السياسة التعليمية الجديدة لتطوير التعليم العالي

الأستاذ الدكتور جواد كاظم لفته

الدكتور جواد كاظم لفتة من مواليد ميسان عام 1949، خريج جامعة البصرة عام 1971، حاصل على دكتوراه في إدارة الأعمال، 1979من جامعة الدولة للنفط و الغاز، موسكو / روسيا الاتحادية، وعلى دكتوراه علوم D.Sc في الإدارة، 2001من جامعة الدولة للإدارة، موسكو. عمل في الجامعات الجزائرية و الروسية و العراقية. كما اشرف على رسائل الماجستير و أطاريح الدكتوراه Ph.D نشر د.جواد العديد من الدراسات و البحوث العلمية في إدارة صناعة النفط و الغاز، و إدارة الأعمال، بالمجلات المتخصصة في العراق وفي بلدان أخرى عربية وأجنبية، كما شارك في العديد من المؤتمرات العلمية في العراق وفي الخارج الخاصة بإدارة الأعمال و صناعة النفط و الغاز و التعليم العالي. نشر د.جواد كاظم لفتة سبعة كتب باللغة الروسية في تخصص إدارة الأعمال، و كتابين باللغة العربية: "الإدارة الحديثة لمنظومة التعليم العالي"، و "منهجية الإدارة المعاصرة في معالجة المعضلات الاقتصادية". وله تحت الطبع كتاب باللغة العربية عنوانه: "الإدارة الإستراتيجية لمنظومة التعليم العالي".

مبررات السياسة التعليمية الجديدة:

في الظروف الراهنة التي يعيشها العراق الآن، لا يمكن تصور تعامل علم الإدارة مع مشكلات متخيلة، أولا تمتلك أهمية استثنائية من وجهة نظر الاستجابة السريعة لمتغيرات البيئة المحيطة بالمنظمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في البلاد، إذ أن الملاحقة المنهجية والتطبيقية في الوقت المناسب لحراك الحياة ينبغي أن تكون السمة البارزة لاستخدام منهجيات علم الإدارة المعاصر. ولكن علم الإدارة الإستراتيجية كان

ومازال معطلا في العراق على مدى الأربعة عقود الأخيرة من الزمن في تعاطيه مع مشكلات قطاع التعليم العالي، ومشكلات القطاعات الأخرى أيضا. ويمكن أن تعزى أسباب هذا التعطيل إلى:

● التعامل المنهجي والتطبيقي مع المشكلات بمنظار عملياتي وليس استراتيجي.

● غياب التحليل الاستراتيجي والتوجه الاستراتيجي من منهجية التعاطي مع المشكلات.

● تعامل القيادات العليا في وزارة التعليم العالي والجامعات مع نشاط التعليم العالي وكأنه نشاط منظمات مفردة وليس كمنظومة كلية تنبغي إدارتها وليس قيادتها.

● التجاهل المنهجي للجانب المؤسساتي الاستراتيجي في نشاط التعليم العالي.

● افتقار القيادة السياسية العليا في البلاد لتطلع استراتيجي مستقبلي لدافعية تطوير قطاع التعليم العالي في البلاد، ومبررات صياغة استراتيجيات مناسبة لهذا الغرض.

تبدوالأسباب أعلاه، للتجاهل الفاضح لعلم الإدارة الإستراتيجية في التعامل مع مشكلات تطوير قطاع التعليم العالي في بلادنا، خليط من عدم الاحتراف الإداري المهني في قيادة منظومة التعليم العالي على مستوى القيادات العليا في وزارة التعليم العالي والجامعات (الأسباب الأربعة الأولى)، ونهج سياسي قاصر أو متعمد لتخريب منظومة التعليم العالي لدى القيادة السياسية العليا في البلاد آنذاك (السبب الخامس الأخير). وبنتيجة الأمرين معا، أعلنت القيادة السياسية العليا في البلاد والقيادات العليا لمنظومة التعليم العالي في عام 2001 عن فشلها الكامل ليس فقط من منظور تطوير قطاع التعليم العالي على وفق رؤى وأهداف إستراتيجية بعيدة المدى، وإنما أيضا من منظور الحفاظ على مستوى تطوره في الفترة الزمنية التي سبقت عام 1968، حينما استلمت آنذاك السلطة السياسية والإدارية في البلاد والقطاع نفسه. لقد جاء الإعلان عن الفشل في إدارة قطاع التعليم العالي في أعمال المؤتمر الوطني للتعليم العالي والبحث العلمي في شباط/ فبراير 2001ولم تستطع المؤتمرات الرسمية حول التعليم العالي منذ عام 1971(المؤتمر الأول) ولغاية عام 2001 (المؤتمر الأخير لسلطة الإدارة البعثية لقطاع التعليم العالي في العراق) من التشخيص والتحديد المنهجي لمسألتين على غاية من الأهمية الاستثنائية في تطوير قطاع التعليم العالي:

● **المسألة الأولى** –اختيار المنهج العلمي المناسب للتعامل مع مشكلات القطاع.

● **المسألة الثانية** –الربط المنهجي ما بين مشكلات القطاع ومبررات واتجاهات ومضامين وسياسات تطويره أو إصلاحه أو تحديثه.

بعد عام2003 لم يتعامل النظام السياسي الجديد في العراق، بسبب ظروف قاهرة، مع مشكلات قطاع التعليم العالي بما يكفي من الجدية المطلوبة، إذ استمر مسلسل انحدار مستوى التعليم العالي، الذي نشأ في الحقبة السياسية الماضية، بالتصاعد الكمي والنوعي من دون أن تتخذ إجراءات عملية فاعلة لوقف هذا الانحدار على أقل تقدير. إن تطوير أو إصلاح حالة التعليم العالي في الظروف السياسية والاقتصادية الجديدة في العراق لا يمكن لها أن تكون فاعلة ومثمرة من دون تغيير منظومة إدارته: تغيير موضوع الإدارة (النشاط ووظائفه وعلاقاته)، وتغيير

شخص الإدارة (الهياكل التنظيمية وقياداتها ورؤاها ودوافعها وسلوكها وسمعتها المهنية). في هذا التغيير سيكون هناك دور مؤثر للإدارة الإستراتيجية في تهيئة مقدمات التطوير والإصلاح، بما يتوافق مع عوامل واستحقاقات البيئة المحلية الداخلية لقطاع التعليم العالي، وعوامل واستحقاقات بيئته الدولية الخارجية. في هذا السياق سيكون من المنطقي منهجيا وعمليا تحديد هدفين أساسيين على أقل تقدير للدعوة إلى تطوير منظومة إدارة قطاع التعليم العالي في العراق على قاعدة سياسة تعليمية إستراتيجية جديدة:

● **الهدف الأساس الأول** –تهيئة منظومة إدارة التعليم العالي لمتطلبات الإصلاح الشامل لقطاع التعليم العالي في الظروف المؤسساتية، الدستورية والسياسية وغيرها، الجديدة في العراق. يمكن لهذه التهيئة أن تتخذ المسارات الإستراتيجية الآتية:

– تغيير المنظومة المؤسساتية القانونية الحاكمة الآن للتعليم العالي.

– إعادة الهيكلة التنظيمية لمنظمات التعليم العالي القائمة (الجامعات والمعاهد) بما يتوافق مع مبادئ استقلالية هذه المنظمات والحريات الأكاديمية، التي ستوفرها المنظومة المؤسساتية القانونية الجديدة.

– وضع منظومات معايير أكاديمية وإدارية جديدة تتوافق مع متطلبات المواصفات القياسية الدولية في التعليم العالي، وخاصة في مسائل جودة التعليم العالي والاعتماد الأكاديمي وتقييم الأداء المؤسسي والتعليمي والعلمي وخدمة المجتمع وإنتاج القيّم الايجابية.

– اعتماد البرامج التطويرية الأكاديمية والعلمية في عمليات توجيه ورقابة قطاع التعليم العالي من قبل الدولة والقيادات الجامعية العليا.

– الاتجاه الواسع النطاق نحو تطوير التعاون الأكاديمي الدولي في مسائل تطوير الكفاءات الوطنية وجودة التعليم العالي والاعتماد الأكاديمي والاعتراف بالدرجات والألقاب العلمية.

● **الهدف الأساس الثاني** – تكوين الشروط الملائمة للتطوير المستقبلي بعيد المدى لقطاع التعليم العالي. توفر إعادة هيكلة البنى التنظيمية والوظيفية لأجهزة إدارة التعليم العالي إمكانيات إدارة فاعلة، إذ سيترتب على غياب الآليات الضامنة لاستجابة منظومة إدارة التعليم العالي المرنة لتغير مطالب عالمنا المعاصر السريعة تجاه التعليم العالي من قبل الفرد والمجتمع وقطاع الأعمال، حتمية إجراء إصلاحات جديدة في نشاط القطاع وفي منظومة إدارته أيضا. ولغرض أن تكون أجهزة إدارة التعليم العالي في حالة جهوزية تامة للاستجابة لتغير البيئة المحيطة نقترح الآتي:

– إنشاء ودعم المكوّن الاستراتيجي في منظومة إدارة قطاع التعليم العالي عن طريق تشكيل هياكل الحاكمية الجديدة في إدارة القطاع، مثل المجلس الأعلى للتعليم العالي في العراق والهيئة الوطنية المستقلة للجودة والاعتماد الأكاديمي ومجالس أمناء الجامعات والمعاهد العليا وغيرها من الهياكل الإدارية.

– تأمين تطوير آليات إدارة مجتمعية في منظومة التعليم العالي عن طريق تكوين مجالس استشارية دائمة لخبراء من ممثلي قطاع الأعمال الحكومي والخاص، الجامعات، الطلبة، الأسرة الأكاديمية،

منظمات المجتمع المدني المعنية وغيرها.

– زيادة فاعلية الأداء الوظيفي لمنظومة الإدارة الحكومية لقطاع التعليم العالي عن طريق تكوين قسم تنظيمي للرقابة الداخلية في الهيكل التنظيمي لكل جهاز إداري لإدارة قطاع التعليم العالي.

مفهوم السياسة التعليمية الجديدة:

يستخدم مصطلح "**السياسة التعليمية**" على نطاق واسع في مختلف الوثائق الرسمية والسياسية للدول والمنظمات السياسية والاجتماعية، للدلالة بشكل رئيس على الاتجاهات الأساسية لنشاطها في معالجة المسائل والمهام الأكثر أهمية في قطاع التعليم، واعتبار هذه الاتجاهات بمثابة إعلان مبادئ وآليات ووسائل عمل لتحقيق التوجه الاستراتيجي للدولة والمجتمع في هذا المجال الاجتماعي الفائق الأهمية والوظائف من وجهة نظر تطور البلاد.

واستنادا إلى وجهات النظر الأكثر شيوعا في هذا المجال، ينبغي على "**السياسة**" أن تكون معلنة وشفافة، دقيقة الصياغة وعلى قدر كبير من الوضوح في الدلالات والمضامين، تعكس بدقة كافية التوجه الاستراتيجي للدولة والمجتمع في هذا المجال أو ذاك من مجالات السياسة، ومؤسسة على مبادئ الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساءلة القانونية والاجتماعية. يمكن النظر أيضا في مفهوم السياسة من وجهة نظر علم الإدارة بعدّه منظومة تصورات، أفكاراً ومبادئ سلوك "أشخاص" السياسة في علاقتها بهذا الموضوع أو ذاك من "موضوعات" السياسة. في نفس الوقت، يجري تحديد هذه التصورات والأفكار والمبادئ المقررة لسلوك أشخاص السياسة قبل الشروع بالنشاط العملي الفعلي وصياغة البرامج واتخاذ القرارات الإدارية.

في الممارسة السياسية والإدارية الملموسة، يستطيع أشخاص السياسة تحقيق ثلاثة أنواع أساسية من النشاط:

- **النوع الأول** –أفعال مستقلة ذاتيا مع احتمال الاستعانة بأشخاص سياسة آخرين لتحقيق الأفعال المعنية.
- **النوع الثاني** – الاعتراف بأفعال أشخاص السياسة الآخرين وعدم المشاركة في هذه الأفعال في ذات الوقت.
- **النوع الثالث** – تحريم تحقيق أفعال محددة سواء لشخص السياسة المعني، أو لأشخاص السياسة الآخرين.

تعد السياسة في التعليم العالي حالة خاصة من مصطلح السياسة، بالمعنى المشار إليه أعلاه، في دائرة نشاط وخدمات التعليم العالي، ويمكن توصيفها بكونها إجمالي محدد من الأفكار النظرية والأهداف والمهام والإجراءات العملية لتطوير التعليم العالي، التي يصوغها وينفذها أشخاص الإدارة على جميع مستوياتهم التنظيمية، موجهة نحو التأثير في موضوعات الإدارة في التعليم العالي كالتعليم والتعلم والبحث العلمي وخدمة المجتمع.

يتيح المعنى المنهجي لمفهوم السياسة التعليمية لواضعي سياسات تطوير التعليم العالي إمكانية اختيار هذه المقاربة أو تلك لاتجاهات السياسة التعليمية في الفترة الزمنية المعطاة، كما هو الحال مثلا في سياسات تطوير التعليم العالي والبحث العلمي في الإستراتيجية الوطنية لتطوير التعليم العالي في العراق للسنوات 2009-2013:

■ **إعادة النظر بسياسات القبول في الجامعات**

■ **تدعيم أسس التعامل مع التقنيات والتكنولوجيا الحديثة**

■ **الاهتمام ببرامج ربط وتوأمة الجامعات**

■ **مراعاة اقتصاديات التعليم في قطاع التعليم العالي**

■ **تعميم ونشر مفاهيم ضبط الجودة**

■ **إعادة متطلبات البحث العلمي**

■ **تحسين البيئة الأكاديمية**

■ **إعطاء دور أكبر للقطاع العام والخاص للمشاركة في مستقبل التعليم العالي.**

ولكن الاتجاهات الثمانية لتحقيق السياسة التعليمية في قطاع التعليم العالي أعلاه تعتبر، في التحليل الأخير، صفات لحالة منظومة التعليم العالي القائمة، أو ملامح محددة لمنظومة التعليم العالي، يعدّها صنّاع الستراتيجية الوطنية بمثابة نتائج لتحقيق نشاط سياسي في دائرة التعليم العالي. ينبغي التأكيد هنا، بأن الاتجاهات هذه ضرورة ملحّة ويجب أن يجري تنفيذها حاليا بالسرعة الممكنة، ولكن المشكلة المنهجية في هذا الأمر تتعلق بالسؤال عن مدى تمثيل هذه الاتجاهات لحالة منظومة التعليم العالي تمثيلا كاملا ومتعدد الجوانب؟ هنا أيضا نطرح سؤالا منهجيا آخرا أمام صنّاع الإستراتيجية الوطنية لتطوير التعليم العالي: هل يمكن عدّ هذه الاتجاهات بمثابة مهام من الضروري حلها في نطاق تنفيذ سياسة للتعليم العالي لم تجر صياغتها بشكل موفق؟

لغرض إيضاح المشكلة المنهجية المبحوثة هنا، نورد المثال الآتي من إستراتيجية تطوير التعليم، التي صاغتها مقاطعة "نوفوسبيرسك"، بعدّ المقاطعة المذكورة أحد شخوص إدارة التعليم في روسيا الاتحادية حسب القوانين الروسية الحاكمة لقطاع التعليم في البلاد. لقد صاغت المقاطعة الأهداف الآتية للسياسة التعليمية: "**زيادة دافعية السكان نحو توسيع التعليم وتكوين الشروط لذلك. تكوين الشروط لإشباع الحاجات المتنوعة في إعداد اختصاصيين رفيعي المستوى المهني. التحول نحو التطوير المستقر للتعليم الإبداعي**".

في نفس الوقت حددت المقاطعة المذكورة أيضا الاتجاهات الأساسية للسياسة التعليمية، والتي تقود الأفعال فيها إلى تحقيق الأهداف الموضوعة: "**المساواة في الوصول إلى تعليم نوعي. التعليم المستمر. تكوين القيّم المدنية. زيادة دور الأقاليم في التطوير الإبداعي للتعليم. تكامل روسيا مع الفضاء التعليمي الدولي**".

تجدر، في السياق نفسه، الإشارة إلى أن الدستور العراقي الجديد يتيح للأقاليم والمحافظات غير المنتظمة في إقليم إمكانية المشاركة في إدارة قطاع التعليم في البلاد، إذ تنص المادة (105) من الدستور على ذلك: "**تؤسس هيئة عامة لضمان حقوق الأقاليم والمحافظات غير المنتظمة في إقليم، في المشاركة العادلة في إدارة مؤسسات الدولة الاتحادية المختلفة، والبعثات والزمالات الدراسية...**"، وكذلك المادة (114)، الفقرة سادسا: "**تكون الاختصاصات الآتية مشتركة بين السلطات الاتحادية وسلطات الأقاليم: رسم السياسة التعليمية والتربوية**

العامة بالتشاور مع الأقاليم والمحافظات غير المنتظمة في إقليم".

يلاحظ من المثال أعلاه، أن المنظومة التعليمية المناطقية مدعوة بالأساس إلى تلبية احتياجات السكان والاقتصاد المحليين، لذلك صيغت حتى الأهداف لغرض زيادة توافق إمكانات منظومة التعليم لهذه الاحتياجات. بهذا المعنى، فان التحول نحو التعليم الإبداعي ينظر إليه ليس كهدف، وإنما وسيلة لتحقيق الهدفين الأولين (زيادة الفاعلية وتكوين الشروط)، أي مهمة تضمن تحقيق الهدفين المعنيين. إن الاتجاهات الأساسية للسياسة التعليمية بالتزاوج مع الأهداف تعدّ في هذا المجال كشروط مقيدة لتحقيق الأفعال المتباينة.

بكلمات أخرى، إذا كان تحقيق أفعال ما موجهة نحو الوصول إلى هدف أو هدفين يصاحبه خرق المساواة في التعليم، في هذه الحالة لا يمكن تنفيذ هذه الأفعال، إلا إذا تم تبني أفعال أخرى تعوّض هذا النوع من التغيّر أو الخرق للأهداف.

من المنطقي تماما أن تتشكل الاتجاهات الأساسية للسياسة التعليمية في قطاع التعليم العالي على قاعدة الاتجاهات الأساسية لنشاط الدولة لتحقيق أهداف محددة في منظومة التعليم العالي، وعلى سبيل المثال يمكن اقتراح الاتجاهات الآتية للسياسة التعليمية في نشاط قطاع التعليم العالي في العراق:

- إشاعة التعليم في المجتمع، ومن ضمنه التعليم العالي.
- الإسناد المتعدد الجوانب لعمليات التطوير الذاتي في منظومة التعليم العالي.
- تقليل تدخل الدولة في نشاط منظمات التعليم العالي.
- ضمان المكوّن المجتمعي في منظومة التعليم العالي.
- تقنين الوظائف والصلاحيات والمسؤوليات بين مختلف المستويات التنظيمية في إدارة منظومة التعليم العالي.
- تحريم تسييس أنشطة التعليم العالي لصالح أشخاص أو مجموعات أشخاص وفئات اجتماعية وسياسية معينة.
- ضمان حقوق ومصالح جميع الأطراف التي لها علاقة بنشاط التعليم العالي.
- ضمان استقلالية منظمات التعليم العالي والحريات الأكاديمية.
- رقابة توافق أنشطة التعليم العالي لمتطلبات التطوير المستقبلي المتواصل لمنظومة التعليم العالي.

يمكن للتجربة العالمية في صياغة السياسات التعليمية أن تضيء بعض معالم الطريق أمام محاولات تطوير وإصلاح منظومة التعليم العالي في العراق. إن المفهوم المركزي للسياسة التعليمية، الذي تتبناه منظمة اليونسكو، هو مفهوم "**دمقرطة التعليم**"، وإن الثقل الرئيس لهذا المفهوم يتمحور حول تنمية المبادرة والتقييم الذاتي الايجابي لدى المتعلمين. ولغرض إعطاء تصور عام عن السياسة التعليمية في الكثير من بلدان العالم، نورد الاتجاهات الأساسية لهذه السياسة:

- "**لا مركزية وديمقراطية الإدارة**"
- **توسيع الحكم الذاتي لمؤسسات التعليم العالي مع تقوية مسؤوليتها أمام المجتمع**
- **تحقيق العدالة الاجتماعية في الحصول على تعليم عالي الجودة**
- **الحركة باتجاه نماذج اقتصاد السوق لتنظيم وإدارة وتمويل التعليم**

- "تبني الأشكال الجديدة للتعليم على قاعدة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الحديثة".

في عالمنا المعاصر تزداد أهمية الدولة في صياغة وتحقيق السياسة التعليمية، والتي هي جزء من السياسة الاجتماعية لها، إذ تتضمن السياسة التعليمية في ذاتها فلسفة الدولة لما تريد من استراتيجيات تطوير قطاع التعليم لتحقيقه في الفترات الزمنية المخطط لها. بمعنى آخر، تستند وتسترشد أشكال ووسائل وطرق الوصول إلى الأهداف الإستراتيجية للدولة في مجال التعليم على مفردات التوجه الاستراتيجي المصاغة بدقة ومسؤولية اجتماعية عالية. في السياسة التعليمية تنعكس علاقة الدولة بالتعليم بعدّه مؤسسة اجتماعية، مؤثرة على مصالح كل فرد في المجتمع. في نفس الوقت، يمكن عدّ السياسة التعليمية للدولة أداة ضامنة للحقوق والحريات الأساسية للأفراد، وشرطا لضمان التطور الشامل والمقرر لملامح المجتمع في المستقبل المنظور والبعيد المدى.

عندما تبدي مؤسسة الدولة اهتماما جديا بتطوير قطاع التعليم وبمختلف مراحله، فان هذا الاهتمام تقف وراءه دائما دوافع ومبررات سياسية، وأخرى اقتصادية نفعية من وجهة نظر مستويات النموالاقتصادي وتغيير الهيكل القطاعي للاقتصاد والعائد من الاستثمار في هذا القطاع. لذلك توجه، في البلدان التي تعطي أهمية استثنائية للتعليم، الموارد الضرورية لتطويره بما يتناسب وأهميته الاقتصادية الكبيرة. وبنتيجة دعم وتبني منظومة فعالة للتعليم، تحصل البلدان المتطورة على ما نسبته 40٪ من الناتج القومي الإجمالي، والاسترداد الأكثر سرعة للاستثمارات في هذا النشاط الاجتماعي: الدولار الواحد، الموظف في التعليم، يعطي ليس أقل من 3-6 دولارات من الأرباح.

إن الخبرة الأجنبية في مجال السياسة التعليمية تشهد على أن المنظومات التعليمية الأكثر فاعلية، وإن كانت هذه المنظومات ليست دائما "ذات طابع إدارة مركزي" (كما هو الحال مثلا في سنغافورة)، تمتلك دائما علامات توجيه مقنن وأنها ليست خاضعة لقوانين اقتصاد السوق بشكل كامل. إن الاختلافات الجوهرية بين البلدان ذات الانجازات التعليمية العالية والمتدنية تنحصر في الكثير من المؤشرات، منها الآتية:

- مجموعة البلدان الأولى ترسم وتستعمل بنجاح آليات مؤسساتية محددة، توفر الدافعية القوية لغالبية السكان فيها لتخطي كل المراحل التعليمية الجديدة، بينما مجموعة البلدان الثانية تفضل تركيز الانتباه والاهتمام على تطوير التعليم النخبوي.

- توجد في مجموعة البلدان ذات الانجازات التعليمية العالية منظومة مركزية للتنظيم والتمويل والرقابة في هيئة معايير حكومية، وبرامج، وضمانات جودة الشهادات التعليمية وغيرها، وهذه المنظومة أما مفقودة تماما، أو محدودة نطاق الاستخدام في البلدان ذات الانجازات التعليمية المتدنية.

هيكل ووظائف ومبادئ السياسة التعليمية:

يركز المعنى المنهجي للسياسة التعليمية الانتباه على أن جميع مسائل إدارة تطوير أو تحديث أو إصلاح منظومة التعليم العالي تنحصر في ثلاث كتل رئيسة لمكونات الإدارة الإستراتيجية: كتلة الصياغات المنهجية للمفاهيم والقواعد والآليات المنظمة لإدارة نشاط التعليم العالي. كتلة شخوص إدارة

النشاط وكتلة موضوعات الإدارة. لذلك فان الإدارة الإستراتيجية الناجحة لتطوير منظومة التعليم العالي ستكون ممكنة فقط في حالة ما إذا جرى اعتماد توليفة موفقة، من وجهة نظر فاعلية أداء منظومة التعليم العالي والطابع الاجتماعي لها، من عناصر الكتل الثلاث للإدارة الإستراتيجية في هيئة منظومة متكاملة العناصر والصلات. بكلمات أخرى، يمكن النظر في السياسة التعليمية كمنظومة من زاوية كونها مزيجاً من مكونات الإدارة الإستراتيجية: الأهداف والمهام والقواعد والآليات، المصاغة من قبل شخوص الإدارة، والتي تستخدمها الأخيرة في نشاط التغيير الايجابي لموضوعات الإدارة.

لا يمكن للسياسة التعليمية في قطاع التعليم العالي، وفي قطاع التعليم بشكل عام، أن تكون شأناً خاصاً بوزارة التعليم العالي والقيادات الجامعية فقط، إذ أنها شأن اجتماعي عام يخص المجتمع بأسره، تديره مؤسسة الدولة نيابة عن المجتمع في الأنظمة السياسية الديمقراطية، ومنها العراق في الوقت الحاضر. وبما أن السياسة التعليمية هي نشاط يمارسه شخصان أو أكثر، فهي، إذاً، بحاجة إلى إدارة وليس قيادة كما يفهمها الكثير ممن تقلدوا مناصب إدارية عالية في منظومة التعليم العالي في بلادنا. ومع الأخذ بعين الاعتبار محتوى السياسة التعليمية: تبني قواعد وتحقيق نشاط طبقا لهذه القواعد، فان إدارتها ينبغي أن تضمن تحقيق المكونين هذين للسياسة: القواعد والنشاط، في آن واحد. واستنادا إلى هذا المنطق، توضع أمام الإدارة مجموعتين من الأهداف ينبغي تحقيقهما معا:

● **المجموعة الأولى من الأهداف:**

تكوين السياسة التعليمية، بمعنى صياغة وتبني قواعد النشاط. يمكن الوصول إلى أهداف هذه المجموعة في مجرى تكوين السياسة التعليمية بواسطة تحديد مكوناتها، وينبغي على الإدارة ضمان تنفيذ جملة أعمال لمعالجة هذه المكونات طبقا لتلك المتطلبات الرسمية (الشكلية)، التي تحتويها وثيقة السياسة التعليمية للدولة.

● **المجموعة الثانية من الأهداف:**

تنفيذ السياسة التعليمية، بمعنى تحقيق نشاط طبقا للقواعد الموضوعة للوصول إلى الأهداف، التي جرى رسمها في السياسة التعليمية. يمكن الوصول إلى أهداف هذه المجموعة في مجرى تنفيذ السياسة التعليمية من قبل الأشخاص، الذين شاركوا في هذا العمل، أما الإدارة فستكون مهمتها ضمان نشاطهم وتعاضدهم بغرض الحصول على النتائج المطلوبة.

إن السياسة التعليمية تقدم نفسها بعدّها مصدرا لتحديد أهداف ليس فقط منظومة التعليم العالي، وإنما أيضا لتقرير منهجية إدارة نشاط التعليم العالي ذاته. في أساس منهجية الإدارة هنا تقع ضرورة إدارة نوعين من العمليات المختلفة، التي ينبغي انجازها من قبل أشخاص إدارة مختلفين، وهذه العمليات تتحقق باستخدام قواعد وإجراءات مختلفة، ويجري تقييمها بشكل مختلف، لذلك فان النتائج المتحصل عليها من هذه العمليات ستكون مختلفة أيضا. أضف إلى ذلك، ستحدد نتائج العملية الأولى شروط وقواعد ونطاق العملية الثانية كعلاقة تأثير مباشرة، بينما مجرى ونتائج تنفيذ السياسة التعليمية ستمارس تأثيرا على عملية صياغتها من خلال إحداث تغييرات أو إضافات أو تصحيح انحرافات كعلاقة تأثير عكسية، وإن تنفيذ هذه العلاقات (المباشرة والعكسية)

سيجري ضمانه من خلال النشاط الإداري نفسه.

ولكن السياسة التعليمية ليست فقط مصدرا لتحديد أهداف إدارة التعليم العالي في الجزء الخاص بتنفيذ هذه السياسة، ولكنها أيضا، وكما أشير إلى ذلك، ستكون مصدرا لموضوع الإدارة في الجزء الخاص بصياغة السياسة، وكذلك في الجزء الخاص بتنفيذ هذه السياسة. بمعنى آخر، ينبغي تحديد وظائف الإدارة المناسبة للأجهزة الإدارية، المناط بها القيام بهذا العمل. أضف إلى ذلك، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار بأن النشاط الإداري هنا ينبغي أن يشمل أيضا نشاط منظومة التعليم العالي بمجملها، ذلك أن السياسة التعليمية يجري تنفيذها في نشاط المنظومة التعليمية، وإن نطاق تنفيذ السياسة التعليمية، كقاعدة، سيكون مجال التغيير في منظومة التعليم. من هنا، ستوضع أمام إدارة منظومة التعليم العالي ثلاثة أنواع من الأهداف:

- ضمان صياغة (وعند الضرورة تصحيح) السياسة التعليمية.
- ضمان تنفيذ السياسة التعليمية والوصول إلى الأهداف الموضوعة فيها.
- ضمان الأداء الوظيفي لمنظومة التعليم العالي، التي يجري فيها تنفيذ السياسة التعليمية، والوصول إلى الأهداف الموضوعة أمام منظومة التعليم العالي.

من الممكن أن يفضي التحليل أعلاه للسياسة التعليمية في قطاع التعليم العالي (سواء في العراق، أو في أي بلد آخر) إلى غير النتائج المرجوة، أو إلى نتائج غير مرغوب فيها، من عملية إدارة صياغتها وتنفيذها في الواقع الفعلي لمنظومة التعليم العالي. إن عملية إدارة النشاط الخاص بصياغة وتنفيذ السياسة التعليمية يتطلب وجود منظومة من **المبادئ القاعدية**، يجري بمقتضاها تحقيق هذا العمل الكبير، ذلك أن وجود هذه المبادئ سيقرر الإطار والشروط التي تصاغ بموجبها السياسة التعليمية. تعدّ هذه الشروط المحدد الرئيس عند وضع الأهداف، والمهام، ورسم خطة الإجراءات لتحقيق السياسة المعنية. على سبيل المثال، لوأمكن لنا في العراق عدّ التعليم العالي، والتعليم عامة، موردا استراتيجيا وعاملا أساسيا في النموالتطوير الاقتصادي والاجتماعي في البلاد، كأحد المبادئ القاعدية في رسم السياسة التعليمية، عندها سيكون لزّاما على عملية إدارة السياسة التعليمية والمنظومة التعليمية الكلية في البلاد (أشخاصا وموضوعات) السير على هدى هذا المبدأ في تخطيط وتنفيذ أي عمل أو إجراء في قطاع التعليم العالي وعلاقاته التفاعلية مع القطاعات والأنشطة الأخرى في الاقتصاد والمجتمع.

عند النظر في الإستراتيجية الوطنية للتعليم العالي في العراق للسنوات 2009–2013 لا نعثر على مبادئ جرت بموجبها صياغة الإستراتيجية المعنية، أو بموجبها يجري تنفيذ هذه الإستراتيجية في الوقت الحاضر. لقد صيغت فلسفة التعليم العالي (والإستراتيجية الوطنية أيضا) وفق "**توجهات عامة**"، تصّعب منهجيا فهمها واستيعابها: هل هي نشاط وظيفي، إجراءات تقنية وتنظيمية، أهداف، مبادئ، إعلان سياسي أو إيديولوجي..الخ.

إن دراسة "المبادئ" هو من الموضوعات الشائكة والخلافية في نظريتي الإدارة والمنظمة، وكما هو الأمر أيضا في المجالات الاجتماعية الأخرى. إذا كان **القانون** يعكس

صلات وعلاقات مستقرة ومتكررة، حاصلة في الظواهر الطبيعية والاجتماعية، فان **المبدأ** عبارة عن قاعدة مثلى، معيار، صاغها الناس وتحمل الطابع الذاتي.

تستخدم المبادئ القاعدية بمثابة مرشدات عمل أو خرائط طريق في الميادين الوظيفية للنشاط أو في إدارة هذا النشاط كصياغة السياسات الإستراتيجية التعليمية. وحين نعود بالتحليل قليلا إلى الوراء سنجد أن "**التوجهات العامة في الإستراتيجية الوطنية لتطوير التعليم العالي**"، لا يمكن تعدّها مبادئ تقام على قاعدتها عمارة الاستراتيجيات أو السياسات أو الخطط والبرامج. إن المبادئ القاعدية في الإدارة الإستراتيجية، ومنها صياغة وتنفيذ السياسة التعليمية، تستهدف تكوين الشروط المثلى في النشاط أو إدارة هذا النشاط عملياتيا أو استراتيجيا في العراق:

● تكوين الشروط الملائمة لتلبية الاحتياجات التعليمية والثقافية لجميع العراقيين وفق أحكام الدستور.

● إسناد سياسة الدولة التعليمية، الموجهة نحو ضمان الوحدة التعليمية والثقافية في إطار التنوّع، بواسطة وسائل التعليم العالي وبرامجه.

● تكوين الشروط الضرورية لتحقيق الذات لدى جميع المتعلمين والدارسين وأعضاء الهيئات التدريسية.

وبما أن صياغة الاستراتيجيات والسياسات الجديدة تستهدف في التحليل الأخير تغيير حالة منظومة التعليم العالي في العراق باتجاه تطويرها وفق مسارات إعادة التكوين أو إعادة التنظيم أو إعادة الهيكلة أو وفق جميع هذه المسارات، لذلك فان عمليات صياغة السياسة التعليمية ينبغي أن تؤطر بمنظومة مبادئ قاعدية، منها الآتية:

● الاعتراف بالدور الاستثنائي للتعليم العالي، والتعليم عامة، وعدّه موردا استراتيجيا يوظف في استراتيجيات التطوير الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للبلاد.

● وحدة وتنوع الفضاء التعليمي والثقافي العراقي، وتحريم أي شكل من أشكال الإكراه الفكري والثقافي في البلاد.

● إشاعة التعليم العالي في البلاد، ومكافحة نزعات تحويله إلى تعليم نخبوي.

● تكييف منظومة التعليم العالي لمستويات وخصائص تطور المجتمع وفق رؤى مستقبلية، تأخذ بعين الاعتبار اتجاهات تطور التعليم العالي في العالم واستحقاقات الاقتصاد القائم على المعارف والمعلومات والتكنولوجيات المتطورة.

● تكوين آليات ناجعة لتوافق مصالح جميع أطراف نشاط منظومة التعليم العالي أو التي لها مصلحة في هذا النشاط.

● دعم الدولة المتعدد الجوانب لحصول الدارسين على تعليم نوعي عالي الجودة والكفاءة والفاعلية وبما يتوافق مع معايير الاعتماد والاعتراف الدولي.

● دعم الدولة التشريعي والتنظيمي والمادي للمبادرات الذاتية من جميع أطراف منظومة التعليم العالي، الهادفة إلى تطوير التعليم العالي.

البصرة، حزيران 2011
jawadlafta@yahoo.com

نظرة على واقع التعليم العالي في عراق اليوم *

د. إبـــــراهـــيـــم إســـمـــــاعـــيل

ولد الدكتور إبراهيم إسماعيل عام 1952 وأكمل دراسته الجامعية في كلية الزراعة والغابات، جامعة الموصل عام 1974، عمل في الجزائر واليمن الديمقراطية وسوريا والمجر. حصل على الدكتوراه عام 1990من أكاديمية العلوم الهنغارية، وعلى دكتوراه العلوم D.scمن جامعة علوم الحياة السويدية عام 2006 حيث يعمل فيها أستاذاً لمادة الفسلجة منذ سنوات عديدة. نشر عشرات البحوث العلمية وله كتاب علمي، كما نشر عشرات المقالات في الشؤون السياسية والهموم الوطنية العراقية.

للحديث عن العالم العراقي عبد الجبار عبد اللّه حقول متعددة، يماثل عديدها ميادين المعرفة التي كان الرجل من فرسانها، مما يجعل من غير اليسير الحديث بعجالة عن منجز العالم الجليل، إلا إذا ما اختص الأمر بأحد تلك الميادين، وهوهنا دوره بعدّه رائداً من رواد التحديث في العراق المعاصر، كان التعليم العالي والبحث العلمي أداتهَ التنويرية ومشعلَه.

فقد أدرك عبد الجبار عبد اللّه، قبل سفره الى الولايات المتحدة وبعد عودته منها، أن تحديثَ أي بلد يسعى للحرية والتقدم، هو بوابةُ الخلاص من الهيمنة والمحفزُ الرئيس للتطور. فكما الحريةُ تعبيرُ عن وجود الإنسان تسبق المعرفةَ فإن تراكمَ هذه الأخيرة مدخلُ رئيس للعمل من أجل وجودٍ حرٍ ومتحضر. كما أدرك أن التحديثَ ليس عمليةً منفصلةً أو معزولةً وإنما هو جزء من كلٍ متكاملٍ ومتفاعل، يرتبط ارتباطا جدلياً بتطوير العمليةِ التعليمية وجزئِها المتقدم، التعليم العالي، ولا يتحقق إلا في ظلِ سلم أهلي وفي إعمال أغلب الناس للعقلِ، والتصدي لكل مظاهرِ الجهل والخرافة والخضوع للسلف، فإدراك النقدَ يسبق العلمَ بتغيير المنتقَد. ولهذا، وضع الرجل، حال تبوئه عضويةَ مجلس جامعة بغداد، ومن ثم

رئاستَها، أفكاره موضعَ التنفيذ، فرسم إستراتيجيةً للتحديث تتلخصُ في نقاط مهمة من أبرزها:

1- **دراسة تحليلية لواقع التعليم العالي والبحث العلمي في البلاد، تحدد الأهدافَ الرئيسة له وبرامج تحقيقها، وخططاً مرنة عند التغيير، وقدرةً على إعادة توزيع الموارد بشكل يضمن إنجاح أية عملية لإعادة التنظيم**. وقد تجسدت ثمارُ عمله هذا في تطوير جامعة بغداد، وفي الاستثمار الأمثل للموارد المالية والبشرية المتاحة، وفي القيام بالمفاضلة بين حقول المعرفة استنادا الى حاجات التطور. ففي فترة رئاسته لجامعة بغداد أنشأت معاهدٌ للتمريض واللغات وكلياتٌ للطب والزراعة ومجلسٌ للبحث العلمي. وينقل لنا د. إبراهيم الخميسي في كتابه: عين الإعصار تصريحاً له يؤكد فيه (إن الجامعة جادة في تأسيس مجلس علمي أعلى يقوم على وضع تلك الخطط وتحديد واجبات المشاريع وأعمالها)

2- وتجسيداً لفلسفته التربوية التي تجعل من العلم أساساً للتقدم البشري، وإيماناً بدور الأستاذ الجامعي كمدخل أساسٍ للعملية التعليمية، وبدور الطالب كمدخل ثان هام للعملية التعليمية، أكد عبد الجبار عبد اللّه على **أن يكون التعليم متاحاً للجميع بغض النظر عن خلفية الشخص**، وآمن بالاستماع الدقيق وبروح ديمقراطية للطالب ولتقييمه للمادة التي درسها، وعدّ ذلك أحد أسس تقييم عملية التعليم الأساسية، الى جانب اهتمامه الكبير بالحرية الفكرية واستقلالية الجامعة، بل وحرية الباحث وضمان التطوير المستمر للإمكانيات العلمية والتربوية للمدرس الجامعي والمشرفين على الدراسات العليا. وله نص صريح يدعوفيه الى ضمان استقلال الجامعة وحرية العالم حيث يقول (إذا تعرض العلماء إلى شيء من الضغط أو الأذى وجدوا أنفسهم في جو لا يشجعهم على التصريح بما يتوصلون إليه من النتائج، وضاعت الفائدة منهم وتحولوا إلى أتباع بعد أن كانوا قادرين مرشدين. إذن فالشرط الأساس لممارسة الحرية الفكرية هو الشعور بالحصانة القانونية واستمداد القوة والصلابة من ذلك الشعور)

3- وعمل عبد الجبار عبد اللّه على **الربط بين التعليم والبحث العلمي، بحيث يكون للبحث جذور في التعليم الأساس يحسنه ويتأثر إيجابياً بمخرجاته**. فسعى لتشكيل مجلس أعلى للبحوث العلمية وحرص على أن تتطور إمكانيات العراق في مجال استثمار الطاقة الذرية للأغراض السلمية. وهناك العديد من الأمثلة على منجزه هذا، من أبرزها تنظيم عقد أول مؤتمر علمي في العراق، وتشكيل العديد من الجمعيات العلمية والاشتراك في العديد من المؤتمرات والملتقيات العلمية الدولية وتوثيق الصلة بين العراق وكبريات الجامعات العالمية وترجمة مؤلفات علمية مختلفة وتأليف عدد من الكتب وغيرها.

4- ولكي **تكون الجامعة مسؤولة وطنياً عن إعداد علمي - تربوي لمهن محددة، وبشكل يتسق وحاجات السوق والتطور العام**، دعا لدراسة حاجات البلاد وحل مشاكلها والى أن تتوزع معاهدُ الجامعة، ذات الإدارة المركزية على عموم البلاد بما يضمن تعاونا استراتيجيا طويل الأمد ومفعما بالثقة مع المجتمع ككل،

فأشرف على إنشاء جامعة البصرة ومجلس البحوث الإسلامية وكليات الزراعة والغابات والطب في الموصل وكلية الإدارة في البصرة.

5- وإدراكاً منه لما للمكان من تأثير على العملية التعليمية يتمثل في الإحساس بالتواجد في تجمع علمي عام كالأجواء العلمية الراقية والمكتبات المشتركة والرفقة الدراسية...الخ، سعى عبد الجبار عبد اللّه لتوفير أقسام داخلية مناسبة ومشاغل مختلفة لطلبة الفنون الجميلة وقاعات للألعاب الرياضية والنشاطات اللاصفية وغيرها.

ورغم أن تجربة الرجل قد وأدت جراء الغزوالتتري المعاصر في 8 شباط 1963، حيث أعتقل وعذب وأجبر على الرحيل الى المنفى، فإن إستراتيجيته وأسسَ التحديث التي وضعها ظلت فاعلة تحققُ للعراق نهضةً علميةً كبيرة، ويشار لها بالتقدير في العالم المتمدن، حتى نهاية السبعينات من القرن العشرين حيث استبدلت بإستراتيجية تبعيث البلاد والعباد التي أدت وبالتراكم مع نتائج الحروب والحصار والاحتلال الى كارثة شاملة.

ففي الوقت الذي حمّل فيه روادُ التحديث، وفي الصميم منهم عبد الجبار عبد اللّه، مؤسساتِ التعليم العالي مسؤوليةَ صيانةِ وتعزيز الهوية الوطنية وبناء قيم التسامح والديمقراطية والتعددية وتنشيط منابرٍ تدعوللتآخي وتكوين رأي عام مشترك، مدركاً أن الدولة الإطار الوحيد لبناء فضاء العمومية، القانوني والإنساني، الذي لا قانون ولا نظام ولا سلام من دونه، تحولت هذه المؤسسات الى ساحات للاستقطاب الطائفي والقومي، تعيش تدهوراً أمنياً ويتحكم بها بشكل علني أو مستتر نفوذ ميليشي، ويغيب عنها مبدأ تكافؤ الفرص لجهة الانتماء الطائفي أو السياسي، مما يجعلها ميادين لإذكاء الصراع وتأجيجه وبؤرَ توترٍ تتوجس منها الناس بدل أن تحتمي بضيائها.

وفي الوقت الذي دافع فيه الرواد التحديثيون عن حرية واستقلالية المؤسسة التعليمية والباحث والطالب، وعن حياة مناسبة لهم، يعيش الأستاذ الجامعي ومنذ عقود ظروفاً قاسية حجّمت من نشاطه وأضعفت قدراته، وأفرغت العراق من علمائه وعقوله بهجرة أكثر من 5000 منهم فيما غيبت كواتم الصوت أكثر من 300 أستاذ (هناك إحصائيات أكثر تشاؤماً)، ناهيكم عن سيادة أجواء الرعب في الجامعات والإجراءات التعسفية التي تستظهر أسباب السن واجتثاث البعث وغيرها وتستبطن أسبابا طائفية وأثنية وحزبية. فيما أغرقت بعضُ المؤسسات بحملة شهادات مزورة أو ممنوحة من جامعات كارتونية، ممن يفتقدون الى مستلزمات الأستاذ الجامعي المعاصر التدريسية والبحثية. وتتواصل للأسف الشديد السياسة الخاطئة للنظام السابق في سد الفراغات الكبيرة جراء هجرة العقول أو تغييبها، والمتمثلة بالتغاضي عن بعض الشروط الموضوعية للترقيات العلمية واعتماد سياسات لا علاقة لها بالتفوق عند قبول الطلبة للدراسات العليا. لقد أدى هذا التوسع الأفقي الى تدهور مستوى التدريس ومستوى البحث العلمي، مما ينذر بعاقبة وخيمة إن لم تسرع الحكومة لصياغة إستراتيجية تعالج هذا القصور!

كما يعيش طلبة العراق ظروفاً قاسية أمنياً واقتصاديا واجتماعيا ومعرفياً. ورغم أن عدد منتسبي مؤسسات التعليم العالي قد

زاد على400 ألف طالب فأن ذلك لا يشكل سوى 1.3٪ من الشعب وهي نسبة قليلة لاسيما في بلد يشكل الشباب أكثر من نصف سكانه! وإذا عدّت مرحلة التعليم الجامعي من أخطر مراحل تطور الفرد فإن التخلف الذي تعيشه جامعاتنا يسبب تنامياً متسارعاً وخطيراً للشرائح المهمشة في المجتمع. فجراء عدم تعلم الشباب بشكل كاف يؤهلهم للعمل أو جراء غياب الفرص لتنفيذ ما تعلموه، يتحول العديد منهم لشخصيات هلامية قلقة وناقمة وعنيفة، تشعر بوطأة القمع والتبعية، وتؤمن بالقوة وبكل ما يمنحها بعضاً من الاستقرار النفسي، كالوعي المتخلف والمشبع بالأفكار الغيبية والديماغوجية.

وفيما عاش العراق لعقود طويلة في ظل إستراتيجية متخلفة ترمي لتوظيف المناهج الدراسية لخلق مواطن مدجن غير آبه بسلبيات الحياة وذي عقلية متطابقة مع الجوهر السياسي للحكم السابق، تفتقد المساعي الكبيرة التي تبذل اليوم الى إستراتيجية واضحة، فما زالت البرامج الدراسية ومقرراتها غير متوافقة مع الاحتياجات الأساسية لسوق العمل، وغير مرتكزة الى التطور المذهل في تقنية المعلومات والاتصالات وتوفير القدرة على استخدامها، ناهيك عن أمكانية تنمية قدرات المتعلم على الابتكار، وخضوعها للمحاصصة أحياناً أو للصياغة الطائفية أحياناً أخرى.

ويبدوترفاً اليوم التذكير بما دعا إليه عبد الجبار عبد اللّه من تلازم مهمتي الأستاذ الجامعي، التدريس والبحث، حيث لا يمكنه إنجاز إحداهما بدون الأخرى، لأن نظامنا الجامعي يفتقد الى آلية تحدد النشاط البحثي للتدريسي أو توفر توازناً له في عمله أو توفر الدعم المالي والمعنوي المناسب له ليحقق ذلك، الأمر الذي جعل البحث العلمي أمراً شكلياً ووسيلة للحصول على الترقية العلمية والوظيفية. وفي وقت تخصص فيه دولة كالسويد 3.7٪ من دخلها للبحث العلمي، تكلف رواتب أعضاء مجلس النواب أضعاف ميزانية وزارة التعليم العالي التي يذهب 80٪ منها لدفع الرواتب! وعموما يحز في النفس القول بأني لم أقرأ بحثاً علمياً منجزاً في العراق في أية مجلة علمية عالمية رصينة طيلة ربع قرن مضى قضيته في البحث العلمي. إن هذا وحده كاف لخلق حالة ضعف في عملية التواصل بين جامعاتنا والعالم المتقدم، وسبب في تأخر إحياء المدرسة الفكرية العلمية، المتسمة بتقاليد يستند عليها البحث العلمي في معالجته لمشاكل البلد، والتي بدأت إرهاصاتها في زمن العالم الجليل عبد الجبار عبد اللّه.

وتفتقد العديد من الإدارات الجامعية الى الكفاءة والنظرة الإستراتيجية الى واقعها وما تنوي الوصول إليه، ولهذا القصور أسباب كثيرة منها هجرة العقول أو تغييبها ونقص الموارد المخصصة والمحاصصة وغياب تكافؤ الفرص وغيرها.

قبل عام مضى، صرح السيد وزير التعليم العالي والبحث العلمي السابق قائلا: "إن الجامعات بعيدة عن الاعتراف الدولي بها لفقدانها الشروط الأساسية المعتمدة في الجامعات العالمية" وبعد أن أخبرنا بتشكيل عدد من اللجان لانجاز ذلك أضاف:

" أن العمل جار لوضع أسس النهوض بالجامعات العراقية والارتقاء بها الى

مصاف نظيراتها العالمية لتكون ضمن أفضل تصنيف (500) جامعة في العالم". ويبدوأن تفاؤل السيد الوزير السابق قد تبدد مع إعلان التقييم العالمي للجامعات، الأمر الذي جعل السيد الوزير الحالي أكثر تشاؤماً في تصريحاته وحذراً في وعوده، ذلك التقييم الذي أوضح بأن من بين أفضل مئة جامعة أسيوية لم تكن هناك أية جامعة عراقية فيما لم تكن جامعات بغداد والموصل والبصرة التي تعد أعرق جامعات البلاد من بين أفضل 12000جامعة في العالم. وحتى جامعة الكوفة التي اعتبرت أفضل جامعة عراقية احتلت المرتبة 6097عالمياً تليها الجامعة التكنولوجية في المرتبة 6503!

إن وعود السادة المسؤولين لا يمكن أن تتحقق بدون العودة لأسس التحديث التي وضعها العالم العراقي الأصيل عبد الجبار عبد اللّه وزملاؤه والمتسمة بالإسراع بوضع إستراتيجية علمية وطنية محايدة، تستند الى مبادئ وفلسفة واضحة، والتزام بمراجعة متواصلة لتدقيق هذه الإستراتيجية وتطويرها، وإعادة تنظيم دورية لمؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي على ضوء تطبيق الإستراتيجية أو مع تغيير متطلبات التطور.

كما يجب أن توفر الدولة ما يضمن التزام الناس بإلزامية التعليم حتى الدراسة المتوسطة، وأن تستهدف سياستها التعليمية تحسين الكفاءة وتوفير إمكانيات جيدة للفكر النقدي والتجريبي والمبدع من جهة وتطوير حقيقي في القدرات الفردية يضمن خبرة عملية جيدة عند التخرج من جهة مكملة. وأن يرتبط التعليم العالي بالبحث وإنتاج الجديد، وبتأمين علاقة قوية بين التعليم والبحوث والسياسة العامة لأعمار وتقدم البلاد، مع دعم خاص للباحثين على أساس مقاييس محددة، كعدد البحوث ونوعيتها وأهدافها وصلتها بالتطور العام للبلاد..الخ ونظام الملكية والمسار المستقبلي للأستاذ والباحث.

وتقع على الجامعة مهمة الوصول الى المجتمع وعدم انتظار الآخرين كي يأتوا إليها للتعرف على عملها ونتائج أبحاثها..الخ. وتبقى جذوة الأمل متقدة في أن تذكي مئوية العالم الفذ عبد الجبار عبد اللّه حماس المختصين والمسؤولين لإنقاذ جامعاتنا ومؤسساتنا التعليمية قبل فوات الأوان.

* قدم جزء من هذه المادة في المهرجان الذي أقامته الجمعية الثقافية المندائية في لوند السويدية بمناسبة مئوية العالم الكبير الدكتور عبد الجبار عبد اللّه.

النزاعات الوطنية والتدخلات الدولية

لطفي حاتم

الدكتور لطفي حاتم من مواليد 1946 عميد كلية القانون والعلوم السياسية في الجامعة العربية في الدانمارك.. نشر الكثير من البحوث في مجلة (الثقافة الجديدة)، (النهج)، (الطريق) اللبنانية، مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة، كما أصدر ثلاثة كتب: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية، آراء وأفكار حول التوسع الرأسمالي، موضوعات في الفكر السياسي المعاصر، كما له كتاب قيد الطبع: التشكيلة الرأسمالية العالمية والشرعية السياسية للدولة الوطنية.

أثارت الاحتجاجات الشعبية المندلعة في البلدان العربية الكثير من التحليلات والرؤى انطلاقاً من مواقع الباحثين الفكرية وانتماءاتهم العقائدية وعلى الرغم من اصطفاف أغلب الباحثين الى جانب مطالب الشعوب العربية المشروعة إلا أن الكثير من تلك التحليلات أغفلت الربط بين طبيعة التغيرات المراد تحقيقها من جانب ومستقبل البلدان العربية السياسي والاقتصادي فضلاً عن علاقته بمصالح الدول الكبرى من جانب آخر.

ومساهمة في السجال الجاري حول الاحتجاجات الشعبية والتدخلات الخارجية أتعرض الى موجة المطالبات بالتغيير الشامل دون حساب لنتائجه الكارثية، متوقفا عند قضايا رئيسة تتعلق بالنزاعات الوطنية وعلاقاتها بحقوق الإنسان وصولا الى محاولة دراسة أهداف التدخلات الدولية وترابطها مع المصالح الدولية.

من المعروف أن النزاعات الاجتماعية سواء حملت مطالب ديمقراطية أو اتشحت بأردية اقتصادية أو تمثلت بنزاعات قومية عكست طموح الحياة البشرية وروحها التطورية، لهذا يمكن تحديد تلك النزاعات على أنها الشكل الديناميكي المعبر عن طموح المجتمعات الإنسانية باتجاه التقدم والتحرر. وبسبب ديناميكية الحركة التطورية نرى أن النزاعات الاجتماعية والطبقية ما هي إلا تعبير مكثف عن اختلال توزيع الثروات الوطنية بين مكونات التشكيلة الاجتماعية وما ينتج عن ذلك من اختلالات اقتصادية، سياسية، ثقافية واجتماعية

تستدعي مطالبة القوى الاجتماعية المتضررة بحقوقها الاقتصادية / السياسية المهدورة.

– لقد اتخذت الاحتجاجات الشعبية المشروعة أشكالاً اقتصادية وسياسية بأساليب سلمية وأخرى عنفية. وفي مجرى النزاعات الاجتماعية خاصة بعد سيادة نمط الإنتاج الرأسمالي وانقسام تشكيلته الاجتماعية الى طبقتين اجتماعيتين رئيسيتين تطورت أدوات وأشكال تلك النزاعات حيث أضيف الى الأشكال الاقتصادية والسياسية صيغ أيديولوجية تدعوالى المساواة والعدالة الاجتماعية عبر استلام السلطة واستخدامها كرافعة سياسية للتغيرات الاجتماعية.

– إن ظهور الدولة السوفيتية وحلفها الاشتراكي أحدثا خرقا في منظومة العلاقات الدولية وأعطى دفعة لتطور النزاعات الاجتماعية بعد اعتماد كثرة من الحركات التحررية المُثل الاشتراكية في كفاحها الاجتماعي ساعية الى استلام السلطة السياسية وقلب المعادلة الطبقية المبنية على اللامساواة والاضطهاد.

– تطور العلاقات الدولية على قاعدة ازدواجية خيار التطور الاجتماعي رأسمالي/اشتراكي أفضى الى تدخلات دولية مساندة لأحد طرفي النزاع الاجتماعي حيث وقفت الدول الاشتراكية الى جانب القوى المناهضة للتطور الرأسمالي بينما ساندت الدول الرأسمالية القوى المعادية لقوى التطور الاشتراكي.

– اتسمت التدخلات الدولية الهادفة الى مساندة أحد طرفي النزاع الاجتماعي بكثرة من الخصائص يمكن حصرها بالعناوين الآتية:

أ. لم تعر القوى الدولية المتدخلة اهتماماً بحقوق الإنسان ناهيك عن مساندتها لمَلكيات مطلقة، ديكتاتوريات عسكرية، وشرعيات ثورية ذات الحزب الواحد.

ب. عبرت التدخلات الخارجية بالرغم من نزعتها الأيديولوجية وشعاراتها البراقة عن المصالح الإستراتيجية للدول المتدخلة.

ج. شكلت الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية الوطنية قواعد اجتماعية سياسية ساندة لطرفي التدخل الدولي.

د. اتخذت التدخلات الدولية أشكالا مختلفة منها مساندة الدول الاشتراكية لحروب التحرير التي اعتمدتها القوى الوطنية واليسارية ومنها لجوء الدول الرأسمالية الكبرى طريق الانقلابات العسكرية وإثارة الحروب الأهلية.

هـ. أدى الاستقرار الدولي المبني على الأحلاف العسكرية الى تحجيم التدخلات العسكرية المباشرة المستهدفة مساندة أطراف النزاع الاجتماعي وما نتج عن ذلك من اللجوء الى القرارات الدولية لمعالجة تلك النزاعات.

و. أنتجت مرحلة ازدواجية خيار التطور الاجتماعي تقسيما سياسيا لدول العالم بين المعسكرين المتنازعين، إلا أن التقسيم السياسي لم يحدث تطوراً اجتماعياً في دول حركة التحرر الوطنية رغم ترابطها مع خيار التطور الاشتراكي.

****

أفضى انهيار خيار التطور الاشتراكي الى انتقال السياسة الدولية الى مواقع جديدة تحددها المصالح المشتركة للمراكز الرأسمالية ناهيك عن كثرة من التبدلات الفكرية / السياسية في برامج الحركات

الاجتماعية لذا يتعين علينا تأشير أهم التغيرات الاقتصادية ـ الاجتماعية التي تساعدنا على تحليل التوجهات الفعلية الناظمة للسياسة الدولية والتي يمكن تحديدها بالمواقع الآتية:

– أفضى الطور الجديد من التوسع الرأسمالي الى ترابط اقتصادات دول العالم بمستوياتها الثلاثة الوطنية / الإقليمية / الدولية المرتكزة على وحدة أسلوب الإنتاج الرأسمالي وما نتج عن ذلك من تحكم المراكز الرأسمالية بتطور العلاقات الاقتصادية الدولية.

– أفرزت الترابطات الاقتصادية نظماً سياسية دولية وطبقات اجتماعية متحكمة بالسياسة الدولية، وما نتج عن ذلك من انتقال برجوازية المراكز الرأسمالية من مواقعها الوطنية الى ضفاف أممية، الأمر الذي دفعها ـ برجوازية الدول الكبرى ـ الى مساندة مصالح القوى الطبقية المتحالفة معها.

– تراجع التراكم الرأسمالي الناتج عن انخفاض الإنتاج الصناعي العالمي جعل فئات البرجوازية المالية، العقارية، الخدمية، تتحكم في سير النشاط الاقتصادي العالمي.

– يشترط توسع رأس المال المعولم التدخل في الدول الوطنية بأطر أيديولوجية، اقتصادية، سياسية مستهدفة إعادة بناء الدول الوطنية ونظمها السياسية فضلا عن تشكيلتها الاجتماعية.

لإضفاء شرعية فكرية معللة على تلك الموضوعات لابد من وضعها على قاعدة تاريخية ملموسة متعرضين بداية الى سمات دول الشرعية (الانقلابية) المتمثلة بما يلي:

ـ من المعروف أن دول الشرعية (الانقلابية) التي أنتجتها ازدواجية خيار التطور الاجتماعي امتازت بتوافقها ونموذج الدولة السوفيتية المتمحور حول ملكية الدولة لوسائل الإنتاج، احتكار وظائف الدولة الاقتصادية الإنتاجية / الخدمية، تحويل المجتمع المدني الى مؤسسة سياسية ملحقة بالجهاز البيروقراطي، وأخيرا وحدانية الحزب الحاكم.

ـ إن النتائج الاقتصادية الاجتماعية التي أفرزها توافق دول الشرعية (الانقلابية) مع التجربة السوفيتية أفضت الى اختلالات حادة في توازن مصالح الناس الاجتماعية ناهيك عن خنق حرياتهم السياسية.

ـ أمسى توافق بناء دول الشرعية (الانقلابية) مع التجربة السوفيتية عائقا أمام التوسع الرأسمالي المعولم لهذا بات من الضروري تحويل تلك الدول الى دول تتجاوب ومسار حركة الشركات الاحتكارية ومصالحها الإستراتيجية.

قبل تعرضنا لأهداف إعادة بناء دول الشرعية (الانقلابية) لابد لنا من تأشير السمات العامة لسياسة التدخلات الدولية في المرحلة المعاصرة من التوسع الرأسمالي والتي يمكن تكثيفها بالأفكار الآتية:

ـ ترابط سياسة التدخلات العسكرية والأزمة المالية الاقتصادية الناتجة عن سيادة القطاعات المالية ـ العسكرية، العقارية، الخدمية التي حدت من تجدد التراكم الرأسمالي وأضفت طابعاً طفيليا على الاقتصاد الدولي، الأمر الذي أفضى الى إشكالات اجتماعية وسياسية في الدول المتحكمة في مستويات الاقتصاد العالمي.

ـ ارتكزت الكولونيالية الجديدة المتسمة بالتدخلات العسكرية على سياسة دولية

موحدة بين دول التحالف تمثلت بتقاسم الأعباء العسكرية والمكاسب الاقتصادية الناتجة عن التدخلات الدولية (1).

ـ تزامنت العقوبات الاقتصادية الدولية على دول الشرعية (الانقلابية) مع حروب إعلامية مترابطة مع أنشطة استخباراتية دولية عاملة على تحريض الرأي العام الوطني والدولي الرافض للسلطات الاستبدادية مستهدفة إضفاء شرعية دولية على التدخلات الخارجية (2).

على أساس تلك المؤشرات نتعرض الى نتائج التدخلات العسكرية الرامية الى فتح الطريق أمام التوسع الرأسمالي مستندين بذلك الى التجربة التاريخية المعاصرة.

1- بناء النظم السياسية

يهدف التدخل الخارجي في الدول الوطنية الى إعادة بناء نظمها السياسية بما يتجاوب وحركة التوسع الرأسمالي. وبهذا السياق بينت التجربة التاريخية أن إعادة بناء النظم السياسية الناتج عن تدخلات عسكرية خارجية يصطدم بكثرة من الإشكالات السياسية والاجتماعية أهمها:

أ. افتقار الديمقراطية المفروضة من الخارج الى موازنة الحقوق الاجتماعية والسياسية للإنسان.

ب. فتح التشكيلات الاجتماعية الوطنية أمام نزاعات عرقية / طائفية لا يمكن التحكم بنتائجها المستقبلية.

ح. إعادة بناء النظم السياسية على قاعدة ديمقراطية شكلية يفضي الى احتكار المواقع القيادية في سلطة الدولة بيد القوى السياسية المتحالفة مع الدول الوافدة.

2- توزيع الثروة الوطنية

تسعى الدول المتدخلة الى تفكيك الملكية الاقتصادية لدول الشرعية (الانقلابية) بعد إعادة بنائها السياسي بهدف تحقيق مشاركة الخارج في ثروات الدول المعاد بناءها عبر كثرة من الإجراءات الاقتصادية ـ الاجتماعية متمثلة فيما يلي:

ـ جعل الشركات الدولية الكبرى قوى اقتصادية متحكمة في الاقتصاد الوطني بعد إعادة بناء الدول المخربة، الأمر الذي يقود الى إنتاج أدوات المشاركة السياسية في الشؤون الداخلية.

– يترافق البناء الاقتصادي الجديد المتسم بتقاسم الثروة الوطنية مع الخارج مع إعادة بناء المؤسسة العسكرية بعد تفكيك عقائدها الدفاعية الوطنية وربطها بإستراتيجية الدول الكبرى (3).

– تفكيك قطاع الدولة الاقتصادي وتحويله الى القطاع الخاص يعيد تركيب التشكيلة الاجتماعية الوطنية من خلال:

أ. نهوض شرائح طبقية جديدة مالكة لبعض مرافق ملكية الدولة المنهارة.

ب. تفتيت القوى العاملة في قطاعي الدولة الإنتاجي والخدمي وتحولها الى فئات هامشية بسبب البطالة وإعادة البناء.

ج. التحام قسم من بيروقراطية الدولة المنهارة بسبب خبرتها الفعلية مع الوافد الخارجي وتحولها الى حليف للشركات الأجنبية.

د. تعيد التغيرات الاقتصادية الاجتماعية الناتجة عن التدخلات الأجنبية إحياء المجتمع الأهلي ومؤسساته الحاكمة ـ العشيرة والطائفة ـ وما ينتج عن ذلك من انحسار

فعالية القوى والأحزاب السياسية التي حجمت نشاطها عقود الاستبداد السياسي.

3- الأحزاب السياسية وعقائدها الفكرية

إعادة البناء السياسي ـ الاقتصادي الناتج عن التدخلات العسكرية يتطلب التوقف عند فعالية الأحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية الناشطة في الدول المخربة ودرجة تأثيراتها السياسية، فضلا عن تغيرات عقائدها السياسية / الفكرية.

أ. اليسار الاشتراكي وتحولاته الفكرية

عند تعرضنا لتغيرات فكر اليسار الاشتراكي نلاحظ تحول العديد من الأحزاب الاشتراكية الى مواقع الاشتراكية الديمقراطية، ناهيك عن انتقال الكثير من المثقفين اليساريين الى ضفاف الفكر الليبرالي، وما صاحب ذلك الانتقال من تغيرات فكرية نجدها في الموضوعات الآتية:

ـ الانتقال من فكر اليسار الاشتراكي الى فكر الاشتراكية الديمقراطية تزامن والتركيز على البناء الديمقراطي لسلطة الدولة متخلياً ـ الاشتراكي الديمقراطي ـ بذلك عن موضوعة عدّ سلطة الدولة الرافعة السياسية لتلبية حقوق الناس الاجتماعية.

– التركيزعلى البناء الديمقراطي لسلطة الدولة استبعد كثرة من الموضوعات الفكرية التي ميزت فكر اليسار الاشتراكي منها، طبيعة السلطة السياسية، قواها الاجتماعية القابضة، مضامين التوسع الرأسمالي، قضايا التهميش للقوى المنتجة، تراجع قاعدة اليسار الاجتماعية وغيرها من الموضوعات ذات المضامين الفكرية.

ـ تصاحبت التحولات الفكرية لدى بعض فصائل اليسار الاشتراكي وتحول كثرة من المثقفين اليساريين الى الليبرالية الجديدة الأمر الذي دفع البعض منهم الى الترحيب بالتدخلات الخارجية بهدف الخلاص من النظم الاستبدادية.

ب. الليبرالية العربية وروحها الأيديولوجية

إن تحولات بعض فصائل اليسار الاشتراكي الفكرية تزامنت وظهور تيار الليبرالية العربية المتشكل من قوى وشخصيات منحدرة من أصول قومية وأخرى يسارية. ورغم تمايز فصائل الليبرالية العربية إلا أنها تتصف بسمات مشتركة أهمها:

– محدودية قاعدتها الاجتماعية بسبب تشكل قوى التيار الليبرالي من شرائح مثقفة وأخرى مغتربة تعمل في المؤسسات الإعلامية والأكاديمية تشدها وحدة الشعارات الأيديولوجية مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان.

– تحتضن بعض أطراف التيار الليبرالي النزعات الانقلابية والروح العسكرية من خلال دعواتها الى تغيرات جذرية في النظم السياسية بانقلابات عسكرية خارجية.

– مغالاة التيار الليبرالي العربي في الروح الأيديولوجية أدى الى غياب برامجه الاقتصادية / الاجتماعية / الوطنية الحاضنة لنشاطه السياسي.

ج. الإسلام السياسي وعقائده الشمولية

إن تفكك التشكيلات الاجتماعية الناتجة عن التدخلات العسكرية وضعف الأحزاب السياسية، هذا فضلاً عن سيادة المؤسسات

الأهلية جعلت قوى الإسلام السياسي تتصدر المشهد السياسي المعاصر.

استناداً الى ذلك وبسبب اتساع قاعدة الإسلام السياسي الاجتماعية وتزايد تأثيراته في النظم السياسية العربية لابد من الإشارة الى بعض الموضوعات الفكرية والاجتماعية الداعمة لتوسع حركة الإسلام السياسي والتي أجدها في الآتي:

– تتشكل قاعدة الإسلام السياسي الاجتماعية من شرائح وفئات متعددة الأصول الطبقية رغم أن النواة الأساسية لقاعدة الإسلام السياسية تتكون من فئات اجتماعية مهمشة أنتجها التدخل العسكري الخارجي وإجراءاته الاقتصادية السياسية.

– بسبب أممية الإسلام وشمولية عقائده الدينية ـ تخلفت أحزاب الإسلام السياسي عن بناء رؤية برنامجيه وطنية، الأمر الذي جعلها تلتقي موضوعيا مع أيديولوجية رأس المال المعولم المتسمة بالروح الكسموبولوتية.

– ارتكاز النشاط الاقتصادي لمؤسسات أحزاب الإسلام السياسي على التجارة بشقيها العيني والمالي وتركيزها على قطاعي الخدمات والعقار جعلها قوة سياسية تتجاوب والمرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي المتسم بتحويل القوى الاقتصادية المتنفذة في البلدان العربية الى قوى وكيلة للاحتكارات الدولية.

– تفضي سيادة أحزاب الإسلام السياسي في الحياة السياسية وانتقالها الى أحزاب طائفية الى إعاقة النزاعات الاجتماعية وتحولها من نزاعات طبقية اجتماعية الى صراعات طائفية، وما يحمله ذلك من تحجيم حقوق الإنسان وحصرها بآليات ضبط طائفية.

– أخيرا يمكن القول أن أحزاب الإسلام السياسي تشكل من الناحية الموضوعية البديل السياسي المتجاوب والمرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي، الأمر الذي يعني إعاقة تاريخية للتقدم الاجتماعي التي تسعى إليه القوى الاجتماعية المتضررة من النهوج التخريبية للتدخلات العسكرية وأيديولوجيتها البراقة.

بعد هذا العرض السريع والمكثف لابد لنا من تسجيل بعض النتائج الفعلية لسياسة التدخلات الخارجية من خلال الموضوعات الآتية:

ـ عدم تجاوب التدخلات الخارجية العسكرية وبناء أنظمة سياسية ديمقراطية تسعى الى الربط بين الحقوق السياسية للإنسان ومثيلاتها الاجتماعية المتمثلة برعاية الدولة لشبكة الضمانات الاجتماعية.

ـ تتناقض التدخلات الخارجية مع حرية الشعوب في استثمار ثرواتها الوطنية وذلك بسبب اقتسامها على أساس الاستثمار والشراكة بين الحلفين الداخلي والخارجي.

ـ تفتح الديمقراطية السياسية الناتجة عن التدخلات الخارجية الأبواب أمام الصراعات الأهلية الطائفية والعشائرية، فضلا عن تخريب الأحزاب السياسية ذات البرامج الوطنية بسبب تهميش قاعدتها الاجتماعية.

إن النتائج التخريبية التي تنتجها التدخلات الخارجية تشكل عائقا تاريخيا أمام كفاح القوى الديمقراطية لا يمكن تجاوزها إلا من خلال بناء رؤية فكرية قادرة على تجميع الشرائح الاجتماعية المناهضة للتواجد والشراكة الخارجية والمستندة الى الربط بين الديمقراطية السياسية وحقوق الإنسان مع المصالح الوطنية التي تتعرض

للتخريب والتهميش. إن الربط الجدلي بين مفهومي الديمقراطية والوطنية يتجسد في الممارسة السياسية من خلال:

1- تلبية حقوق الإنسان الأساسية وتطويرها عبر بناء أنظمة سياسية ديمقراطية تعني بالتداول السلمي للسلطة عبر الشرعية الديمقراطية المحاطة بضمانات قانونية ورقابة دولية.

2- إعادة توزيع الثروة الوطنية على أساس الموازنة الاجتماعية بين مكونات التشكيلة الاجتماعية الوطنية من خلال شبكة الضمانات الاجتماعية المحمية من قبل الدولة.

3- بناء علاقات وطنية / دولية تستند الى موازنة المصالح والحد من آليات الهيمنة العاملة على إلحاق الدول الوطنية وثرواتها العامة بالاحتكارات الدولية.

استنادا الى بنية التحليل الفكرية ونتائجه السياسية لابد من صياغة الاستنتاجات الآتية:

أولا: تسعى الدول الكبرى الى استثمار شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان لغرض إعادة بناء أنظمة الشرعية (الانقلابي) وصولا الى بناء شراكة اقتصادية سياسية مع البلدان المفتوحة.

ثانيا: بسبب نزعتها الكسموبولوتية تشهد المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي تحالفا دوليا ثلاثيا بين الاحتكارات الدولية، طواقم القبائل المتحكمة في دول الخليج العربية، وبين الإسلام السياسي المعتدل الساعي الى استلام سلطة الدولة السياسية.

ثالثاً: تشهد منطقة الشرق الأوسط نزوعا نحو بناء أنظمة سياسية ترتكز على ديمقراطية شكلية قد تفضي الى نزاعات طائفية داخلية وأخرى إقليمية.

الهوامش

(1) تجسدت السياسة الدولية الموحدة للمراكز الدولية الكبرى في تقاسم الأدوار العسكرية بين الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة الأمريكية حيث تجنبت الولايات المتحدة الدخول العسكري في النزاع الدائر في ليبيا بسبب انشغالها في أفغانستان والعراق وأوكلت المهمات السياسية والعسكرية الى الدول الأوربية: فرنسا، ايطاليا، المملكة المتحدة.

(2) تشكل الحروب الإعلامية ومضامينها المرتكزة على التحريض والإثارة نموذجا جديداً متطورا لترابط الإعلام مع سياسية التدخلات الدولية.

(3) أنتجت التدخلات العسكرية في العراق وليبيا تقاسماً للثروة النفطية بين الشركات الاحتكارية الكبرى وإعادة بناء المؤسسات العسكرية بما يتناسب ومصالح شركات إنتاج الأسلحة في الدول الغربية.

الاقتصاد السياسي لأزمة سقف الديّن الأمريكي الأخيرة

د. صـــالح يـــاســـر

الدكتور صالح ياسر دكتوراه في العلاقات الاقتصادية الدولية منذ عام 1981 **عمل لثلاثة عشر عاما أستاذا للاقتصاد. كما شارك في العديد من الملتقيات العلمية والسيمينارات المتخصصة. وللدكتور ياسر العشرات من المقالات والأبحاث والدراسات العلمية المنشورة في العديد من المجلات المتخصصة في العراق والعديد من البلدان العربية. كما أصدر عدة كتب من بينها: العلاقات الاقتصادية الدولية. الأبستمولوجيا –الأنطولوجيا –الأكسيولوجيا** (2006)**، الاقتصاد السياسي للأزمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي –محاولة في فهم الجذور** (2011).

خلال الأشهر الأخيرة لم تعد انشوطة الدين تلف عنق الاقتصاد اليوناني لوحده (علما أن هناك بلدانا أوربية أخرى تهددها نفس الأنشوطة وان بقوة اقل) بل امتد ليشمل الجانب الآخر من الأطلسي، أي اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية. بعيدا عن العموميات، ومن اجل تكوين صورة أكثر دقة وتفصيلا عن هذه القضية نعرض هنا الجدول التالي الذي يشير الى ضخامة الدين العام الأمريكي من خلال بعض المؤشرات.

بعض مؤشرات حجم الدين العام الأمريكي كما هو في يوم 2010/9/7

التفاصيل	دولار امريكي
حجم الدين العام الأمريكي (ما يقارب 13.5 تريليون)	13.438.770.879.030.70
دولار / ثانية	48.284.45
دولار/دقيقة	2.897.067.15
دولار/ساعة	173.824.028.87
دولار/يوم	4.171.776.695.37

المصدر: US National Debt Clock وموقع من الربيعة الى
http://www.babylontoday.com/national_debt_clock.htm

وإضافة الى الملاحظات السابقة، يمكن استخلاص المزيد من المؤشرات التي تدلل على ضخامة هذا الديّن، من خلال المعطيات التالية:

- تبلغ حصة الفرد الأمريكي الواحد من الدين 42026 دولار.

- تبلغ حصة كل فرد من دافعي الضرائب 117982 دولار.

- بلغت الفوائد المترتبة على الدين 1.9تريليون دولار (أي 1900 مليار دولار).

- في حين تبلغ حصة الفرد الواحد من فوائد الدين 2211دولار.

هذا مع العلم أن الديّن الأمريكي الإجمالي (الداخلي والخارجي) بلغ عند إعداد هذه المقالة (2011/8/12) 54.899.650.510.401 دولار (أي ما يقارب 55تريليون دولار) في حين بلغ معدل الفائدة على الديّن أكثر من 214مليار دولار بقليل.

ولمواجهة التحديات والمخاطر العديدة دارت مفاوضات ماراثونية بين الإدارة الديمقراطية وخصومها الجمهوريين، حول سبل تفادي عجز الولايات المتحدة عن الوفاء بالتزاماتها المالية الداخلية والخارجية في2 آب 2011 توجت بان وقّع الرئيس الأمريكي (باراك أوباما) قانون رفع سقف الديون الأميركية بعد إقراره في الكونغرس بأكثرية خجولة الأمر الذي سيؤدي الى أن يكون هذا النزاع محور الانتخابات الرئاسية والتشريعية نهاية عام 2012 ففي النهاية صوّت مجلس النواب (269في مقابل 161) على القانون المذكور حيث صوت 174 جمهوريا لصالح القانون مع رفض 66نائبا جمهوريا من حركة " حفل الشاي "، بينما كان الانقسام الديمقراطي واضحا وذلك عندما صوّت 95نائبا ديمقراطيا لصالح الصفقة ورفضها 95 نائبا في رسالة من " القاعدة الليبرالية " إلى البيت الأبيض. وأقر مجلس الشيوخ أيضا القانون (74لصالح القانون في مقابل 26 صوتا ضده) حيث رفضه 7 أعضاء ديمقراطيين و19 سيناتورا جمهوريا.

هكذا إذن وبعد شهور من مفاوضات بين الديمقراطيين والجمهوريين انتهت أزمة سقف الاستدانة الأميركي بصفقة بين الطرفين تنص على رفعه بقيمة 2.4تريليون دولار وعلى مراحل حتى نهاية عام 2012 (ما يلبي المطلب الديمقراطي لتفادي تكرار الأزمة خلال شهور) لتمكين الخزانة من الاقتراض بعد الثاني من آب والحد من الإنفاق بالقيمة ذاتها.

وبالمقابل تنص الصفقة على خفض الإنفاق للسنوات المقبلة يصل الى 2500 مليار دولار على مرحلتين. وقد وضع القانون فورا مبلغ 400 مليار دولار في تصرف وزارة الخزانة سيتبعها مبلغ 500 مليار دولار أخرى في الخريف تكفي لما بعد الانتخابات الرئاسية عام 2012 بطريقة أرادها الكونغرس أن تعوض كل زيادة لسقف الديون بتقليص مشابه لنفقات الحكومة. والمرحلة الثانية من رفع سقف الديون تتراوح بين 1.2و1.5تريليون دولار، ويعتمد على مدى نجاح لجنة من الكونغرس في الاتفاق على تقليص النفقات الحكومية، حيث دار الخلاف بين سعي الديمقراطيين لتقليص البرامج الدفاعية وسعي الجمهوريين لتقليص برامج الرعاية الصحية. هذا ولم يستطع الديمقراطيون فرض زيادة الضرائب على الأغنياء وهي نقطة أجبر (أوباما) على

القبول بها تحت ضغط الجمهوريين، ما أدى الى انتقاده من فريقه نفسه.

هكذا إذاً وقبل حلول الأول من آب بنصف ساعة، استطاع البيت الأبيض وقادة الكونغرس الأميركي التوّصل إلى اتفاق ينص على رفع سقف الاستدانة وإنهاء الصراع الدائر منذ أسابيع بين الجمهوريين، الذين يتحكمون في غالبية الأصوات في مجلس النواب، والديمقراطيين المسيطرين على الرئاسة ومجلس الشيوخ. وبذلك يمكن القول أن الأزمة لم تحل ولكنها رُحلت عاماً آخر، إذ سيؤجل النقاش بشأن زيادات الضرائب والمزيد من التخفيضات في الإنفاق إلى السنة المقبلة، 2012 أي سنة الانتخابات الرئاسية الذي ستعكس نتائجها تقييم فئات الناخبين للاتفاق المذكور.

ومن خلال تتبع مسار تلك المفاوضات يلاحظ أن ملف سقف الديّن العام الأمريكي سلك طريقا وعرا بعد تعثر المفاوضات بين الديمقراطيين والجمهوريين بشأنه عدة مرات.

ولكي نفهم طبيعة الصراع الذي طال أمده بين الطرفين، الديمقراطيين والجمهوريين، ووصول المفاوضات، في أكثر من مرة، الى حالة استعصاء علينا أن نتوقف عند تحليل الخطط والتكتيكات التي اعتمدها كل طرف لإجبار الآخر على تقديم " أقصى التنازلات ".

خطتان متناقضتان وتكتيكان متعارضان

بداية، لا بد من الإشارة الى أن الطرفين، الجمهوري والديمقراطي، كانا متفقان على ضرورة الحد من العجز، إلا أنهما يختلفان على قضيتين أساسيتين، إضافة طبعا الى " قضايا صغيرة " أخرى:

- **حجم الاقتطاع** من النفقات وضرورة زيادة المداخيل، لا سيما الضريبية منها.
- **مسألة الادخار** في الإنفاق على البرامج الاجتماعية.

وتسابقت قيادات في الكونغرس الأمريكي، وفي الأسبوع الحاسم الذي سبق موعد الثاني من آب (أغسطس)، على إنهاء آلية العمل على **خطتين منفصلتين** لرفع سقف الدين تمهيداً لطرحهما على التصويت خلال أيام وطمأنة الأسواق المالية التي شهدت تراجعاً ملموساً لأسعار الأسهم، بسبب القلق من انقضاء موعد الثلاثاء (2/8/2011) من دون التوصل الى اتفاق لرفع سقف الدين الأميركي فوق 14.3تريليون دولار.

واستندت الخطة الأولى، التي أعدها زعيم الديمقراطيين في مجلس الشيوخ السيناتور (**هاري ريد**)، الى رفع سقف الدين بنسبة 2.4تريليون دولار مقابل خفض الإنفاق بنسبة 2.7تريليون دولار وتفادي تكرار الجدل حتى نهاية 2012 أي بعد الانتخابات الرئاسية المقبلة. وارتكزت هذه الخطة على مبادرة طرحها الرئيس الأمريكي (اوباما) ووصفها بأنها "عادلة ومتوازنة" وتقضي بتقليص ميزانية البنتاغون ووقف التبذير في برامج الرعاية الصحية وزيادة الضرائب على الأميركيين الأثرياء ضمن خطة توفر على الخزينة حوالي أربعة تريليونات دولار.

وعمل المشرعون الديمقراطيون ومستشاروأوباما لحصد الدعم الأكبر حول خطة ريد، على الرغم من أنها لا تفي بالطموحات التي يتطلع إليها أوباما والصفقة الكبيرة التي تضمنت إصلاحات ضريبية والحد من الإنفاق بنحو ٤ تريليونات دولار بعضها من برامج الرعاية الصحية وضمان

الشيخوخة. وتعود نسبة التوفير في البرامج الجديدة الى خفض الإنفاق بنحو 2.7تريليون دولار، نتيجة التوفير في الموازنة الدفاعية خصوصا بعد مباشرة الانسحاب من العراق والاستعداد لإنهاء حرب أفغانستان.

في المقابل، **طرح الجمهوريون** وزعيمهم في مجلس النواب النائب (**جون باينر**) **خطة بديلة** تقضي برفع مؤقت ومرحلي لسقف الديّن، ومن ثم العودة للبحث في صفقة أكبر تشمل خفض الإنفاق والإصلاح الضريبي قبل الانتخابات الرئاسية القادمة في 2012 غير أن أوباما الذي يتمتع بحق النقض لأي مشروع يُرسله الكونغرس، أكد رفضه الحلول المؤقتة والمرحلية تفادياً لإثارة خضة جديدة في الأسواق خلال الموسم الانتخابي.

إذا نظرنا للخطتين من منظار **التكتيكات** التي يستخدمها كل طرف لتحقيق أهدافه فانه يمكننا تمييز تكتيكين:

التكتيك الديمقراطي ومعالمه الأساسية

حاول **التكتيك** الديمقراطي اللعب على وتر انقسام الجمهوريين، باستخدام " الدبلوماسية الناعمة "، حيث أكد اوباما أن (**باينر**) يسعى لتسوية لكن " البعض " في مجلس النواب لا يسمح له بذلك، في إشارة إلى نواب حركة "حفل الشاي" من الجمهوريين. في الواقع، كان هذا التكتيك يحاول إضعاف زعيم الجمهوريين في مجلس النواب النائب (**باينر**) في المفاوضات ويساعد على عدم إقرار الخطة المالية التي يسعى لتمريرها في مجلس النواب. ووصف اوباما الجمود في المفاوضات بأنه " لعبة خطيرة لم نلعبها أبدا في السابق ولا يمكننا تحمل لعبها الآن"، واعتبر أن تخلف الإدارة الأميركية عن التزاماتها المالية " نتيجة متهورة وغير مسؤولة"، مشيرا إلى أن رفع سقف الديّن خطوة روتينية منذ الخمسينيات، وأنها حصلت 18مرة في عهد الرئيس الأسبق (رونالد ريغان). وأعاد اوباما طرح مبادرته التي وصفها بأنها "عادلة ومتوازنة" وتقضي بتقليص ميزانية البنتاغون ووقف التبذير في برامج الرعاية الصحية وزيادة الضرائب على الأميركيين الأثرياء ضمن خطة توفر على الخزينة حوالي أربعة تريليونات دولار.

التكتيك الجمهوري: التشهير بالخصم لتحقيق مكاسب عبر شعار:

لا رفع لسقف الديّن من دون تقليص النفقات الحكومية !

يمثل **التكتيك الجمهوري** في وصف (اوباما) بأنه يقود حكومة " غير فعالة" تسعى الى تضخيم دور الدولة على حساب القطاع الخاص، وحكومة تريد أن ترفع الديّن العام، وان تزيد الضرائب على الامريكيين. ألمح (**باينر**) في كلمته إلى أن هناك تسوية بين الجمهوريين والديمقراطيين في مجلس النواب، لكن (اوباما) هدد باستخدام الفيتولمنع تمرير هذا القانون إذا وصل إليه. لكن الإجماع الديمقراطي على خطة (**باينر**) كان محدودا واقتصر على خمسة نواب من اصل 193نائبا ديمقراطيا.

ولمزيد من التوضيح ينبغي الإشارة الى أن خطة باينر لتقليص العجز تنطوي على مرحلتين لتقليص النفقات بحوالى 2.6 تريليون دولار مع رفع سقف الديّن لفترة ستة أشهر.

– ففي **المرحلة الأولى** يرفع سقف الديّن حوالي تريليون دولار مشروطة بتقليص

النفقات حوالي 1.2تريليون دولار سنويا على مدى عشر سنوات.

– وفي **المرحلة الثانية** يرفع سقف الديّن 1.6تريليون دولار، لكن هذه الخطوة تحتاج الى موافقة الكونغرس على تقليص النفقات بحوالى 1.8 تريليون دولار تشمل برامج الرعاية الصحية التي يحرص الديمقراطيون على التمسك بها. غير أن اوباما أكد رفضه لأي خطة لا ترفع سقف الديّن العام لما بعد الانتخابات الرئاسية العام 2012 لتفادي مثل هذه المفاوضات بعد أشهر.

بعيدا عن التكتيكات...المعركة إيديولوجية –سياسية بامتياز تفكيك الخطابات

إذا انتقلنا من مظاهر الأشياء الى جوهرها عبر تفكيك خطاب كل طرف من الطرفين المتصارعين لظهر لنا أن المعركة التي دارت بين الحزبين، الديمقراطي والجمهوري، لا تنحصر في حقل الضرائب والاستقطاعات (أي حقل التداول) وإنما لها في الواقع أبعادا إيديولوجية –سياسية خصوصا والولايات المتحدة على أبواب انتخابات جديدة في عام 2012 وكل من الجمهوريين والديمقراطيين يريد توظيف معركة الديّن (الراهن) لتحقيق مكتسبات (في الانتخابات – المستقبل) من خلال تحميل الطرف الآخر مسؤولية ما يحدث الآن (1).

● فبحسب **الحزب الديمقراطي**، حين تولّى السلطة التنفيذية في المرة الأخيرة قبل العهد الحالي، أي في الولايتين المتتابعتين للرئيس الأسبق (**بيل كلينتون**)، فانه وضع موضع التنفيذ تصوره الذي كان يهدف الى تحقيق التوازن في الموازنات الفيدرالية وأصلح برامج الرعاية وضمن استمرار مخصصات التقاعد على المدى البعيد، وحقق الرخاء للبلاد. فالأزمة الحالية إذن، وفق الديمقراطيين، تقع مسؤوليتها على الحزب الجمهوري الذي تولّى الحكم بعد (كلينتون)، في الأعوام الثمانية لرئاسة (**جورج دبليوبوش**). إذ خلال هذه الأعوام، تبنّى الجمهوريون في الحكم تخفيضات ضريبية استفاد منها ذووالدخل المرتفع، ما أدى الى خسارة الخزينة قدراً كبيراً من المداخيل، فيما هم – أي الجمهوريون– أقدموا على إنفاق دفاعي هائل في إطار حروب خارجية، وقلّصوا الدور الرقابي للحكومة، ما أتاح المجال أمام ممارسات مشبوهة في القطاعين المالي والعقاري، تسببت في نهاية المطاف بانهيارهما معاً، والدخول في أزمة اقتصادية عميقة لا يزال الخروج منها مستعصياً. والجهد الذي يبذله طاقم الرئيس (أوباما) اليوم –حسب الديمقراطيين –هو لانتشال البلاد من هذا المأزق، ولكن أيضاً للتأكد من أن عبء هذا الانتشال يقع على عاتق من استفاد من السلوكيات المالية الطائشة خلال الأعوام الماضية، وليس على المواطن العادي.

ملخص مقاربة الديمقراطيين للازمة الراهنة، إذن، هي مقاربة رباعية الأبعاد:

– كلينتون (الديمقراطي) حقق منجزات

– بوش (الجمهوري) فرّط بها

– أوباما (الديمقراطي) يصحح أخطاء بوش والجمهوريين

– الأثرياء (الجمهوريون) استفادوا بالأمس فعليهم اليوم أن يتحملوا تبعات الأزمة التي تسببوا بها.

● أما **المقاربة الجمهورية** فهي على النقيض من المقاربة السابقة. فما تحقق من رخاء وموازنة موازنات وإصلاحات في عهد

الـرئيـس الأسـبق كلـينتـون –بحـسب الجمهوريين – لـم يكن إنجازاً للـديمقراطيين، بل قطف ثمار مـا زرعه الـرئيس الجمـهوري الأسبق (**رونالـد ريغان**) في الثمـانينات من القـرن المـاضي، سـواء من حيث رفع القيـود عـن القطاعـات الاقتصـادية المختلفـة ما أطلق العنـان للإبداعية والإنتاجية التي تجسدت في التسـعينيات، أو من حـيث تشـديده الـضغط علـى الاتحـاد السـوفيتي تـوجت بـانهيـاره، ومفسحاً المجال أمام "عولمة جديدة". فالفضل ليس لكلينتون، وإن جـرى ما جرى في عهده، بل لريغـان الجمهوري. أمـا الإنفاق المنسوب إلى عهد بوش الابن، فـالمقاربة الجـمهورية لا تنفيه، ولكنها تقسّمه إلى "ضروري"، لا سيما مـنه المـتعلق بـالمجهـود الحـربي، و"غـيـر ضروري"، وهوالذي سعـى إليه الديمقراطيون أنفـسهم وأخـطـأ بـوش والجمهـوريـون في الموافقة عليه.

ملخص مقـاربة الجـمهوريـين للازمة الراهنة إذن هي التالي:

– النجاح يعود لريغان (الجمهوري)

– كلينتون (الديمقراطي) استفاد

– جـــزء مـن إنفـــاق بـــوش الابـن (الجمهوري) يعتبر ضروريا

– والنتيجة المستخلصة: ما تحقق من رخـاء يعود إذن للجمهـوريين وليس للديمقراطيين.

ولكـن إذا تم **تـفكـيك** هـــذه المقـــاربـــة فستتكشف لنا حقائق أخرى.

قـد يبـدوللـوهلـة الأولـى كمـا لـوأن الـيمين الأميـركي انتحـاريـاً ينسـاق وراء عمـاه الأيديـولوجي وكـرهه لأوبامـا والديمـقراطيين. قـد يكـون هذا صحـيحاً في بـعض مظاهره، لكن هـذا اليمين –بلغـة الاقتصاد السياسي – يُـدافع عن مصالح فئـات وقوى في المجتمع الأميـركي ازدادت نفوذاً وثـراءً وقوةً منـذ عام 1980فمنذ مجيء (رونالد ريغان) إلى الـرئـاسـة وصعـود إيـديـولـوجيـا وممـارسـة الليبـرالية الجـديدة تـراجعت الـضرائـب على الأغنـياء وأصـحـاب الـدخول المـرتفـعة وزادت الفوارق الاجـتماعية، وتـراجع الأجر الحقيقي للـطبقتـين المتـوسطة والعـاملـة، وزاد عـدد الأغنيـاء وحصتهم من الثروة القـومية (تمركز الثـروة في الـولايـات المتحـدة تـعبـر عنه الإحصائيـات التي تشـير الى أن اقل من 1٪ من الـسكـان يمـتلكـون أكثـر مـن 20٪ من الـثـروة)، وتـــراجع الاســتـثمـــار العـام في المفاصل الأساسـية للاقتصاد مـن بُنى تحتية وتعليم وصحـة، وزادت سيطرة القـطاع المالي والريعـي على الاقتصاد الأمـيركي، وازدادت أرباحه وتراجعت الصناعـة الأميركية، وهيمن شبـح البطالة عـلى قـطاعـات غير قليلـة من المجـتمع. هـذا مـع العلم أن عـدد الفقـراء في الـولايـات المتحـدة يـبلغ اليوم أكثـر من 46 مليون شخص وهوأعلى رقم منذ 52 عاما.

من بين مـا أنتجه هـذا "التـطور" هـو بروز فئتـين مسيطرتـين ستطبـعان التطور اللاحق لمسـار الأحداث، الأولـى تتمثل في **الأثـريـاء**، والـثانية **الـفئة الـريعـيـة المـاليـة**، المتمثلة في المصارف والمؤسسات المالية.

في هـــذه المعـركـة، كمـــا في المفـــاصل الأســاســيـة في الـتـاريخ الأميـركي، يـتـبـنى الجمهوريون مصـالح هاتين الفئتين، فـالمسألة لديهم ليست اقتصاديـة– تقنية، بل اقتصادية – سياسية، إذ إن الإجـراءات المالية المطروحة لحل هـذه الأزمـة سيكـون لهـا آثـار تـتعلق بـكيـفيـة تـوزيع وإعـادة تـوزيع الفـائض الاقتصادي بين الفئات المختلفة في المجتمع.

وبمـزيـد من الـتبـسيط يمـكن القـول أنّ الجمهـوريين ليسوا بـالمطلق ضد تـزايد الديّن

العام، فهم، على سبيل المثال، دعموا إنفاق الرئيس الأمريكي الأسبق (**رونالد ريغان**) في الثمانينيات، ما أدّى الى زيادة العجز والديّن في تلك الفترة إلى حوالي 60٪ من الناتج المحلي، وهم دعموا بوش الابن أيضاً، بعد مرحلة كلينتون في التسعينات التي حققت الولايات المتحدة فيها أعلى فائض مالي منذ عام 1951، فالرئيس بوش شن حروبه الخارجية وخفض الضرائب ما أدّى الى زيادة العجز والديّن العام إلى مستويات قياسية جديدة. مشكلة الجمهوريين اليوم أنهم شاهدوا الدولة تتدخّل لإنقاذ النظام الرأسمالي من الانهيار بعد اندلاع الأزمة المالية الأخيرة عبر زيادة الإنفاق وخطط الإنقاذ المالي للمصارف والمؤسسات المالية، وهم يريدون الآن أن يمنعوا الإدارة الأميركية الحالية، التي يهيمن عليها الديمقراطيون، من تحميل الأغنياء والقطاع الريعي ثمّن هذا التدخل، وبالتالي يريدون للفئات نفسها، أي الغنية، أن تربح مرتين: مرة عند التدخل التاريخي للدولة لإنقاذ النظام من الانهيار، ومرّة أخرى بتحميل الطبقات الوسطى والعاملة والاقتصاد الحقيقي ثمن هذا التدخل (2)، وهم بهذا يعملون بقاعدة تعميم الخسائر وتخصيص الأرباح.

سبب الأزمة الراهنة..
"الفقاعة العقارية"!!
مجددا.. التمويه الإيديولوجي يزكم الأنوف

ومن جانب آخر فانه وعند البحث عن السبب المباشر للازمة الراهنة، هناك ثمة **اتفاق** بين المقاربتين بشان "**الفقاعة العقارية**" والتي انفجرت في أواخر عهد الرئيس بوش الابن (الجمهوري) بعدّها **المسبب المباشر للأزمة** المتشعبة اليوم، إذ **تجمعان** على أن المشكلة ابتدأت مع التسويق لقروض "غير منضبطة" ذات فترات أولية بفوائد منخفضة حصل فيها الكثير من المواطنين على مبالغ من المتعذر، إن لم يكن من المستحيل، عليهم أن يسددوها، ومن ثم جرى جمع هذه القروض في محفظات مالية وترويجها كأداة استثمارية عالية العائدات، ما أدى إلى توريط برامج تقاعدية وصناديق استثمارية عدة بها. فلمّا بدأت هذه الفترات الأولية بالانتهاء، لم ينكشف أصحاب العقارات غير القادرين على التسديد فحسب، بل انهارت المنظومة الاستثمارية بكاملها أو كادت، ما استوجب التدخل الطارئ للسلطات الحكومية منعاً للانهيار الكامل (3).

ولكن عندما يطرح على جدول الأعمال آمر **تفسير طبيعةَ** المسألة يبرز **الاختلاف**.

– **فالديمقراطيون** يعتبرون ان تراجع القيود والرقابة هما ما أتاح المجال للممارسات التي أدّت إلى الفقاعة العقارية.

– فيما يشير **الجمهوريون** إلى **إصرار** خصومهم على تمرير برامج تملك عقاري تكون بمتناول الطبقات الدنيا من دون اعتبار لقدرات أفراد هذه الطبقات على تحمل الأعباء على المدى الطويل!

الديمقراطيون إذن يعتبرون أن **سبب** الأزمة هو **تغييّب الجمهوريين للدورَ الحكومي، والجمهوريون** يعتبرون أن السبب هو "**التطفل الحكومي**" على السوق العقارية لغاية هندسة اجتماعية فاشلة حتماً!

وإذا كانت المقاربتان مختلفتين في أمر **توصيف خلفية الأزمة** ومسببها، فإنهما ستتعارضان في صياغة الحلول المطروحة لتجاوزها.

– **فبحسب وجهة نظر الديمقراطيين**

فان تصحيح الوضع الراهن هو في **تولي الحكومة دوراً أكبر** في مراقبة القطاعات الحساسة وفي مضاعفة الإنفاق الموجه الهادف إلى حماية المتضررين من سياسات الجمهوريين.

– في حين يعتبر الجمهوريون أن المطلوب **انكفاء الحكومة، أي العودة الى الطبخة النيوليبرالية المتطرفة التي طرحها الجمهوريون ونافحوا عنها منذ ريغان حتى أثبتت الأزمة الأخيرة فشلها**. ويرى الجمهوريون أن الكلام حول زيادة الضرائب على الأثرياء، والذي يتجاهل – بحسب الجمهوريين – أن الغالبية العظمى من العائد العام تأتي من مساهمة الشرائح العليا، هو مناورة شعبوية قد يستفيد منها الديمقراطيون انتخابياً، في حين أن النتيجة الفعلية لهذا الرفع هي **تقليص** قدرة المجتمع على التنشيط الاقتصادي!

وإذا تم **تفكيك** المقاربتين على **مستوى الحلول** نجد التالي:

– **الحل، ديمقراطيا**، هو في **الاستمرار** في الإنفاق مع إلغاء للإعفاءات الضريبية **وتحميل** الأثرياء عبء تصحيح الوضع القائم.

– فيما **الحل، جمهورياً**، هو في **تمكين** القطاع الخاص من تحقيق التنشيط الاقتصادي وتحميل برامج الدولة مسؤولية التردي.

وحتى لا تضيع البوصلة في التحليل فانه لا بد من التأشير الى أن المقاربتين تدوران حول كيفية الخروج من الأزمة في إطار النظام وليس حول طرح بدائل تتجاوز النظام الراهن. إنها إذاً حلول تدخل في إطار إعادة إنتاج النظام وتخليصه من "الصعوبات" التي يعاني منها. الخلافات تدور، إذاً، **حول كيفية إعادة توزيع الفائض الاقتصادي بين الكتل المتنفذة في بنية السلطة من اجل أن يستمر اشتغال النظام دون عوائق بغض النظر إذا كانت الإدارة ديمقراطية أم جمهورية**.

مشكلة المقاربتين الأساسية أنهما تحصران التحليل في حقل التداول وتتجنبان الخوض في المشكلات الفعلية في حقل الإنتاج وطبيعة العلاقات الإنتاجية والتوزيعية السائدة التي أدت الى هذه الأزمة.

عودة الى التاريخ

من تتبع ما يجري بشأن هذه القضية يبدوأن الطرفين (الجمهوريين والديمقراطيين) يستغلان الأزمة في معركة لي ذراع، وتمرير قوانين ومشاريع تخدم الأجندة الانتخابية لكل منهما. والعودة الى التاريخ يؤكد هذه الملاحظة، أي إخراج قضية الدّين العام من دائرة المعالجة الاقتصادية الى الحقل السياسي.

بعيدا عن الاتهامات المتبادلة بين الطرفين، الديمقراطي والجمهوري، حول إشكالية تعديل سقف الدّين الأخيرة وهي اتهامات في مغزاها الأعم ذات طبيعة انتخابية، لابد من الإشارة الى أن تعديل هذا السقف ليس سابقة. فالكونغرس الأميركي عدّل 91 مرّة هذا السقف، منذ تمّوز عام 1940، إمّا لرفعه أو لتمديده أو حتّى لإعادة تعريف سقف الدين. وللدقة، فقد حصل ذلك 36 مرّة فقط تحت الإدارة الديمقراطية في البيت الأبيض، في حين أن الجمهوريين فعلوها 55 مرّة.

من الناحية التأريخية، وقبل العام 1917، كان من الضروري الحصول على موافقة الكونغرس، إزاء كل عملية استدانة تقوم بها

الحكومة. لكن، وبغية تحقيق مرونة أكبر في القرارات المالية عند دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى، وافق مجلس النواب آنذاك على منح الحكومة موافقة مفتوحة على الاستدانة، طالما لا يتخطى حجمها " السقف المحدّد ". ومنذ إقرار هذه الآلية، تجاوز الدين الفيدرالي الأميركي مرات عديدة السقف المحدد، لكن الكونغرس كان يوافق كل مرة على رفع هذا السقف لتمكين الحكومة من الحصول على مزيد من الديون.

هذا مع العلم أن تم رفع سقف الدين الأميركي حوالي 100 مرة منذ العام 1917، ليرتفع من تريليون دولار في الثمانينيات من القرن العشرين إلى 6 تريليونات في التسعينيات، إلى السقف الحالي الذي أقرّ عند 14.3 تريليون دولار في شباط 2010

ومن المفيد ذكره انه وخلال الفترة ما بين 14 تشرين الثاني 1995 والسادس من كانون الثاني 1996 توقّف العمل الحكومي الأمريكي مرتين (أول مرة لخمسة أيام والثانية لعشرين يوماً). السبب وقتها كان الخلاف على الموازنة التي لم يستطع الرئيس الديمقراطي حينذاك (**بيل كلينتون**) ورئيس مجلس النواب الجمهوري (**غينغريتش**) الاتفاق عليها. فقد كان الجمهوريون يريدون اقتطاع مبالغ كبيرة من التقديمات الاجتماعية، وهوما رفضه كلينتون في حينه. وفي ظل عدم وجود موازنة، توقف العمل الحكومي لغياب أموال لصرفها، خصوصاً من أجل الرواتب. كان لتلك الحادثة اثر كبير على الجمهوريين، الذين خسروا الانتخابات الرئاسية نهاية 1996، بعد أن عاقبهم قطاع من الناخبين المتضررين ليعاد انتخاب كلينتون.

ما حدث خلال الأسابيع الأخيرة بين الرئيس الديمقراطي (باراك أوباما) ومجلس النواب، ذي الغالبية الجمهورية، قد يكون مشابهاً في النتائج، إذ دار الخلاف حول رفع سقف الاستدانة للحكومة.

من المجرد الى الملموس...كيف ردت الأسواق المالية على الاتفاق؟

بعد توقيع الاتفاق على سقف الدين وتوقيع (اوباما) القانون الخاص بذلك تنفس العالم الصعداء. لكن هذا الهدوء لم يكن سوى لحظة عابرة إذ عاد التشاؤم سيد الموقف مجددا عندما تم تخفيض التصنيف الائتماني للولايات المتحدة، فقد بات الذعر في البورصات العالمية يرسم ملامح المتعاملين والمستثمرين والمصارف، وكذلك الحال في جميع الدول الداخلة في لعبة الريوع مع "العملاق الاقتصادي" الذي يعاني من أزمة بنيوية عميقة.

ففي موازاة هذه التطورات، انتقل الاهتمام الى التصنيف الذي ستمنحه وكالات التصنيف الائتماني للولايات المتحدة. وفي هذا الإطار، خفضت (وكالة موديز) وهي من أكبر وكالات التصنيف الائتماني (4)، من "*مستقر*" الى "*سلبية*" التوقعات للعلامة التي تمنحها للدين الأمريكي، والتي أبقتها بمستوى (AAA) وهي العلامة القصوى. ورفعت موديز مخاطر خسارة هذا البلد علامته في حال " *تراجع الانضباط المالي في السنة المقبلة*" أو " *تدهور الأوضاع الاقتصادية على نحو كبير*". وأوضحت الوكالة أن التدابير التي أُقرّت لن تكون كافية لتحسين وضع المالية العامة الأمريكية. ورأت أنه "*حتى لو تضافر تأليف لجنة برلمانية مع إجراءات تلقائية لإنتاج آلية تفرض انضباطاً مالياً، فإن هذا الإطار موضع تشكيك.*

فمحاولات فرض قواعد في الميزانية في الماضي لم تقاوم على الدوام اختبار الوقت". وتابعت أنه "سيترتب على الأرجح اتخاذ تدابير إضافية لضمان بقاء مسار الميزانية على المدى البعيد متناسباً مع علامة "AAA، مشيرة الى "*خلافات سياسية واسعة في وجهات النظر*" في الجدل القائم في واشنطن. وأضافت الوكالة

" *إن خفض معدلات النموالاقتصادي أخيراً ونسبة النموالضعيفة جداً في النصف الأول من عام 2011 يعيدان النظر في متانة طاقات النمو خلال السنة المقبلة أو السنتين المقبلتين*" (5).

هذا ومن الجدير ذكره أن الولايات المتحدة الأمريكية فقدت تصنيفها الائتماني الرفيع؟ (AAA) من مؤسسة التصنيف الائتماني (**ستاندرد اند بورز**)، وهوتعديل غير مسبوق لوضع أكبر اقتصاد في العالم، الأمر الذي دفع المؤشرات العالمية إلى موجة من التراجع الحاد. وهذا التراجع بدأ يهيمن على أروقة البورصات العالمية، ويهدد دولاً بأسرها بالدخول الى خندق الأزمة، من الصين والاتحاد الأوروبي وغيرها من الدول.

وهكذا فقد جاء تقويم المؤسسة هذا ليزيد من الهواجس في شأن تصنيف أدوات الدين الأميركية التي يملكها كثيرون من الأجانب وفي طليعتهم الحكومة الصينية، ما يعني تراجع قيمة الأصول الأميركية. وكان لذلك التقويم وقع مؤلم على أسواق المال التي تراجعت بحدة، لذلك خسر مؤشر "مورغان ستانلي" ما يقارب 2.1تريليون دولار من قيمة موجوداته عند الإعلان في الرابع من آب (أغسطس) 2011

ولم يعد سرا أن البيت الأبيض حاول الضغط على " ستاندارد اند بورز " لعدم تخفيض التصنيف الائتماني من AAA الى +AA، والرد الديمقراطي كان وصف هذا الإجراء بأنه "**تخفيض حفل الشاي**" وثانيا اعتبار أن (ستاندارد اند بورز) أخطأت بحساباتها المالية حوالي مليارى دولار لأن تخفيضها الائتماني لم يأخذ بالاعتبار أرقام التسوية الأخيرة التي اقرها الكونغرس حول رفع سقف الديون.

عند هذه النقطة (أي تخفيض التصنيف الائتماني من AAAالى AA +)، ستكون كل المؤسسات المجبرة قانوناً على حيازة سندات" AAA" حصرا، مضطرة إلى بيع ما في حوزتها من سندات أميركية، ما سيطلق انهيارات في الأسواق المالية، شبيهة بما حصل إبان انهيار " **ليمان براذرز**" (6).

وإضافة الى الانعكاسات في سوق العملات والسندات تراجعت مؤشرات أسواق الأسهم العالمية التي فتحت منخفضة تحسباً من تكرار ما جرى في 2008 عندما خسرت الأسواق بين17 و33 في المئة من قيمتها السوقية. فمثلا أن أي هزة أساسية في سوق الدولار سترفع خسائر الأسواق في الشرق الأوسط من نحو 38بليون دولار، التي سُجلت في الشهور الستة الأولى من السنة، الى تجاوز الخمسين بليوناً بتحفظ.

وفي منطقة **اليوروما** تزال أزمة الديون تهدد بترك أثرها حيث قد تكون أعباؤها كبيرة على المصارف التي يمكن أن توقف إقراض الشركات والإفراد. فبعد اليونان التي كادت توشك على الإفلاس، تعدّ المؤسسات المالية الأوروبية ضعيفة جدا أمام الدين العام للدول التي تعاني صعوبات في منطقة اليورو.

وفي **أسيا** فان الأجواء في السوق تبقى غير مستقرة في انتظار ما سيحصل في

أوروبا وفي الولايات المتحدة. وتخشى الأسواق من انكماش جديد في الولايات المتحدة ومن عدوى أزمة الديون في منطقة اليوروما يؤثر بشكل كبير على الطلب العالمي على النفط.

خلاصة القول أن اتفاق الساعات الأخيرة بين إدارة الرئيس اوباما والكونغرس الأميركي حول رفع سقف الدين العام يأتي مجرد لحظة في مسلسل الأزمة البنيوية المزمنة التي تعيشها الولايات المتحدة. فالاتفاق الذي تمّ التوصّل إليه لا يحل المشكلة بل يؤجّل في أحسن الأحوال الاستحقاق ما دامت الإجراءات الجذرية لمعالجة الأزمة لم تتخذ، وعلى ما يبدولا تستطيع الإدارة أو الكونغرس اتخاذها للكلفة السياسية والاجتماعية الباهظة التي لا بد أن ترافقها.

وبالمقابل لا زالت "جروح" الأزمة المالية التي انفجرت في سبتمبر 2008 وما تلاها من أزمة اقتصادية عالمية لم تندمل بعد (7)! فالعالم يعاني اليوم من أزمة بنيوية عميقة والخروج منها له تكاليف اجتماعية واقتصادية متنوعة. ويدور الصراع اليوم حول من هي القوى الاجتماعية التي ستتحمل أعباء هذه الأزمة، وبالمقابل ما هي القوى التي ستستفيد من تلك الأزمة لتعزيز مواقعها في البنية العالمية والإقليمية والمحلية على السواء؟ والصراع بين الديمقراطيين والجمهوريين في الولايات المتحدة لا يخرج عن هذا المسار.

ولابد من الإشارة الى أن كثيرا من " المحاولات السلمية " للتغلب على الأزمة قد فشلت في الخروج من القاع مما يطرح على جدول أعمال " الضواري الكبار " خيارات أخرى، سواء أكانت على هيئة حروب تجارية أو ربما اللجوء مجددا الى حروب بالذخيرة الحية !

2011/8/12

هوامش:

(1) لمزيد من التفاصيل قارن: حسن منيمنة، من المسؤول عن الازمة المالية الاقتصادية في امريكا؟ المقال متاح على الانترنيت على الرابط التالي:
http://international.daralhayat.com/internationalarticle/290937

(2)لمزيد من التفاصيل قارن: غسان ديبة، أوباما في مواجهة الجمهوريين. متاح على الرابط التالي:
http://www.al-akhbar.com/node/17662

(3)لمزيد من التفاصيل حول " الفقاعة العقارية " انظر: د.صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للازمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي –محاولة في فهم الجذور، دار الرواد المزدهرة، بغداد 2011، ص326 ولاحقا.

(4) لمزيد من التفاصيل حول هذه الوكالة قارن: جومعكرون، " موديز " تقرع اجراس الانذار الائتماني في واشنطن. متاح على الرابط التالي:
http://www.assafir.com/Article.aspx?EditionId=1896&ChannelId=44706&ArticleId=1641

(5)وردت عند رشا ابوزكي، هل تصيبنا الازمة العالمية الجديدة؟ " الاخبار " عدد 11/اب 2011

(6) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة قارن: د.صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للازمة....، مصدر سابق.

(7) لمزيد من التفاصيل انظر المصدر سابق، ص358 ولاحقا.

هل هناك مشروع لإعادة هيكلة شركات التأمين العامة؟

تمهيد لمناقشة موسعة

مصباح كمال

تعلم مصباح كمال مبادئ التأمين في بغداد عندما بدأ العمل في شركة التأمين الوطنية (1968) بعد حصوله على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة بريطانية (1967). غادر العراق سنة 1977 لإكمال دراسته العليا في بريطانيا حيث حصل على شهادة ماجستير في العلوم الإدارية عام 1978 وبدأ العمل في إحدى شركات وساطة التأمين وإعادة التأمين في لندن ولا يزال يمارس العمل. نشر العديد من المقالات التأمينية في مجلات تأمينية عربية وإنجليزية. كما ساهم في إعداد معجم انجليزي-عربي لمصطلحات التأمين وتعاون مع أحد زملائه على ترجمة كتاب عن إدارة الخطر.

يدير مدونة إلكترونية اسماها مجلة التأمين العراقي

http://misbahkamal.blogspot.com/

وهي مكرسة لدراسة قضايا التأمين في العراق من موقف نقدي، أطلقها لعدم وجود مجلة تأمينية عراقية.

قرأت مؤخراً خبراً مقتضباً بالإنجليزية عن مناقصة تقديم خدمات استشارية لإعادة هيكلة المنشآت المملوكة للدولة بضمنها إطلاق مشروع تجريبي للشراكة بين القطاع العام والخاص (1).

غياب وضبابية المعلومات

قراءة الخبر توحي بأن الهدف سينصبُّ على إعادة هيكلة المنشآت الصناعية، ويتعزز هذا الفهم بفضل الإشارة إلى "إطلاق مشروع تجريبي للشراكة بين القطاع العام والخاص." وليس معروفاً، في غياب المعلومات، إن كانت الاستشارات ستتناول أيضاً المنشآت الخدمية وغيرها بضمنها شركات التأمين العامة. لعل بعض الشك في مرامي مثل هذه المناقصة وارداً في ضوء

الشفافية المنقوصة في سياسات وممارسات الحكومة العراقية والتضارب في صياغة مسودات القوانين في العراق كما هو الحال في قانون النفط والغاز وقبلها مسودة الدستور فقد كانت هناك في التداول عدة مسودات. ولهذا ليس من المستبعد أن تطال إعادة الهيكلة شركات التأمين العامة أو قل في البدء إعادة هيكلة المنشآت الصناعية (ومعظمها يعاني من الإهمال وتركة الحصار الاقتصادي والعجز المالي والتخمة في عدد العاملين) وبعدَها التحول صوب هذه الشركات. وهومحط اهتمامنا.

المهتمون بشؤون التأمين لا يعرفون على وجه الدقة ما هي المشاريع المضمرة لقطاع التأمين الآن أو في المستقبل القريب لانعدام التصريحات عنها أو غموض وعمومية الخطط والسياسات الاقتصادية. وهذا ليس بالأمر المستغرب فقد عودتنا عليها حكومات ما بعد 2003(2). قبل ذلك كانت المشاريع والقرارات محتكرة من قبل مجلس قيادة الثورة ومنطق "الشرعية الثورية" لا يتطلب الاستئناس بآراء الغير ولذلك لم تخضع صياغة القرارات لنقاشات حقيقية مفتوحة.

لا نستهدف من هذه الورقة رفضاً أو قبولاً بالمطلق لإعادة هيكلة شركات التأمين العامة بل إثارة جملة من الأسئلة نراها ضرورية لإذكاء النقاش لصياغة المواقف ضمن الرؤية الموسعة لقطاع التأمين المتجذر، كغيره من القطاعات، في الاقتصاد العراقي الريعي.

إعادة هيكلة شركات التأمين ليس إجراءاً جديداً

لنعّرف أولاً من هي هذه الشركات. شركات التأمين وإعادة التأمين في العراق، التي يمكن أن تكون موضوعاً لإعادة الهيكلة، تنحصر بشركة التأمين الوطنية (تأسست سنة 1950)، شركة التأمين العراقية (1959) وشركة إعادة التأمين العراقية (1960). سنشير إليها جميعاً تحت اسم شركات التأمين العامة.

تقديم الخدمات الاستشارية لإعادة هيكلة شركات التأمين العامة، بافتراض أنها مطلوبة الآن ضمن المناقصة المعلن عنها أو قد يعلن عنها مستقبلاً، ليس جديداً فقد قامت الوكالة الأمريكية للمساعدات الدولية USAID بإعداد مشروع لإعادة الهيكلة سنة 2003 إلا أنه، ولسبب غير معروف لدينا، وضع المشروع جانباً، ربما على رف في وزارة المالية. وكانت إعادة الهيكلة هنا (على طريقة العلاج بالصدمة) تقتضي تحويل الشركات إلى شركات متخصصة في فروع التأمين خلال فترة زمنية قصيرة جداً (3).

وقبل ذلك كانت إعادة الهيكلة معروفة ولكن ليس بهذا الاسم. هي حقاً ليست بالأمر الجديد بالنسبة لشركات التامين العراقية، فقد عرفتها أولاً في ستينيات القرن الماضي (عمليات الدمج والتأميم). وفي الثمانينيات (إلغاء المؤسسة العامة للتأمين وإطلاق حرية العمل لشركتي التأمين العامتين لمزاولة أعمال التأمين على الحياة وغير الحياة، وإلغاء إسناد حصص إلزامية لشركة إعادة التأمين العراقية). وفي التسعينيات (فتح السوق أمام تأسيس شركات تأمين خاصة وتحويل شركات التأمين العامة إلى شركات ذات تمويل ذاتي). وبعد سقوط الدكتاتورية صدر قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة ٢٠٠٥ وتأسس بموجبه ديوان التأمين العراقي وجمعية التأمين العراقية. وهذه كلها محطات مهمة في تاريخ هيكلة قطاع التأمين العراقي تستحق الدراسة المستقلة.

إعادة هيكلة شركات التأمين: هل لها وظيفة اقتصادية إستراتيجية؟

مشروع إعادة الهيكلة كان أصلاً جزءاً من إعادة تأسيس الدولة العراقية في السياسات الأمريكية قبل وبعد الغزوسنة 2003وكان ما يصدر من آراء آنذاك من القوى السياسية المعارضة في الخارج، التي صارت الآن تمسك أو قل تستحوذ على أجهزة الدولة، عن إعادة هيكلة الاقتصاد صارخة في عموميتها وفي غياب رؤية تنتظمها. وهذه الآراء وقتها لم تأتِ على ذكر التأمين وفيما بعد عقب سنة 2003 ظهرت إشارات مقتضبة للتأمين من خلال تصريحات ذات طابع عمومي ربما يمكن فهمها الآن على أنها كانت بوادر للتمهيد لمشروع إعادة الهيكلة وإبقاء فكرة المشروع حيّه في الأذهان. وقد لخصنا بعضاً منها فيما يخص التأمين كالآتي عند التعليق على برنامج الحكومة الحالية للسنوات 2011–2014

"واضعو البرنامج ليسوا مطالبين بذكر التأمين بالتخصيص فالتأمين هو دائما الحلقة الأضعف في تصورات الحكومة والأحزاب السياسية، والأصح القول أن التأمين غائب في هذه التصورات. نعم يحاول وزير أن يظهر نفسه بأنه مهتم بالتأمين (4). ويلغي وزير آخر وجود التأمين في العراق (5). ومسؤول كبير يتحدث عن إعادة رسملة وتحديث صناعة التأمين (6). أكلُّ هذه الحالات كانت تقوم على دراسات وأوراق عمل أم أنها كانت نزوات أو أفكار غير مكتملة. ونسأل: كم من أوراق بحثية قام هؤلاء بتكليف خبراء التأمين في العراق القيام بها؟" (7).

استخدام عنوان "إعادة الهيكلة" أخف وقعاً من استخدام الخصخصة نظراً للمواقف العاطفية المتباينة التي يثيرها عنوان الخصخصة وخاصة عند استحضار تجاربها السيئة في بعض البلدان (8). فالعنوان "إعادة الهيكلة" يخلومن شحنة عاطفية ويوحي بأن موضوعه يجد تبريراً له في ضرورات اقتصادية –وهوليس كذلك بالنسبة لشركات التأمين العامة رغم أنه أمر قابل للنقاش كما سنحاول عرضه في هذه الورقة. ولنا أن نقول باختصار أن المستهدف من إعادة الهيكلة هو تحويل المنشآت العامة إلى شركات رأسمالية صرفة تستهدف الربح أساساً، ملكية أسهمها ستكون مفتوحة للعراقيين ولاستحواذ الشركات الأجنبية (التي قد تكون طاردة للرأسمال الوطني) وغيرها من "ضرورات" اقتصادية لإدماج الاقتصاد الوطني مع الاقتصاد العالمي والتماثل مع شروط صندوق النقد الدولي وكذلك منظمة التجارة العالمية.

نُقرُّ أن إيقاع العصر يستدعي التغيير والتعامل مع الضرورات والشروط المستجدة ولكن شريطة أن يكون التعامل من منظور تأسيس اقتصاد "رأسمالي" مُنتج يحافظ على المصالح الوطنية. ويقتضي ذلك إعادة تعريف الوظيفة الاقتصادية للدولة للتحول من الاقتصاد الريعي، وتقويض طفيلية القوى السياسية الماسكة بمقاليد السلطة (سلطة المال من خلال الريع والفساد والإفساد وسلطة السياسة من خلال التمثيل البرلماني وكذلك سلطة الأمن). وهي ذات القوى التي قزّمت الدولة، ككيان محايد، من خلال إقحام المحاصصة في بناء مؤسساتها.

وبالنسبة لقطاع التأمين فإن "نشاط التأمين سيبقى مرتبطاً بالدرجة الأولى بمقدار التطور الاقتصادي المحلي بصورة عامة، وما

يتبعه من تطور في قطاع البنوك كمصدر لتمويل الاستثمار وكوسيط في النشاط التجاري بصورة خاصة.

وفي الحالتين، فإن التوقعات تعتمد بالدرجة الأساسية على مقدار النجاح المحقق في إحداث التغيير الاقتصادي الجذري (الإستراتيجية والسياسات وإقامة البنية الأساسية المادية والاجتماعية والبيئية العامة) وليس فقط تحقيق زيادة في الإيرادات النفطية.

ومن واقع التطورات الراهنة والمحتملة في المدى القريب، فإن من المستبعد أن تزداد فعاليات التأمين على المستوى الكلي كما يتمثل في نسبة حجم أقساط التأمين إلى الناتج المحلي الإجمالي، وارتفاع كثافة سوق التأمين، كما في معدل إنفاق الفرد على التأمين كالذي تظهره ميزانية الأسرة " (9).

اعتماداً على هذه الرؤية هل ستساعد إعادة هيكلة شركات التأمين في زيادة دور هذه الشركات ضمن الاقتصاد المُنتج؟ وهل هي فقرة من مشروع تقليص الاعتماد على الموارد الريعية أم أنها واحدة من الإجراءات غير المنتظمة في رؤية متكاملة لتوجيه الاقتصاد العراقي (كما هو الحال مع رأسمالي ما بعد 2003، من العرب والكرد، ممن يعملون في أكثر من مجال دون أن يكون لديهم رؤية لتحقيق التكامل بين هذه المجالات؟ وذات التفكير ينطبق على سياسات القوى السياسية الحاكمة). البديل المرتجى هو المشروع الوطني المتكامل للتنمية القائم على إعادة النظر في توزيع الريع النفطي، وتحديداً تقليص الاعتماد عليه والذي من شأنه أن يحدد معالم السياسات الاقتصادية التفصيلية التي تصب في المشروع. وخلاف ذلك سيسود الاستغراق في الجزئيات كما هو حال الرأسماليين الجدد.

لنلاحظ أن الريع النفطي الذي يتكدس لدى المصرف المركزي العراقي وقد بلغ الآن، آب 2011 (85 بليون دولار) لايمثل دخلاً لقوة عمل المنتجين أو الفائض المتحقق للرأسماليين لقاء تشغيلهم لاستثماراتهم الإنتاجية أو الضرائب التي يدفعونها لخزينة الدولة. هو ليس إلا إيرادات النفط الخام المُصدر. ولأن استقلال المصرف المركزي له الأولية العظمى، كما رسمها مستشاروبول بريمر، انحسر وبالأحرى ألغي دور المصرف في المساهمة في التنمية الاقتصادية وما يترتب عليها من دور لقطاع التأمين. هو الآن ليس إلا حارساً للإيرادات النفطية ولا دور له في التنمية الاقتصادية. وقد كتبنا في مكان آخر(10):

"أن الهوس بالسياسة النقدية، كما يمارسها المصرف المركزي، لا يساعد في إعطاء دفعة لبدء عملية النموالاقتصادي. فتركيز السياسة على احتواء التضخم من خلال رفع القيمة التبادلية للدينار العراقي مع الدولار الأمريكي لم يؤدِ إلى النتيجة المطلوبة في الوقت الذي تم فيه زيادة أسعار المحروقات وتأثيرها المتنامي على أسعار السلع والخدمات.

وبدلا من أن يكون عاملا فاعلا في التنمية الاقتصادية تم إعادة تكييف المصرف المركزي على أسس نيوليبرالية (11): التأكيد على استقلالية المصرف (لإلغاء أي دور للمصرف في تمويل الحكومة أو تمويل العجز)، الحد من التضخم (لتحويل أنظار المصرف من الاهتمام بأهداف أخرى كالمساهمة في تحقيق استخدام كامل للعمالة، ودعم السياسة الصناعية أو تخصيص الاعتمادات لقطاعات اجتماعية معينة كالإسكان والتطبيق

غير المباشر للأدوات النقدية (معدلات الفائدة للمدى القصير)."

إن لم يكن تجاوز الريع هو المطلوب فقد تكون إعادة الهيكلة من الخطوات المطلوبة لدخول العراق كعضوفي منظمة التجارة العالمية من خلال التمهيد لرفع القيود والضوابط ومنها (بالنسبة لشركات التأمين): االتخلي عن إلزامية إسناد حصة من الأخطار لشركة الإعادة الوطنية (وبالنسبة للعراق فإن الحصة الإلزامية قد ألغيت أواخر ثمانينيات القرن الماضي)، وإلغاء تعرفات الأسعار (ولكن ليس هناك تعرفات في العراق)، والسماح للشركات الأجنبية للمساهمة بكامل رأسمال الشركات –أي دون الحاجة لشراكة عراقية. هناك شركات تأمين خاصة يساهم فيها رأس المال العربي والأجنبي.

هل تقتضي إعادة هيكلة الاقتصاد العراقي خصخصة شركات التأمين العامة بعد أن فقدت هذه الشركات سنة 1997 موقعها الاحتكاري الذي كان مفروضاً بقوة القانون. كانت هذه الشركات حتى ذلك الوقت، وبالأصح منذ سنة 2000 عندما تأسست أول شركة تأمين خاصة، تتمتع بريع داخلي بفضل التحكم في منافذ التوزيع أو قل احتكار هذه المنافذ. ولا يزال بعض من هذا التحكم قائماً فيما يخص إدارة تعويضات التأمين الإلزامي إذ ليس لشركات التأمين الخاصة دور في هذا المجال، ولها الحق في المشاركة مما يتطلب مراجعة لقانون التأمين الإلزامي من حوادث السيارات لسنة 1980 وتعديلاته.

قد تكون إعادة الهيكلة من متطلبات التحديث كي يكون السوق العراقي على مستوى أسواق التأمين الأخرى في العالم العربي. وهذا يتناغم أيضاً مع شروط صندوق النقد الدولي لإعادة هيكلة الاقتصاد العراقي –إخراجه من الإرادوية في تسيير الاقتصاد الوطني وإخضاعه لقوى السوق. لكن هذا التبرير ضعيف ولا ينهض به واقع سوق التأمين العراقي في الوقت الحاضر فالمنافسة بين الشركات العامة والخاصة قائمة، والسوق يخضع لقوى العرض والطلب خاصة بعد أن أكد ديوان التأمين العراقي على الشركات النفطية الالتزام بأحكام قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005 في استدراج عروض التأمين من جميع شركات التأمين العراقية من خلال المناقصات. وكان عدم الالتزام بالأحكام موضوع مساءلة وانتقاد من قبل شركات التأمين الخاصة.

لكن التحديث مطلوب بحد ذاته لمواكبة التغيرات الحاصلة في العالم دون أن يتطلب ذلك خصخصة شركات التأمين العامة. وقد رصدنا بعض ملامح التحديث في دراسة سابقة لنا (12).

ربما يكون التبرير تحرير الدولة من أعباء كونها أكبر رب عمل. وهوصحيح وآخذ بالتضخم بفضل سياسة تكريس المحاصصة الاثنية والطائفية بإقحام المزيد من الموظفين في مؤسسات الدولة حتى ولوبشهادات مزورة. لكن شركات التأمين العامة، رغم أنها توظف ما يزيد عن ألف وخمسمائة موظف إلا أن هؤلاء لا يشكلون أي عبء على خزينة الدولة لأن الشركات تحقق فائضاً يكفي لتمويل الرواتب والمصاريف الأخرى زيادة عن تمويل الخزينة بأرباحها ورسم الطابع ولها استثماراتها العقارية وغيرها.

لقد شهد قطاع التأمين تدهوراً كبيراً بسبب الحروب والعقوبات الدولية افقدته الموارد المالية والبشرية للتحديث من الداخل.

هل لذلك صار التوجه نحو إعادة الهيكلة واستدراج الشركات الأجنبية، وهوما تشجع عليه الحكومات العراقية، هو الحل للنهوض من الواقع الراكد؟ أي أن إعادة الهيكلة ضرورية لإدخال التكنولوجيا (المعرفة الجماعية عن كيفية إنتاج السلع والخدمات بأسلوب أكثر كفاءة) وتحسين نوعية الخدمات المقدمة للمستهلك، حتى إذا تطلب الإصلاح إزاحة المُنتِج، الرأسمالي، الوطني، كما هو حاصل في قطاع النفط من خلال تقزيم دور شركة النفط الوطنية المرتجاة وحصر دور الرأسمال الوطني في أعمال هندسية صغيرة. سنناقش بعض جوانب هذا التبرير فيما بعد.

ما هو شكل/أشكال إعادة الهيكلة؟

لوافترضنا أن مشروع إعادة هيكلة شركات التأمين العامة سيتحقق ما هي صيغة إعادة الهيكلة (الخصخصة)؟ هل ستكون من خلال بيع أسهم الشركات إلى من يرغب بشرائها من العراقيين والعراقيات فقط أم من العراقيين والأجانب على حد سواء؟ هل تحتفظ الدولة بحصة في هذه الشركات؟ هل ستحدد فترة زمنية بعد الشراء لا يمكن خلالها إعادة بيع الأسهم؟ (لمنع أو الحد من المضاربات)

ترى لواتخذت إعادة الهيكلة صيغة الدعوة المفتوحة أو المقيدة لشركات التأمين الأجنبية لشراء حصص في الشركات العامة لتكوين شركات عراقية أجنبية في رأسمالها فإن هذه الصيغة قد تُفاقم من حدة التنافس الحالي في غير صالح شركات التأمين الخاصة ذات القاعدة الرأسمالية الضعيفة والاحتياطيات المحدودة.

لعلني استبق الأمور بإثارة هذه الأسئلة لكنني أثيرها عمداً لتكون موضوعاً للمناقشة الآن بين من يعنيهم وضع شركات التأمين العامة سواء بقيت على حالها (عندها يجب التفكير بوسائل النهوض بها في سوق قائم على التنافس) أو أصبحت موضوعاً للخصخصة أو أي شكل آخر من أشكال إعادة الهيكلة.

هذه الأسئلة مفيدة أيضاً في إطار التفكير بمصالح العاملين والعاملات في الشركات العامة في الحفاظ على وظائفهم، وهل سيخصص لهم، مثلاً، قسم من الأسهم بأسعار مُيسّرة عرفاناً بدورهم في بناء قدرات شركاتهم؟

ماذا سيكون مصير شركة إعادة التأمين العراقية؟ هل ستُلغى هذه الشركة، ويوزع موظفوها وأصولها واحتياطياتها على شركتي التأمين المباشر العامتين؟

حالياً تقوم شركة إعادة التأمين العراقية بدور المدير للاتفاقيات الإعادية لمعظم شركات التأمين العاملة في العراق العامة والخاصة. إلغاء الإعادة العراقية سيؤثر أساساً على شركات التأمين الخاصة والصغيرة منها من حيث حجم الأعمال ورأس المال على وجه التخصيص. فهذه الشركات لن تكون قادرة لوحدها منفردة على شراء إعادة التأمين الاتفاقي.

إن كان الإلغاء هو مصير الإعادة العراقية فإنه قد يوفر فرصة لمثل هذه الشركات للتشارك فيما بينها لشراء إعادة التأمين على نمط ما كانت تقوم به الإعادة العراقية.

ويتطلب هذا الترتيب قيام واحدة من الشركات الخاصة بوظيفة التنسيق لشراء الحماية لحين تحسن أوضاع هذه الشركات (زيادة رأسمالها وحجم أقساط التأمين التي تكتتب بها أو اندماجها مع بعضها) بحيث تستطيع معه ترتيب اتفاقياتها بانفراد.

قبل الإقدام على إعادة الهيكلة

قبل الإقدام على إعادة الهيكلة يجب إعادة النظر في بعض بنود قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005لضمان حماية مصالح شركات التأمين العراقية. ولا حاجة بنا هنا لتكرار ما عرضناه، كما عرضه غيرنا من الزملاء، بشأن بعض الآثار الضارة والمسكوت عنها لهذا القانون (13). يكفي هنا الإشارة إلى أهم التعديلات التي نقترحها على القانون لتعزيز مكانة شركات التأمين العراقية الخاصة والعامة:

اشتراط إجراء التأمين على الأصول والمسؤوليات القانونية الناشئة عنها لدى شركات تأمين مسجلة لدى الدوائر المختصة في العراق ومجازة من قبل ديوان التأمين العراقي.

تحريم إجراء التأمين خارج العراق، أي خارج القواعد الرقابية التي يديرها الديوان، وهوما يطلق عليه بالإنجليزية prohibition of non-admitted insuranceوعدّ مثل هذا النوع من التأمين باطلاً.

فرض غرامات مالية وغير مالية عند مخالفة هذا الشرط وإلزام الطرف المخالف بشراء التأمين من شركة تأمين مسجلة ومجازة في العراق.

ويجب العمل أيضاً على تعزيز دور الديوان وتفعيل جمعية التأمين العراقية.

الخصخصة ليست حلاً سحرياً لأزمة الاقتصاد العراقي

في مقالة مُهمة حول مستقبل اليسار العراقي أكد د. عصام الخفاجي على أن الوقوف ضد خصخصة قطاع الدولة يعني مزيدا من إضاعة من الفرص والموارد التي يمكن توظيفها بطرق أخرى لتحسين أداء الاقتصاد الوطني، فضلا عن أنه يمثل الدخول في معركة خاسرة سلفا. أقترح، عوض ذلك، أن يطرح الحزب مطلب ضمان تثبيت ملكية العاملين في أي مشروع تتم خصخصته لنسبة 25بالمئة من رأس المال وتمثيلهم بمثل هذه النسبة في مجالس الإدارة، ويشترط ألا يتم التصرف بتلك الحقوق لفترة زمنية محددة (20 سنة على سبيل المثال) ضمانا لعدم استغلال المتموّلين لحاجة العاملين وشراء تلك الحقوق (14).

لن نناقش أطروحة د. عصام الخفاجي، رغم العنوان الكبير الذي اخترناه، إلا من خلال نظرتنا لقطاع التأمين العراقي. نحن على قناعة أن الخصخصة، لوحدها، لا تحل القضايا العقدية للاقتصاد العراقي كحل مشكلة البطالة والفقر وتضييق الاعتماد على الريع النفطي. كما أن نهوض وتطور قطاع التأمين ليس مرهوناً بالخصخصة.

الخصخصة بالمطلق لكل الشركات والمنشآت التابعة للدولة لا ينسجم مع التحليل الملموس لكل حالة على حدة لاكتشاف مكامن الخلل فيها والتي يمكن أن تُصحح قبل اتخاذ قرارٍ لخصخصتها. ربما تضم بعض هذه الشركات مزايا تضاهي تلك الموجودة لدى مثيلاتها من الشركات الخاصة وهوما نعتقد أن شركات التأمين العامة تتمتع بها لكنها تحتاج إلى تطوير. ومن رأينا أنه ليست هناك مبررات اقتصادية لخصخصة هذه الشركات بل هناك ضرورات للتطوير.

شركات التأمين العامة، الممولة ذاتياً منذ سنة 1997، تختلف عن معظم الشركات العامة تلك التي تعمل في قطاع الصناعة، فهي، على سبيل المثال، لا تقترض من وزارة المالية لتسديد رواتب العاملين فيها. الخبر التالي يشرح هذا الأمر:

"تواصل عشرات الشركات التي تتبع وزارة الصناعة وتعمل بنظام التمويل الذاتي، اقتراض رواتب موظفيها البالغة مليارات الدولارات من وزارة المالية، في ظل العجز عن تحويلها الى "شركات رابحة".

وتملك وزارة الصناعة 75شركة، تعمل جميعا بنظام التمويل الذاتي، وتشغل نحو 250الف منتسب، 68الفا منهم عادوا عبر نافذة "الفصل السياسي". ويعاني معظم هؤلاء من عدم تغيير عناوينهم الوظيفية منذ سنوات، ما جمّد رواتبهم عند حدود واطئة " (15).

لا بل أن شركات التأمين تدفع نسبة من أرباحها للمستحقين من العاملين والعاملات. خلال تاريخها الذي يتجاوز نصف قرن لم تعتمد هذه الشركات على أي تمويل من قبل الدولة (الخزينة المركزية) لتغطية عجز (وهي لم تتعرض إلى عجز) لا بل هي كانت دائماً مصدراً لتمويل الميزانية من خلال الضرائب التي تدفعها على الأرباح المتحققة ورسم الطابع على وثائق التأمين الصادرة.

إذا كان هذا هو الواقع الحالي لهذه الشركات هل هناك ضرورة اقتصادية لخصخصتها أم أن هذه ترجمة لموقف إيديولوجي وربما ينطوي على مرامٍ غير ظاهرة الآن.

سؤال آخر موجّه لإيديولوجي الليبرالية الجديدة: لماذا لا يترك مصير شركات التأمين العامة ليتقرر في السوق "الحرة" من خلال قرارات المستهلكين (طالبي التأمين) وليس بقرار سياسي. أليس دعاة ومروجو إيديولوجيا السوق الحرة في كتب الاقتصاد المدرسية والمنابر الإعلامية والمؤسسات البحثية يؤكدون أن المستهلك هو صاحب السيادة في السوق؟ فلتتنافس الشركات العامة والخاصة على جذب المستهلكين إليها وليقرر هؤلاء أيهما الأفضل في تقديم المنتجات التأمينية والخدمات المرتبطة بها ومن ثم "طردها" من السوق من خلال عدم التعامل معها.

ما هو الهدف؟ إخضاع الشركات لمبدأ الربح كي تكون شركات رأسمالية؟ هذا الهدف لا مقوم له إذ أن الشركات تمارس أعمالها بهدف تحقيق الربح، وهي خاضعة لقيم الربح والخسارة.

ربما الهدف هو التخلص من الموظفين الفائضين عن الحاجة وتحسين مستوى الكفاءة الإنتاجية. يمكن تحقيق ذلك دون خصخصة الشركات. الشركات العامة متهمة بأنها غير كفوءة في الأداء أو أنها غير قادرة على ابتكار منتجات تأمينية جديدة أو أنها تدير أعمالها بفساد وكل هذه أمور قابلة للنقاش بشكل عام وتحتاج الى فحص كل حالة على انفراد وليس إطلاق الحكم. ونحن ميالون إلى تأكيد أن شركات التامين العامة في العراق في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي كانت متقدمة في الأداء ومبتكرة للمنتجات (أو قل مواكبة ومقلدة لما هو موجود في أسواق تأمينية أخرى) وخالية من مظاهر الفساد المالي والإداري.

يمكن النظر إلى الشركات العامة على أنها تتمتع بريع بفضل موقعها. فرغم وجود شركات تأمين خاصة منذ سنة 2000 فإن الموقع الريعي للشركات العامة هو من إرث الماضي ونعني به إرث رأسمالية الدولة. فبحكم العادة تلجأ منشآت القطاع العام إلى الشركات العامة لشراء وثائق التأمين. هذا رغم أن قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005(المادة 81) ينص على استدراج العروض في تأمين الأصول العامة.

شركات التأمين العامة هي الأكثر غنى من الشركات الخاصة، وقد يستمر موقعها الريعي حتى بعد الخصخصة. إذا كان هذا التوقع صحيحاً فما الذي تجنيه شركات التأمين الخاصة من الخصخصة؟ ستشتد المنافسة على الأسعار، وستتركز المنافسة، خارج الأسعار، على **تقليص كلفة الإنتاج** (عنصر حاسم في تقييم أداء الشركات العامة) **وزيادة المبيعات دون تخفيض الأسعار** من خلال حملات إعلانية، وتغيير نطاق أغطية التأمين، وجباية أقساط التأمين بالتقسيط، **وتحسين نوعية الخدمة المقدمة لحملة وثائق التأمين**. هذه المنافسة قائمة في الوقت الحاضر بدون خصخصة الشركات العامة.

في قطاع التأمين العراقي تعمل شركات التأمين العامة جنباً إلى جنب الشركات الخاصة أي أن الشركات العامة تعمل ضمن ضوابط السوق التنافسي –ومنها أن شركات التأمين الخاصة الكفوءة والناجحة تضغط كنموذج بديل للشركات العامة وقد تستقطب العناصر الجيدة من الشركات العامة (معظم إدارات شركات التأمين الخاصة منذ 2000 هم من خريجي شركات التأمين العامة). مثل هذا الوضع يحفز الشركات العامة لمواجهة الشركات الخاصة في السوق. عندها تلجأ الشركات العامة إلى تحسين أدائها، إن كان دون ما هو مخطط له أو بالمقارنة مع أداء الشركات الخاصة، من خلال اعتماد جملة من الإجراءات:

التدريب المكثف والمستمر للعاملين بما فيه احترام المستهلكين ضمن ضوابط العقود والقوانين

الاستفادة من خبراء استشاريين من خارج الشركات في مجالات معينة –على سبيل المثال إدخال الحاسوب في جميع مجالات تنفيذ الأعمال اليومية أو إعادة النظر في نظام الحوكمة وسبل تعزيزه

إجراء دراسات من قبل استشاريين مستقلين لكلفة الإنتاج للمقارنة مع شركات التأمين الخاصة المماثلة

الاستفادة من نماذج التخطيط في الشركات الخاصة المتقدمة، وغيرها من الأدوات التي تستخدم في الشركات الخاصة: مساءلة المدراء ومجالس الإدارات، ضوابط لمنع سوء استخدام السلطة من قبل المدراء، التعلم من الحوكمة المؤسسية لدى الشركات الخاصة الناجحة الملتزمة بضوابط الأداء والمساءلة أمام المالكين (مالكي الأسهم من الأفراد والشركات).

لو قارنا بين الشركات العامة والخاصة في العراق في الوقت الحاضر لوجدنا إنها جميعاً تدور في فلك المدير العام والمدير المفوض. أي أن التنظيم الداخلي متشابه وبالتالي فإن المركزية هي السمة المميزة التي تسود في الشركات العامة والخاصة وكذلك البيروقراطية.

نعيد السؤال: هل الخصخصة هي الصيغة الوحيدة لإعادة الهيكلة أم أن هناك نماذج أخرى لها؟ ألا يمكن لهذه الشركات أن تكون مملوكة لحملة وثائق التأمين وتدار كمؤسسة تعاونية؟ (16) نثير هذا السؤال وفي بالنا تأميم قطاع التأمين سنة 1964 موقفنا من التأميم ينطبق على إعادة الهيكلة فقد كتبنا الآتي بشأنه:

لم تكن نتائج التأميم متجانسة: تقدمٌ من ناحية وحجرٌ على التطور من ناحية أخرى، استقلالٌ في الإدارة آناً وتدخلٌ سياسي وهكذا. وهذا يعلمنا أن لا نقاء في النظرية التي تنتظم التأميم وفي النتائج الفعلية

المنظورة وغير المنظورة التي تترتب على التأميم. ولكن يظل هناك دائماً فسحة للتداول بشأن الخيارات المتوفرة في إدارة قطاع التأمين والاقتصاد الوطني.

القول أن لا بديل هناك هو الموقف المتطرف عند اليمين واليسار معاً لإلغاء حرية المفاضلة بين البدائل.

كان بالإمكان التفكير بخيارات أخرى غير التأميم الذي كرّس سيطرة الدولة على ملكية مرافق اقتصادية كان الأفضل أن تترك تحت ملكية وإدارة القطاع الخاص. هناك دور للدولة وهناك دور للقطاع الخاص وبينهما نماذج أخرى للملكية لم تجرِ الاستفادة منها، وهي التي لم تلقَ الاهتمام المطلوب من الاقتصاديين ومن أصحاب القرار في الماضي أو الحاضر لإصلاح النظام الاقتصادي وتداخله مع السياسي والاجتماعي (17).

نعرف أن العالم كله يتغير وبنية الاقتصاد العراقي يجب أن تتغير ضمن مشروع يقوم أساساً على تحديد الرؤية لمكانة المحرك الأساسي، الموارد النفطية، وتقليص الاعتماد عليها، ومعالجة أزمة البطالة والفقر ووضع أساس متين لدولة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين. لكن الخصخصة ليست المفتاح السحري لحل قضايا الاقتصاد العراقي إن لم توضع ضمن المشروع الاقتصادي الوطني. وعلى المرء أن يسأل: لماذا ولمصلحة من ستخصخص شركات التأمين العامة؟

في دراسة سابقة لنا عن تأميم قطاع التأمين العراقي كتبنا التالي:

في محاولة لتعميق فهم قرارات التأميم نثير السؤال التالي: هل كان التأميم، في مجمله، محاولة لتقليل الاعتماد على الريع النفطي الذي يمول الميزانية الاعتيادية للدولة والاستثمارات؟ لا نظن ذلك رغم شيوع الدعوة لسياسة تقليل دور الريع النفطي في الاقتصاد الوطني. ليس لدينا جواب جاهز عن هذا السؤال، ولكننا نطمح إلى توضيح من اقتصاديين محترفين.

ونثير الآن نفس السؤال: هل ستكون إعادة هيكلة شركات التأمين العامة مدخلاً لتقليص الاعتماد على الريع النفطي؟ لا نظن ذلك.

لندن 12أيلول 2011

الهوامش:

(1) MEED, 19-25 August 2011, p 4

(2)مصباح كمال، "تعليق على غياب التأمين في برنامج الحكومة للسنوات2011–2014 مرصد التأمين العراقي:
http://iraqinsurance.wordpress.com/2011/07/21/absence-of-insurance-in-government-programme-for-2011-214/

(3)مصباح كمال، "نقد مشروع إعادة هيكلة سوق التأمين العراقي". كتبت هذه الورقة أصلاً باللغة الإنجليزية ونشرت في مجلة:MEES (Middle East Economic Survey) Vol. 47. No. 19 (10 May 2004) pp D1-D5
يتضمن النص العربي بعض الإضافات. ونشرت أيضاً تحت عنوان "ملاحظات نقدية حول إعادة هيكلة سوق التأمين العراقي "، الثقافة الجديدة، العدد 314، 2005 ص 48–58

(4) مصباح كمال، نقد "مؤتمر التأمين" وتصريحات وزير المالية" مجلة التامين العراقي. http:// misbahkamal.blogspot.com/2009/07/28-2009.html

(5)مصباح كمال، "تفعيل دور شركات التأمين في تعزيز موارد الدولة: مناقشة دعوة وزير المالية" مجلة التأمين العراقي./http: /misbahkamal.blogspot.com/2009/05/6-2009.html

(6)مصباح كمال، "تزيف أقساط التأمين في العراق"، مجلة التأمين العراقي.
http://misbahkamal.blogspot.com/2009/02/blog-post_23.html

(7)مصباح كمال، "د. برهم صالح وإعادة رسملة وتحديث قطاع التأمين العراقي"، مجلة التأمين العراقي

(8) مصباح كمال، "تعليق على غياب التأمين في برنامج الحكومة للسنوات 2011–2014"، مجلة التأمين العراقي http://misbahkamal.blogspot.com/2009/05/blog-post_20.html /http://misbahkamal.blogspot.com

(9)مقتطف من رسالة من د. صبري زاير السعدي للكاتب مؤرخة في27 تشرين الأول 2010

(10) مصباح كمال، "النفط والدولة والسياسة الاقتصادية في العراق"، الثقافة الجديدة، العدد 322–323، 2007، ص 12–13 كتب النص الأصلي بالإنجليزية ونشرت نسختها المحررة في مجلة ميس MEES, Vol 50: 23, 4th June 2007.

(11) Gerald Epstein, "Central Banks as Agents of Economic Development," Political Economy Research Institute, University of Massachusetts Amherst, September 2005. http://www.peri.umass.edu/Publication.236+M5d9a4547bec.0.html

(12)مصباح كمال، "د. برهم صالح وإعادة رسملة وتحديث قطاع التأمين العراقي "، مجلة التأمين العراقي http://misbahkamal.blogspot.com/2009/05/blog-post_20.html

(13)أنظر على سبيل المثال: مصباح كمال: "قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005 مراجعة للخلفية وبعض الآثار الاقتصادية "، الثقافة الجديدة ، العدد 319، 2006 ص 48–58

قمنا بجمع بعض من دراساتنا عن هذا القانون في كتاب لم ينشر بعد.

(14) عصام الخفاجي، "موضوعات حول مستقبل اليسار العراقي "، موقع الحزب الشيوعي العراقي، 21 تموز 2011 http://www.iraqicp.com/2010-12-30-11-08-49/4992-2011-07-21-14-31-03.html

(15)ناصر البجاري، "العشرات من شركات ؟التمويل الذاتي؟ تقترض المليارات لدفع رواتب موظفيها.. والإهمال حوّل منتسبيها الى ؟عاطلين؟" جريدة العالم، 8أيلول 2011

(17) هناك العديد من شركات القطاع العام أو الشركات التعاونية في العالم تضاهي الشركات الخاصة في الأداء يمكن أن تكون نموذجاً للاقتداء. أنظر:

Jim Stanford, Economics for Everyone (London & New York: Pluto Press, 2008), pp328-331.

(17)مصباح كمال، "تأميم قطاع التأمين في العراق ١٩٦٤: مقدمة نقدية "، مجلة التأمين العربي، العدد 109، حزيران/يونيو2011

طاولة مستديرة

طاولة مستديرة
حول السكان في العراق*

في 2010/10/30وعلى قاعة جمعية المهندسين ببغداد انتظمت أعمال طاولة مستديرة ضمت عددا من المهتمين والمختصين من مهندسي وزارة الاعمار والإسكان ورجال الأعمال والعاملين في قطاع المقاولات ومهندسين عاملين لمناقشة وضع الإسكان في العراق وما نشرته وزارة الاعمار والإسكان حول سياسة الإسكان الوطنية في العراق لسنة 2010

أدار الندوة المهندس فلاح المعروف والذي رحب في بدايتها بالضيوف الكرام شارحاً أهمية موضوع الإسكان، وموضحا أن الهدف العام للندوة هو تدشين نقاش يساهم فيه الزملاء الحضور من المختصين والمهتمين بهذا الشأن بمناقشة موضوع الإسكان واستخلاص الدروس والخروج بنتائج ومقترحات تساهم في حل هذه المشكلة الكبيرة.

بعد انتهاء الأستاذ **فلاح المعروف** من تقديم مداخلته، فتح باب النقاش الذي شارك فيه العديد من المشاركين. وأدناه خلاصة لهذه المداخلات حسب تسلسل تقديمها:

الأستاذ الدكتور مظفر علي الجابري/ استشاري تخطيط حضري وإسكان

كان أول المتحدثين الأستاذ الدكتور مظفر علي الجابري المساهم في إعداد ورقة (سياسة الإسكان الوطنية في العراق) لسنة 2010 الصادرة عن وزارة الاعمار والإسكان. في بداية حديثه شكر القائمين على عقد هذه الندوة لما للموضوع من أهمية خاصة تتعلق بحياة العراقيين حيث إن السكن الكريم من أهم حقوق الإنسان العامة والعراقي خاصة. واضاف انه بحكم اختصاصه في موضوع

الإسكان وفي إعداد الورقة الخاصة بسياسة الإسكان الوطنية فانه سيتحدث بالتفصيل عنها كونها تشكل سبيلا ومنهجا لحل الأزمة موضوعة النقاش.

بيّن الدكتور الجابري أن وزارة الاعمار والإسكان قامت مشكورة بتكليف منظمة المستوطنات البشرية التابعة للأمم المتحدة (هابيتات) بإجراء دراسة موسعه لسياسة الإسكان في العراق التي يمكن على أساسها إيجاد سبل ومنهجية لحل الأزمة المتفاقمة والحاجة المتزايدة للوحدات السكنية في العراق. إن الدولة العراقية ومنذ نهاية السبعينات لم تساهم بإنشاء أية مشاريع إسكانية في العراق سوى بإعداد متواضعة وربما الاقتصار على توزيع قطع أراضي لإنشاء مساكن مع بعض القروض من المصرف العقاري، علما أن هذا النوع من البناء الفردي يعتبر متخلفا بالنسبة للبناء الحديث في بناء مجمعات سكنية متكاملة. ويمكن تلخيص محتوى دراسة (سياسة الإسكان في العراق) بأربعة محاور هي: التخطيط والمتابعة : أي وضع الخطط والهياكل التنظيمية والتشريعات القانونية لتخطيط ومتابعة عملية الإسكان في العراق مواد البناء وتخصيص المواقع والخدمات : إن قطاع مواد البناء ليس مهما فقط لأغراض البناء السكاني ولكنه مهم للبناء غير السكاني أي لأعراض الاعمار والبناء الأخرى. وتعاني البنية التحتية لمعامل مواد البناء للقطاعين العام والخاص من القدم؛ ونقص قطع الغيار، وانقطاع التيار الكهربائي، والتخريب والنهب في مرحلة مابعد 2003/4/9والإهمال بصفه عامة خلال سنوات الحصار. إن هذا كله أدى الى زيادة الحاجة لاستيراد المواد الأساسية كالاسمنت والطابوق والأجزاء المصنعة كالنوافذ ولوازم السباكة والأجهزة الكهربائية سوق التمويل السكاني.

وشدد الأستاذ الجابري على أن من الضروري أن تضمن الحكومة تنظيم سوق للتمويل السكني كجزء من القطاع المالي. ويستدعي الأمر وضع قانون جديد لتمويل الإسكان لضمان حصول الجهات المقرضة على ما يكفي من الضمانات في حالة تعثر القروض بحيث يتضمن القانون على الإحكام المتعلقة بالحجر وإعادة التمليك تنفيذ المشاريع الإسكانية والإشراف عليها، حيث تبدأ المشروعات التجريبية (projects pilot) في المجالات الرئيسة مثل تطوير المناطق (مناطق الإملاء الخضري) ضمن المناطق السكنية المشيدة ثم الشراكات بين القطاعين العام والخاص وسوف تعمم المشاريع الناجحة على مواقع أخرى في أنحاء البلاد.

وفي ختام حديثه طرح الأستاذ الدكتور مظفر علي الجابري بعض الملاحظات والمقترحات التي يراها مهمة لحل أزمة السكن والسير بسياسة إسكانية صحيحة وهي:

– نظرا للأهمية الكبيرة التي يضطلع بها قطاع الإسكان في الاقتصاد الوطني وامتصاص البطالة اقترح **تأسيس وزارة خاصة باسم وزارة الإسكان** وفصلها عن وزارة الاعمار والإسكان نظرا لان حركة الاعمار تشمل بناء الطرق والجسور والمباني الحكومية وهي المهيمن على معظم نشاطات وفعاليات الوزارة حاليا وعلى حساب حركة الإسكان والتشييد السكني.

– تخصيص مبالغ لا تقل عن 5 بالمائة من الميزانية العامة للدولة لدعم وتمويل عمليه إنشاء الوحدات السكنية.

– إعادة تفعيل (المجلس الأعلى للإسكان) وان يكون برئاسة السيد نائب رئيس الوزراء وذلك لتمكينه من اتخاذ القرارات من أعلى جهات الدولة لتسهيل خطط الإصلاح المؤسسي للإسكان.

– ضرورة تفرغ (الهيئة العامة للإسكان) لأعمال البحوث والدراسات ووضع وتشخيص الأولويات والإشراف على مجمل سياسة الإسكان.

– البدء بدراسة إمكانية إقامة الشراكات بين المقاولات الحكومية للإسكان وبين شركات القطاع الخاص.

– توجيه شركات المقاولات الحكومية بتوفير السكن المدعوم والمجاني لعديمي الدخل من المهمشين والضعفاء اقتصاديا.

– التأكيد على وزراء ألصناعه بضرورة دعم وإعادة وتأهيل معامل مواد البناء وتشجيع الاستثمار في هذا المجال.

الأستاذ الدكتور المهندس
باسم الأنصاري
المدير العام السابق
للهيئة العامة للإسكان

توجه الأستاذ الأنصاري الشكر لمنظمة الطاولة المستديرة الذين فسحوا المجال للحديث عن موضوع حساس يشكل مشكلة ليس في العراق فحسب وإنما في كل أنحاء العالم. ولا شك أن موضوع الإسكان يشكل في العراق أزمة يتطلب حلها جهودا جبارة يجب ومبادرات تقوم بها كل القوى الخيرة الحريصة على بناء عراق جديد يضمن للإنسان حقوقه التي تقرها كل الشرائع والقوانين.

ومن جانب آخر ذكَّر الأستاذ الأنصاري بالتشريعات الواردة في الدستور العراقي الدائم، الذي تم الاستفتاء عليه من قبل الشعب العراقي بنسبة عالية جدا بعد التغيير في 2003/4/9وتحديدا في عام 2005 ففي موضوع السكن شدَّد الدستور على ضرورة أن يحصل كل عراقي على سكن ملائم، ولكن الدستور لم يحدد نوع أو شكل هذا السكن من حيث كونه لائقا لسكن الإنسان خاصة وان لائحة حقوق الإنسان الدولية الصادرة عن الأمم المتحدة سنة 1945تشير الى أن من حق كل إنسان أن يمتلك سكناً كريما.

كذلك ورد في الدستور أن الدولة تدعم ذوي الدخل المحدود ولكن لم يحدد شكل ومقدار هذا الدعم ولا يوجد أي توضيح لذلك. ومن المعلوم أن نسبة البطالة في المجتمع العراقي تزيد على 25٪، مما يعني أن نفس النسبة من المواطنين سوف تكون غير قادرة على توفير سكن خاص بها. وهنا شدّد الدكتور باسم الأنصاري على انه وعند وضع سياسة إسكانية من الضروري أن يعرف واضع السياسة كيف سيقوم بتوفير هذا السكن بالنمو الاقتصادي العام للبلاد

وأضاف الأستاذ الأنصاري انه هناك نقطة مهمة أخرى يجب ملاحظتها وهي أن السكن المشترك (المشاع)، أي سكن أكثر من عائلة في وحدة سكنية واحدة يؤدي الى ضغط إضافي على المدينة مما يسبب عدم إمكانية توفير الخدمات اللازمة للسكان والمهيأة أصلا لعدد معين من البشر. لذا أكد على ضرورة قيام المحافظات برسم سياساتها الإسكانية الخاصة بها، وحسب

ظروفها الذاتية والموضوعية والمباشرة بتنفيذ هذه السياسات والخروج من ربقة المركزية.

ومن المهم أيضا عند وضع السياسة السكانية تثبيت عدد الوحدات السكنية لكل منطقة وتحديد النمو السكاني فيها وإيقاف عملية الهجرة التي تؤدي بالضرورة الى فشل سياسة السكن المخطط لها.

ومن ضرورات الحياة ولجعل السكن ملائماً لحياة العائلة أن يتناسب شكل الوحدة السكنية مع عدد أفراد الأسرة، كما انه من الضروري الانتباه الى كلفة الوحدة السكنية وملائمتها لدخول المواطنين.

المهندس رياض كتاب/ من مهندسي وزارة الاعمار والإسكان- شركة آشور

في مداخلته أشار المهندس رياض كتاب الى انه كان يأمل أن يبادر المسؤولون الكبار في دوائر الدولة الى أن يعرضوا مقترحاتهم المهمة والعملية التي يذكرونها الآن وفي هذه الجلسة على أولي الأمر حيثما كانوا في سدة المسؤولية.

وهنا طلب د. صبحي الجميلي عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي التعقيب مشيرا الى أن الهدف من مثل هذه الندوات التي تناقش أمورا هامة وأزمات تحيق ببلدنا هو معرفة ماهية المشكلة والطرق الكفيلة بحلها بما ينبه ويساعد المسؤولين على اتخاذ الإجراءات الكفيلة للحل وليس الموضوع شخصنة ومحاولة تحميل وزر المشكلة لشخص معين، علما أن موضوع السكن يتحدد بسياسة الدولة العامة ولا يتوقف على جهود شخص معين كونه مديراً عاماً أو أي منصب آخر.

د. موفق الطائي/ خبير أسكان ومهندس معماري

بعد ذلك جاء دور خبير الإسكان المهندس المعماري موفق الطائي فتوجه بالشكر لمنظمي هذه الطاولة على أتاحتهم الفرصة للحديث حول هذا الموضوع الشائك والذي يهم شعبنا بكامله وبكل طبقاته وفئاته. وأضاف، انه وبحكم عمله المستمر في مجال الإسكان لعشرات السنين يود أن يبين أن أهم مقومات سياسات الإسكان هو التصدي لمشكلة إنسانية ضرورية تأتي بعد الطعام، وهي تامين السكن للعناصر المهمشة والتي تثبت الإحصائيات بأنها تشكل 24٪ من الشعب العراقي والذين دون خط الفقر من هؤلاء 11٪ من هم دون حد الكفاف، وهولاء بحاجة الى ما يسمى بـ"سكن الطوارئ" الذي لم يتصدَ المخطط الإسكاني العام الذي قدم أخيرا من قبل وزارة الإسكان والتعمير ومنظمة المستوطنات البشرية التابعة للأمم المتحدة (هابيتات). هذا في الوقت الذي قامت مؤسسة الإسكان بكتابها المرقم 1– 3283 بتاريخ 2007/7/4 بتقديم هذه المطالب كجزء مهم من الدراسة المستقبلية لمخطط الإسكان العام وقد أهملته الدراسة الأخيرة، وهذا بالطبع يقف بالضد من كل قوانين وأعراف حقوق الإنسان. وأضاف الدكتور الطائي إن ما جاء في هذا التقرير من ضرورة جعل الاستثمار في الإسكان ذي جدوى اقتصادية جيدة وهذا شيء ايجابي، لكن هذا رهن السيطرة الحكومية الضرورية على المضاربات الاحتكارية في سوق السكن والتي لم يشر لها التقرير، وهذا هو جزء من الاتجاه الاقتصادي غير المنضبط الذي وسم التقرير بكاملة.

لعل أهم سمة سلبية في تنفيذ سياسات الإسكان في العراق هو العمل والمطالبة بجعل مؤسسات الإسكان مجرد مجهز لسوق السكان. وهنا أكد د.موفق على أن دور الدولة هو تهيئة بيئة الإسكان من معايير وقوانين ودراسات وضوابط وتصاميم ومن قبل مختصين في الإسكان سبق لهم وان عملوا في هذا المجال وليس في مجال التنفيذ فقط. وهنا أشار د.الطائي الى انه لأمر مؤسف أن يمنع قانون المؤسسة العامة للإسكان المؤسسة من التصميم كما أن هناك عداءً كاملاً لمفهوم الإسكان كعملية اجتماعية وسياسية واقتصادية تخطيطية. وهذا أدى الى تعمد تام بإبعاد المتخصصين من كافة تخصصات الإسكان المتنوعة من مناصب القرار الأساسية " المرء عدو ما جهل " وكأن عملية السكن مجرد مقاولات إنشائية من طابوق وكونكريت وليس بناء مجتمعات عيش سكنية إنسانية وهذا جعل فعاليات الإسكان مجرد مواد صماء، لذا فمن المناسب – بحسب د.الطائي– تركيز الدولة على تهيئة بيئة الإسكان وترك دورها كمجهز لسوق السكن فقط. ومن جهة أخرى توقف د. موفق الطائي عند مفردتين يرى أنهما غير مرغوبتين في مجال الإسكان وهما:

– الأولى إسكان ذوي الدخل المحدود، حيث يضحى الإسكان عملية طبقية تقف بالضد من الإسكان المتكامل وقد تحل مشكلة لكنها تخلق مشاكل أخرى. وقد استعيض عنها عالميا بتصميم وحدة البناء تنجز وحدة أساسية ويضاف لها وحدات أخرى لتصل الى مستوى الإسكان القياسي أو الإسكان المدعوم الذي كان يشكل 50٪ من الإسكان في العراق.

– والثانية بناء واطئ الكلفة، الذي تعني إسكان دون مستوى القياسي وهذا يضع البشر بمصاف الحيوانات. والمفردة المناسبة لها هي إسكان بكلفة أوطأ وهذا يعني ترشيد فعاليات الإسكان واستخدام المواد لأقصى طاقاتها دونما تجاوز الشروط القياسية للسكن وهذا مالم يشير إليه التقرير رغم وجود أرقى التجارب العالمية في العراق لهذا النمط من الإسكان.

واستطر د. الطائي في حديثه بالقول انه لقد سبق وان حددت المؤسسة العامة للإسكان (عندما كان الدكتور باسم الأنصاري مديرا عاما لهذه المؤسسة) الأسس الرئيسة لدور الدولة وكما يلي:

– الإجراءات التنظيمية والتخطيطية، وهي التشريع والسيطرة والإشراف والتنسيق والتشكيلات الإدارية مع اعتماد نظام متابعة مهام الإسكان وتنفيذ البرامج الضرورية وفق الظروف المستجدة ضمن مفهوم التنمية المستدامة في الإسكان والتي أهملت الدراسة الأخيرة هذا المفهوم بالكامل.

– وضع الهيكل الاقتصادي والمالي لنظام التمويل الإسكاني (غير الرأسمالي جدا كما جاء في التقرير الأخير) وتحفيز وتحريك نشاطات المواطنين لتنفيذ الوحدات بالجهد الذاتي أو السكن الاجتماعي المدعوم أو أسلوب وحدات البناء أو اعتماد العمارة المحلية، وهذه الأنواع من أنماط التمويل تختلف عن غيرها من أنماط السكن حيث لم يتم التطرق إليها في التقرير رغم وجود تجارب سابقة عراقية رائدة على مستوى الدول العربية والعالمية.

– تحديد مؤشرات وآليات لتطوير صناعة البناء التقليدية أو المرشدة، وضخ الاستثمار

باتجاه تحديث المعامل القائمة واستخدام التقنيات المتقدمة مع ربط هذا الإنتاج بالجدوى الاقتصادية للمشاريع السكنية اعتمادا على التغذية المرتدة من المشاريع السابقة. كما يجب استخدام المواد المحلية قدر الإمكان ورفع كفاءتها الى مستوى المواد ذات المواصفات العالية واعتماد التجارب المتطورة جدا والتي أثبتت نجاحاتها في العراق ثم أهملت مع الأسف. علما أن الدراسة الأخيرة لم تشر لهذا الكم الواسع من مواد البناء الرائدة التي قام بها العراق والذي عقدت على أديمه في حينها أعلى المؤتمرات العالمية في مجال مواد البناء.

– لقد أثبتت سياسيات حيازة وتهيئة الأرض وتوزيعها فشلها الذريع مما أدى الى ترك الأراضي دون بناء، وجعل معظمها جزءاً من الاحتكارات العقارية. وهذا يستوجب وضع مؤشرات وأحكام لتنظيمها وفق المخططات الأساسية للمراكز الحضرية التي استكملت الآن (والتي لم يشر لها التقرير لا من قريب ولا من بعيد) وتقسيم الأرض وفق سياسة عمرانية واضحة بعيدة عن المحسوبية في توزيع الأرض، كما هو سائد الآن، وتحديد معايير المناطق السكنية والتنمية (والتي تجاهلها التقرير بالكامل)، وتغير مفهوم الوحدة السكنية للعائلة وجعل ضوابط البيوت مشابهة للشقق السكنية من حيث المساحة والاستخدام.

– تهيئة الموارد البشرية من المهندسين والعمال، وإعداد التدريبات المناسبة لتدريب كوادر الإسكان وبيان السبل المتاحة لجذب الأشخاص للعمل في مجال البناء الإسكاني وقد حددت المذكرة ممثل الإسكان لتنفيذ هذه المتطلبات وكنت حينها أنا.

إن من الغريب جدا أن نجد دراسة لا تشير الى سابقاتها سلبا أو إيجابا وخصوصا دراسات (دوق سيادس) ودراسة (بول سيرفس) اللذان يعتبران من أرقى الدراسات العالمية. ويمكننا القول أن تحديث دراسة (بول سيرفس) للمخطط العام للسكن كان أكثر من كافٍ لحل مشكلة الإسكان. علما أنني اجهل كيف يتم وضع سياسات الإسكان الوطنية دون التعداد السكاني؟ أليس من المناسب الانتظار لحين إعلان النتائج للتعداد وإلا لمن يجرى التعداد ياترى؟ واختتم د. موفق الطائي حديثه بالقول " أن هذه الملاحظات لا تقلل من الجهد والعمل العلمي الذي أنجز، نأمل أن تؤخذ ملاحظاتنا لتعزيز الجهد الحثيث في مجال الإسكان الذي لا يميز بين المواطنة وحق السكن ".

المهندس قحطان جهاد علي/ التجمع الهندسي لدعم الاعمار

بعد ذلك قدم المهندس قحطان جهاد مداخلة وافية عن التجمعات السكنية العشوائية والمناطق السكنية غير المطابقة لتصاميم المدن الحديثة في مدينة بغداد، مشيرا الى انه ومن خلال عمله في وزارة الاعمار والإسكان اطلع بشكل مكثف على حالة السكن العشوائي في بغداد. ولغرض إطلاع الزملاء الحضور ولأهمية الموضوع وعلاقته بالسكن الملائم اللائق طلب المهندس جهاد علي من الحضور السماح له بتقديم هذه المداخلة التفصيلية عن التجمعات السكنية العشوائية:

إن ظاهرة نمو العشوائيات في المدن نشأة حيث أن المدن تعتبر مركز جذب للأفراد والتجمعات والنازحين من الأرياف والمدن الأصغر. وتطور المدن ومواكبتها للتحديث

يفرز مناطق سكنية تعتبر غير مطابقة لمعايير الإسكان الحديثة. وفي هذه المداخلة أود إلقاء الضوء على هذا الموضوع ونناقش الحالتين في مدينة بغداد.

مقاربة تاريخية

منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة عام 1921بدأت العاصمة بغداد تستقبل أنواعاً من الوافدين وكما يلي:

– أصحاب رؤوس الأموال من المحافظات والأقضية والنواحي حيث جذبتهم كمركز حضري. وبحسب القدرة المادية المتوفرة لهم تسنى لهم شراء أو وضع اليد على مساحات من الأراضي المتاخمة لمركز المدينة القديمة (باب المعظم، الكرخ، الباب الشرقي، الكاظمية). ولغرض الاستثمار في هذه الأراضي تم نقل أفراد وحتى قبائل من خارج بغداد وجرى إسكانهم في هذه الأراضي.

– هجرة الأفراد من باقي مناطق العراق وسكنهم في المناطق القريبة من المدينة، وبمرور الوقت نشأت تجمعات عشوائية منها على سبيل المثال: (الصرائف شرقي بغداد والتي أصبحت بعد ذلك مدينة الثورة).

– وهناك هجرات لا تشكل نسبة عالية مثل هجرة الأكراد والاثوريين من مناطق القتال في شمال العراق وهجرة الأرمن من أرمينيا واستقرارهم في بغداد.

ولم تشكل هذه التجمعات مشكلة لمدينة بغداد حيث كانت الحاجة لليد العاملة والحركة الاقتصادية نشطة وتسمح باستيعاب السكان الجدد. غير انه لم يخطط بشكل علمي في طريقة إسكان هذه التجمعات وتوسعة بغداد بدون تخطيط علمي، وأصبحت هذه التجمعات جزء من البنية الأساسية للمدينة، وبقيت هذه المناطق العشوائية تتوسع وتدخل ضمن حدود مدينة بغداد.

ورثت مدينة بغداد الحديثة محلات بغداد القديمة التي كانت إنموذجاً للمحلات في القرن 19 حيث لم يكن هناك وجود لتصميم حديث للمناطق السكنية. وأصبحت هذه المحلات هي مركز بغداد وبدأت قيمتها المادية ترتفع مع نمو المدينة حيث نلاحظ أن الدولة كانت تنفق مبالغ كبيرة في سبيل تعويض أصحاب هذه الممتلكات في حال الحاجة لإنشاء شوارع أو أبنية خدمية، لازال جزء كبير من هذه المحلات موجوداً في مركز المدينة.

خلال الفترة من 1921 الى 1950 لم تؤشر أزمة سكن واضحة غير انه خلال الفترة من 1950 الى 1958 وبسبب توسع الطبقة المتوسطة من المجتمع واندماج التجمعات العشوائية في مجتمع المدينة ظهرت مشكلة إسكان غير أنها لم تكن كبيرة وكانت هناك مساهمات حكومية وفردية في إنشاء دور للسكن. غير أن المشكلة التي لم تؤخذ بنظر الاعتبار هي تأمين البنى التحتية الأساسية (ماء – كهرباء– صرف صحي – وسطحي) حيث لم تكن هناك مطالبة مجتمعية لهذه المتطلبات وذلك لان غالبية الوافدين من مناطق تفتقر لمثل هذه المتطلبات.

أما خلال الفترة 1985– 1963 فقد تنبهت الدولة الى موضوعة الإسكان حيث قامت بإنشاء 65000 وحدة سكنية كان نصيب مدينة بغداد منها حوالي 10000 وحدة سكنية، ويعتبر هذا الرقم كبيراً جدا في ذلك الوقت حيث لم يتجاوز سكان مدينة بغداد

في حينه المليون نسمة. وأنجزت الدولة مشاريع بنى تحتية (ماء –كهرباء– صرف صحي وسطحي)، وكمثال بارز تم إنشاء قناة الجيش لغرض تصريف المياه السطحية ومياه البزل من مدينة بغداد. والخطوة الأهم كانت إعادة تنظيم السكن للتجمعات العشوائية والتي كانت قائمة أساسا حيث تم بناء مدينة الثورة والشعلة بمواصفات إسكان مقبولة قياسا لمستوى الإسكان في العراق في ذلك الوقت.

وبالمقابل فانه وخلال الفترة من 1963 الى 1980 تم معالجة موضوعة الإسكان بتوزيع الأراضي والتسليف العقاري مما أدى الى توسيع مدينة بغداد بشكل أفقي وبالتالي تنامي الحاجة الكبيرة لخدمات البنى التحتية.

أما فيما يخص الفترة من 1980 ولغاية الوقت الحالي، فانه وبسبب الظروف السياسية والاقتصادية بدأت مشكلة الإسكان بالتفاقم، وبقيت الكثير من العوائل لا تمتلك وحدة سكنية، وغالبا ما بقيت تسكن في نفس الوحدة السكنية. وفي الوقت نفسه نشأة تجمعات عشوائية كبيرة إضافية داخل وخارج حدود مدينة بغداد.

وكما أسلفنا سابقا فان محلات بغداد القديمة وغير المطابقة لمعايير الإسكان الحديثة ما زالت قائمة وازداد تعداد شاغليها ودخلت محلات سكن إضافية لهذا النمط نتيجة لتطور المجتمع والنشاطات الاقتصادية في تلك التجمعات.

وبعد التغيير الذي حصل عام 2003 أضيفت مشكلة جديدة إلا وهي التجمعات العشوائية في داخل بغداد. وهذا النوع من التجمعات يعتبر حالة استثنائية لا مجال لتركها بدون حل جذري لان استمرارها لا يخلق مشكلة إسكان فقط وإنما يؤسس لمشاكل اكبر ويكون سابقة يمكن أن تتكرر وتكون سياقا في طبيعة المجتمع. لذا نؤكد مرة أخرى بوجوب أن تكون معالجة هذا الموضوع من الأولويات المهمة.

وخلاصة البحث نشير الى وجود أربع حالات من التجمعات السكانية العشوائية الواجب مناقشة موضوعها ووضع الحلول والإجراءات القانونية والإنسانية لغرض معالجتها وهذا يشمل موضوع الإسكان بشكل عام:

1- المجمعات العشوائية خارج حدود مدينة بغداد.

2- محلات بغداد القديمة في مركز العاصمة والمجمعات السكنية التي أضحت لا تتطابق ومعايير الإسكان الحديثة.

3- المجمعات العشوائية داخل حدود مدينة بغداد.

4- المجمعات السكنية التي نشأت بسبب الظروف بعد التغيير عام 2003

إن معالجة هذه المواضيع لا يمكن إلا من خلال إجراء دراسات علمية رصينة يشترك فيها متخصصون في عدة مجالات من مهندسين وأساتذة اجتماع وقانونيين وسياسيين واقتصاديين وتخطيط، لتغطية الموضوع من كافة الجوانب.

ونحن كمهندسين لدينا رؤية فنية تسهم في حل موضوعة الإسكان تتلخص في النقاط التالية:

– إنشاء مجمعات سكنية في مواقع النشاط الاقتصادي تسهم في حل مشكلة الإسكان وكذلك تخفف من وطأة الضغط على المدن، وعلى سبيل المثال بناء مجمعات سكنية قرب المعامل وتشجيع معامل القطاع الخاص

بإنشاء دور سكن قرب نشاطهم الاقتصادي.

– نقل النشاطات التجارية والصناعية والخدمية خارج حدود أمانة بغداد مع إنشاء مجمعات سكن قرب هذه النشاطات (ورش التصليح، المجمعات التجارية.... الخ)

– إعادة تأهيل وإنشاء معامل المواد الأولية الخاصة بالبناء (معمل الاسمنت والحديد والطابوق والبلوك وغيرها).

– إجراء مسح والبحث عن مقالع الركام الناعم والخشن والحصى الخابط، والتأكد من مطابقتها للمواصفات الفنية، وإنشاء طرق المواصلات التي تربطها بالطرق الرئيسة.

– تنظيم نقابات وجمعيات تنظم عمل وحقوق العاملين في نشاط البناء.

– إعادة العمل بالنشاط التعاوني مع الأخذ بنظر الاعتبار التطور الحاصل في مفاهيم هذا النشاط، وقيام الدولة بدعم هذا النشاط من خلال تهيئة البنى التحتية وتسهيل القروض لهذه التعاونيات وإطفاء جزء من هذه القروض إذا دعت الحاجة.

– إنشاء معاهد تدريب لتهيئة فنيي البناء تقوم بتدريبهم ولكافة اختصاصات البناء (المقصود هنا تهيئة طبقة من الحرفيين الماهرين).

– تسهيل دخول الآليات والمعدات اللازمة لأعمال البناء وتدريب السواق والمشغلين.

– الاستفادة من تكنولوجيا البناء الحديث، والاستفادة من تجارب دول العالم في مجال الإسكان.

الأستاذ وهاب المرعب/ احد الكوادر الهندسية

في وزارة الاعمار والإسكان سابقا

ابتدأ المهندس وهاب المرعب حديثه بالإشارة الى انه ولغرض حل مشكلة الإسكان وأزمته هناك نظرتان سياسيتان أو توجهان:

احدهما النظرة الاشتراكية التي تغلب القطاع العام كوسيلة لحل مشكلة اجتماعية كبيرة، والثانية النظرة الرأسمالية الربحية. وانطلاقا من ذلك يستنتج الأستاذ المرعب ان سياسة الدولة العراقية تعاني من تشوش فيما يتعلق بالسياسة الإسكانية حيث أنها غير واضحة المعالم.

ويواصل حديثه قائلا انه ونظرا لتوجه الدولة الجديدة بشكل عام نحو القطاع الخاص فعليه يرى أن يحسم الموضوع لصالح القطاع الخاص.

وبموجب ذلك يجب أن تتم المعالجة لموضوع السكن بشكل جذري، وضرورة تحديد سياسة السكن من كافة الأوجه وخاصة الجوانب التشريعية والقانونية لضمان حل هذه الأزمة.

ولان الحروب في العهد المباد قد أدت الى حصول انقطاع في عملية التدريب المجتمعي في مجال الحرف المختلفة، ولوجود نقص هائل في الكوادر الخاصة بأعمال البناء فان الأمر يتطلب إعداد البرامج الخاصة وتأسيس المعاهد المتخصصة لإعداد مثل هذه الكوادر.

وهنا يبرز دور وزارة العمل والشؤون الاجتماعية التي لديها الإمكانية لتأسيس مثل هذه المعاهد ويمكنها التعاون مع شركات القطاع العام والخاص والمختلط وانجاز هذه المهمة.

كما يجب معالجة مشكلة عدم استغلال الأراضي المخدومة بشكل امثل وذلك بزيادة عدد طوابق البنايات السكنية. واختتم المهندس وهاب المرعب حديثه بالقول:

" أن مشكلة السكن ليست في التمويل ولكن في عدم وجود نظام إدارة جيد، وعدم وجود تشريعات وتسهيلات في هذا المجال.

وأود الإشارة هنا الى أن مجموع الوحدات السكينة التي تقوم الدولة ببنائها حاليا لا تزيد عن عشرين ألف وحده سكنية بينما حاجة البلاد الفعلية تقدر بأكثر من مليوني وحده سكنية ".

الأستاذ المهندس زهير صبري/
معاون مدير عام
في وزارة الاعمار والإسكان

استهل المهندس زهير صبري حديثه بالقول أن الدراسة المعدة من قبل وزارة الاعمار والإسكان، والتي قدم الأستاذ الدكتور مظفر الجابري مشكورا شرحاً موجزا لها، تعد دراسة جيدة تم وضعها بالاعتماد على كوادر فنية وبمساعدة الأمم المتحدة ويمكن أن تكون خارطة طريق لحل مشكلة السكن.

وحول عدم وضوح ماورد في الدستور حول السكن اللائق فان الأستاذ صبري يؤيد ماتؤاخذ عليه خطة الإسكان في عدم إيلائها لعملية التنفيذ الأهمية التي تستحقها وأكد هنا على أهمية توفر الإراده السياسية لحل مشكلة وأزمة السكن. ومن جانب آخر أشار المهندس زهير صيري الى انه يؤكد على أن المعلومات الإحصائية الخاصة بالإسكان هي غير حقيقة وغير علمية ولا تستند الى أساس إحصائي علمي، كما يؤكد أيضا أن القيادات القديمة في الدولة لازالت تقود وهي غير جادة في حل مشكلة السكن، كما أثنى على الرأي القائل بعدم توفر إرادة سياسية لحل مشكلة السكن.

المهندس إحسان علي حيدر/ مهندس
في وزارة التربية

من جهته انتقد المهندس إحسان علي حيدر إنشاء تجمعات سكنية ذات عدد كبير من الوحدات في مساحة محدودة، كما يشاع عن إنشاء نصف مليون وحده سكنية في معسكر الرشيد مما سيؤدي الى ظهور مناطق سكنية مشابهة لمدينة الثورة من حيث عدد السكان الكبير وصعوبة توفير الخدمات لهذه الكثافة السكانية.

المهندس حسان الصفار/ رجل أعمال

أثنى المهندس حسان الصفار على ماذكره المتحدثون الذين سبقوه وأكد على ضرورة توفر الإرادة السياسية لحل مشكلة السكن، مشيرا الى انه ورغم توفر الموارد المالية العالية للدولة بعد عام2003 إلا انه لم يتم تنفيذ وإنشاء ولو عددا بسيطا من الوحدات السكنية. في حين نرى وانه وبالرغم من الموارد المالية الضعيفة جدا لدى حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم وخلال الأربع سنوات من 14تموز 1958 ولحين إجهاض التجربة الديمقراطية في انقلاب 8 شباط الأسود 1963 الدموي، قامت حكومة الثورة بتوزيع الأراضي شرق القناة وأقامت مدينة الثورة لسكان الصرائف في منطقة الرصافة، وفي مدينة الشعلة لسكان صرائف منطقة الكرخ. وكان الزعيم عبد الكريم قاسم ووزيرة البلديات الراحلة نزيهة الدليمي يشرفان شخصيا على تنفيذ وتوزيع الأراضي تلك مما يعني أن هناك إراده سياسية قيادية تبغي حل مشكلة السكن بما يؤمن نقلة حضارية في حياة الشعب العراقي.

وفي ختام حديثه أكد المهندس إحسان الصفار على ضرورة مواكبة التطور العالمي في تصنيع واستخدام مواد البناء بما يضمن تنفيذ المشاريع الإسكانية بالسرعة المطلوبة.

المهندس عبداللّه ضاري العامري/ رجل أعمال ومن مؤسسي نقابة المهندسين

أشار المهندس الضاري الى انه يجد أن هناك تفاؤلا كبيرا من قبل هيئة الاستثمار حول إمكانية بناء مليون وحدة سكنية خلال فترة قصيرة نسبيا دون الالتفات الى صعوبة توفير المواد الأولية اللازمة لبناء مثل هذا العدد من الوحدات السكنية. فليس واقعيا مثلا استيراد مادة الطابوق أو الاسمنت من خارج العراق لتنفيذ هذا العدد، وإنما يتطلب الأمر إمعان النظر في تأهيل وتأسيس المعامل المنتجة للمواد الإنشائية عند التفكير في انجاز بناء مثل هذا العدد من الوحدات السكينة.

المهندس احمد عبد الرضا/ وزارة الصناعة – المؤسسة العامة للصناعات الدوائية

في بداية تدخله أشار المهندس احمد عبد الرضا الى انه ومن خلال متابعته لما قدمه الزملاء الذين سبقوه في الحديث من طروحات لم يجد من يتطرق الى ماقدمته الجمعيات التعاونية لتوزيع الأراضي وبناء المساكن والتي اعتمدت بعد ثورة 14تموز 1958 لقد ساهمت هذه الجمعيات في حينه في تقديم خدمة كبيرة لقطاع كبير من الموظفين والعمال وبدعم من حكومة الثورة حيث وزعت آلاف قطع الأراضي على شريحة كبيرة من المجتمع معززة بالتسليف العقاري ما مكن هؤلاء المواطنين من بناء مساكن كانت تعتبر لائقة في حينه، كما تأسست مدن ومحلات سكنية كبيرة. لقد توقف هذا النشاط التعاوني بعد أن أجهضت ثورة تموز، أو انحسر بشكل كبير مما فاقم مشكلة السكن التي نبحث طوق معالجتها في ندوتنا هذه. واختتم المهندس عبد الرضا حديثه بالقول: "إنني و بهذه المناسبة أدعو الى العودة الى هذا النشاط التعاوني كمخرج سليم ومجرب لحل الأزمة التي نحن بصددها وذلك بتشكيل جمعيات تعاونية لأصحاب المهن والنقابات من الموظفين والعمال والقوى الأمنية وغيرها من شرائح المجتمع".

كفاح محمد مصطفى/ مهندس متقاعد

في تدخله، رأى الأستاذ كفاح محمد مصطفى ضرورة فرز المساحات الصغيرة من الأراضي السكنية مما يفسح المجال لذوي الدخل المحدود والشريحة الفقيرة التي تشكل غالبية الشعب العراقي من الاستفادة من قروض المصرف العقاري وغيره.

الدكتور حسان عاكف عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

كان الدكتور حسان عاكف عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي هو المتحدث الأخير حيث عبر في البداية عن سروره لما طرح من معلومات إضافة الى النقاشات والمقترحات التي قدمها الأخوة من المختصين في مجال الإسكان لمعالجة الأزمة التي تتفاقم يوما بعد يوم. وأضاف انه، واستكمالا للحديث، يود الإشارة الى ثلاثة مفاصل أساسية حول مشكلة السكن ظهرت

من خلال مادار من نقاش في هذه الندوة:

– أولا ما أشار إليه الدستور حول حق المواطن والاسرة في السكن المناسب واللائق.

– وثانيا أن الدولة متوجهة لحل مشكلة السكن من خلال القطاع الخاص أكثر من توجهها نحو القطاع العام وهذا حاصل بسبب طبيعة التوجه العام للدولة.

– وثالثا عجز الدولة عن حل مشكلة السكن من خلال مؤسساتها أي الشركات الحكومية وبشأن التوجه العام نحو القاع الخاص والمعني به بشكل رئيس الشركات الأجنبية.

السؤال المطروح اليوم أن قضية أزمة السكن تعاني منها الطبقات الفقيرة أكثر مما تعاني منها الطبقة المتوسطة فهل مشاريع الاستثمار والتي أساسها الربح قادرة على حل هذه الأزمة لصالح الطبقات الفقيرة؟ علما أن مواصفات السكن للطبقات الفقيرة اقل كلفة من تلك للطبقات الغنية مع العلم أن هذه الشركات تريد العمل ضمن شروطها والتي تقود الى أعلى ربحية. وعليه فان تنفيذ المساكن الشعبية لا يجذب رؤوس الأموال. وفي آخر تقرير مقدم من قبل هيئة الاستثمار جرت الإشارة الى ما يلي:

– لم يباشر بأي من العقود التي تم الاتفاق عليها والتي تشمل 36٪ للسكن 28٪ للمشاريع الصناعية و 14٪ أخرى، حيث لم يباشر العمل في مدينة الرشيد في معسكر الرشيد ولا مدينة ضفاف كربلاء ولا مدينة المستقبل في بغداد. إن هيئة الاستثمار تتحدث عن مساحات للشقق 100 م و 120 م مربع وعدده الكلي مليون شقة.

وقد ورد وجود تقاطعات بين هيئة الاستثمار والشركات المستثمرة وخاصة في مجال امتلاك الأراضي التي تقام عليها مشاريع البناء.

فالمستثمرون الأجانب يطالبون بانضمام العراق الى مؤتمر واشنطن لحل النزاعات الخاصة بهذه المشاريع، بينما الدولة العراقية انه وبموجب القانون العراقي يجب أن تحل المشاكل بينها وبين الشركات من خلال القضاء العراقي.

وفي نهاية الندوة شكر المشرفون على إعدادها وإدارتها السادة الحضور على مداخلاتهم القيمة في مجال حل أزمة السكن وكذلك التعهد بالترويج للحلول التي طرحت في الندوة بكافة السبل الممكنة وخاصة في أوساط صناع القرار في الدولة، متمنين الاستمرار في عقد هذه الندوات مستقبلا.

* نظمت هذه الطاولة المستديرة محلية المثقفين في الحزب الشيوعي العراقي والتي قامت بإعداد هذه الخلاصة وخصّت بها مجلة (الثقافة الجديدة).

نصوص
قديمة

إعادة الإنتاج الموسعة للطبقات الاجتماعية *

نيكوس بولانتزاس ❖❖

توجد الطبقات الاجتماعية فقط في الصراع الطبقي الذي له بعد تاريخي وديناميكي. ولا يمكن تعيينها كطبقات وشرائح ومراتب وفئات إلا بوضعها في السياق التاريخي لهذا الصراع، وهذا ما يبرز للتو إشكالية إعادة إنتاج هؤلاء

منذ زمن وبعضنا يحلل المسألة الهامة حول إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية، وكما سيلاحظ القارئ، فان المسألة لا يمكن الإحاطة بكل تضميناتها بشكل سليم إلا من خلال إشكالية الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي (.....). ولقد أكدنا بموازاة تحليلنا لسلطة الدولة احد الأدوار الحاسمة لأجهزة الدولة (وبالتخصيص أجهزة الدولة الإيديولوجية)، واعني الدور الذي تلعبه في إعادة إنتاج الطبقات الاجتماعية، إني لا انوي في هذه الملاحظات النهائية أن أعود الى هذه المسألة من جديد بل سأحاول بالمقابل أن اشرح بعض مظاهرها وأحذر من بعض إساءات التأويل التي قد تحدث، وسيكون مثالي المعتمد **دور الجهاز التعليمي في إعادة إنتاج الطبقات الاجتماعية**.

إن أجهزة الدولة، ومن ضمنها المدرسة بوصفها جهازا إيديولوجيا، لا تخلق انقساما طبقيا ولكنها تسهم فيه، وهكذا تسهم في إعادة إنتاجه الموسعة، ومن الضروري هنا إيضاح كل تضمينات هذا الافتراض. ليست أجهزة الدولة مشروطة بعلاقات الإنتاج فقط، وإنما هي (الأجهزة) لا تسيطر عليها أيضا بعكس ادعاء التقليد القانوني بكليته. وبالمقابل فان الصراع الطبقي في كل مستوياته هو الذي يسيطر على كافة الأجهزة. إن الدور المحدد للأجهزة الإيديولوجية في إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية (بما فيها علاقات الإنتاج الاجتماعية) هو بالواقع ذو أهمية قصوى. إذ أن عملية إعادة إنتاجها تسيطر على عملية إعادة الإنتاج ككل، وبالتحديد، إعادة إنتاج قوة العمل ووسائل العمل، هذه هي نتيجة من نتائج كون الارتباط التكويني بين علاقات الإنتاج وعلاقات السيطرة/الخضوع السياسية والإيديولوجية غالبا على العمل من خلال عملية الإنتاج.

إعادة إنتاج المراكز وإعادة إنتاج الوسطاء

إن إعادة الإنتاج الموسعة للطبقات الاجتماعية (للعلاقات الاجتماعية) يستلزم تطابق وجهين

بحيث لا يتواجد احدهما بمعزل عن الآخر.

الأول، ثمة إعادة إنتاج **موسعة للمراكز التي يحتلها الوسطاء**، وتجلو هذه المراكز التحديد البنيوي للطبقات، أي الطريقة التي من خلالها يعمل التحديد على ضوء البنية (علاقات الإنتاج، علاقات السيطرة/الخضوع السياسية والإيديولوجية) في الممارسة الطبقية.

إن الطريقة التي على ضوئها تعيّن الطبقات تتحكم أيضا بالطريقة التي على ضوئها يعاد إنتاجها. وبكلمات أخرى وكما أكد ماركس، فان وجود نمط الإنتاج الذي يضم البرجوازية والبروليتاريا، يستسيغ إعادة الإنتاج الموسعة لهاتين الطبقتين.

ثانيا، هناك **إعادة إنتاج الوسطاء أنفسهم وتوزيعهم على هذه المراكز**. هذا الوجه من إعادة الإنتاج والذي يعين الذين يحتلون مراكز معينة، أي، من هم؟ أو من الذين سيصيرون برجوازيين وبروليتاريين وبرجوازيين صغارا وفلاحين فقراء الخ؟ وكيف ومتى يصبحون؟ وهو (أي الوجه الثاني) خاضع للوجه الأول: إعادة إنتاج المراكز الفعلية التي تحتلها الطبقات الاجتماعية –أي انه خاضع لحقيقة أن الرأسمالية في إعادة إنتاجها الموسعة تعيد إنتاج البرجوازية والبروليتاريا والبرجوازية الصغيرة بشكل جديد في طورها الاحتكاري المعاصر، أو هو خاضع لحقيقة كون الرأسمالية تنزع لإزالة طبقات وشرائح طبقية معينة ضمن التشكيلات الاجتماعية حيث يتخذ إعادة إنتاجها الموسع مجراه (مثلا، الفلاحون الصغار، البرجوازية الصغرى... الخ). وبكلمات أخرى، في حين يصح القول أن الوسطاء أنفسهم سيعاد إنتاجهم – "تدريبهم" و "إذعانهم" كي يحتلوا مراكز معينة، فمن الصحيح أيضا أن توزيع الوسطاء لا يعتمد على اختياراتهم أو طموحاتهم بل على مجرد إعادة إنتاج هذه الوظائف. وما يهم تأكيده أن التمييز بين وجهي إعادة الإنتاج (إعادة إنتاج المراكز وإعادة إنتاج الوسطاء) لا يتطابق مع التمييز بين إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية وإعادة إنتاج قوة العمل. هذان الوجهان هما ركيزتا طاقم إعادة الإنتاج حيث تكون السيطرة لإعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية التي نبحثها، ولكن في طاقم إعادة الإنتاج – بما فيه إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية – تحتل عملية إعادة إنتاج المراكز الوجه الرئيس.

إن لأجهزة الدولة، بما فيها المدرسة كجهاز إيديولوجي، أدوارا مختلفة تبعا لاختلاف وجهي إعادة الإنتاج هذين. فليس التحديد البنيوي للطبقات محصورا بالمراكز فحسب في عملية الإنتاج، (أي بالموقع الاقتصادي " للطبقات في ذاتها ") ولكنه يمتد لكافة مستويات تقسيم العمل الاجتماعي. وهكذا تدخل الأجهزة في عملية تحديد الطبقات، بوصفها تجسيدا للعلاقات الإيديولوجية –السياسية (السيطرة الإيديولوجية –السياسية). وبهذه الطريقة وعبر دورها في إعادة إنتاج العلاقات الإيديولوجية –السياسية، تدخل في إعادة إنتاج الوظائف التي تعرّف الطبقات الاجتماعية بها. ولذا فما يجب ذكره هنا هو أن دور البناء الفوقي ليس محصورا، كما يقال أحيانا، بإعادة الإنتاج فقط إلا بقدر ما يمكن حصر القاعدة بالإنتاج وإعادة إنتاج وسائل ومنتجات العمل، دورها يمتد، بالحقيقة، ليشمل إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية.

وكما في حال إعادة الإنتاج، فان دور

الأجهزة في إعادة الإنتاج لا يفهم إلا على ضوء دورها في التكوين الفعلي لنمط وعلاقات الإنتاج، أي دورها في الإنتاج الفعلي للعلاقات الاجتماعية.

وهكذا تتدخل أجهزة الدولة الإيديولوجية بفعالية في إعادة إنتاج المراكز التي تحتلها الطبقات الاجتماعية. ولكن إذا كان لنا ألا نتحدر الى مستوى وجهة النظر المثالية والقانونية حول العلاقات الاجتماعية والتي تنظر للطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي كنتاج للأجهزة، فعلينا الإقرار بأن هذا الوجه من إعادة الإنتاج هو ابعد من دور الأجهزة، وهو، عامة، خارج سيطرتها، لا بل انه، بالحقيقة، يعين لها حدودها.

نستطيع القول أن هناك إعادة إنتاج أساسية ورئيسة للطبقات الاجتماعية ضمن الصراع الطبقي ومن خلاله، حيث تسير إعادة الإنتاج الموسعة للبنية (بما فيها علاقات الإنتاج) وحيث يحكم (الصراع الطبقي) عمل ودور الأجهزة.

فلنأخذ مثلا نموذجيا عالميا، ليس وجود المدرسة فيما ينتجه من بروليتاريين وبرجوازيين صغار جدد هو الذي يقرر وجود وإعادة إنتاج (أي: زيادة ونقصان، إشكال معينة من التحديدات.... الخ) الطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة الجديدة. بل على العكس من ذلك فان علاقات الإنتاج والأشكال المعقدة من الملكية والتملك الاقتصاديين في عملية العمل، أي عملية الإنتاج المصاغة استنادا لاعتبارات العلاقات السياسية والإيديولوجية، وبالتالي فالصراع الطبقي الاقتصادي والسياسي والإيديولوجي هو الذي يجعل من المدرسة إحدى علاماته، وهذا يفسر كون عملية إعادة الإنتاج من خلال الأجهزة مشوبة بالصراعات والتناقضات والانقسامات الداخلية. وهكذا نستطيع فهم الجانب الآخر من السؤال: بمقدار مستوى ارتكاز إعادة الإنتاج الموسعة للطبقات الاجتماعية على الصراع الطبقي يكون تحولها الثوري.

وهكذا فان إعادة الإنتاج الرئيسة للطبقات الاجتماعية لا تقتصر على المراكز فحسب في علاقات الإنتاج، أي في علاقات الإنتاج الاجتماعية. إنها ليست "إعادة إنتاج ذاتية اقتصادية" للطبقات تقوم من فوق إعادة الإنتاج الإيديولوجي والسياسي عبر الأجهزة أو بشكل مضاد لها، إنها ليست اقل من إعادة إنتاج رئيسة ضمن الصراع الطبقي وبواسطته عبر كل مراحل التقسيم الاجتماعي للعمل.

إن إعادة إنتاج الطبقات الاجتماعية (شأنها في ذلك شأن تحديدها البنيوي) ذات صلة بعلاقات التقسيم الاجتماعي للعمل السياسية والإيديولوجية، ولهذه الأخيرة الدور الحاسم في علاقاتها بعلاقات الإنتاج الاجتماعية. والسبب في ذلك هو أن تقسيم العمل الاجتماعي نفسه ليس مرتبطا فحسب بالعلاقات السياسية والإيديولوجية، بل أيضا بعلاقات الإنتاج الاجتماعية حيث يكون له السيطرة على تقسيم العمل التقني. هذه إحدى نتائج كون علاقات الإنتاج مسيطرة على عملية العمل ضمن عملية الإنتاج. إن القول بان إعادة الإنتاج الرئيسة للطبقات الاجتماعية مرتكزة على الصراع الطبقي يعني أيضا أن أشكالها الملموسة تركز على تاريخ التشكيلة الاجتماعية، فأية إعادة إنتاج للبرجوازية، وللبرجوازية الصغيرة القديمة والجديدة، تركز على الصراع الطبقي في تلك التشكيلة. مثلا، إن شكل وسرعة إعادة إنتاج البرجوازية الصغيرة التقليدية والفلاحين

الصغار في ظل الرأسمالية في فرنسا يرتكزان على الصيغ النوعية لتحالفها الطويل الأمد مع البرجوازية. وهكذا فمن الممكن تحديد دور الأجهزة في عملية إعادة الإنتاج هذه على ضوء التحالف بين البرجوازية والبرجوازية الصغيرة، والذي شكل منذ زمن طويل إحدى ميزات التشكيلة الاجتماعية الفرنسية. أكثر من هذا، فرغم أن إعادة الإنتاج الموسعة للمراكز التي تحتلها الطبقات الاجتماعية "تستخدم " أجهزة الدولة الايديولوجية فهي ليست مقصورة عليها.

لنعد الآن الى تقسيم العمل الى ذهني ويدوي، هذا التقسيم الذي يحظى بدور في تحديد المراكز في التقسيم الاجتماعي للعمل، ليس مقصورا بأي حال على الحقل الاقتصادي، وعلينا أن نلاحظ انه في هذا الحقل لا يتمتع بأي دور ذاتي يلعبه في التقسيم الطبقي، طالما أن العمال المنتجين (البروليتاري) الذين ينتجون فائض القيمة/ السلع لا يعتبرون وحدهم عمالا يدويين، ولا يفهم التمييز بين العمل اليدوي والذهني إلا متى اتسع ليشمل العلاقات السياسية والإيديولوجية لـ:

أ- **التقسيم** الاجتماعي للعمل ضمن المشاريع حيث ترتبط السيطرة والإدارة في العمل بالعمل الذهني ونخبوية المعرفة.

ب- **طاقم** التقسيم الاجتماعي للعمل – العلاقات التي تسهم في تحديد المراكز التي تحتلها الطبقات الاجتماعية.

ولكن من الواضح انه لا المدرسة ولا أي جهاز إيديولوجي آخر هو الذي يخلق هذا التقسيم وليست (الأجهزة الإيديولوجية) العوامل الوحيدة أو الرئيسة في إعادة إنتاجه، ومن ثم فهي تدخل في إعادة الإنتاج (بشكله الرأسمالي) حيثما تظهر كإحدى ميزات التقسيم وإعادة إنتاجه ضمن الصراع الطبقي وبفعله.

وبكلمات أخرى، أن سبب إعادة إنتاج المدرسة للتقسيم بين العملين اليدوي والذهني ضمن نطاقها هو أنها بسبب طبيعتها الرأسمالية، أعطيت طابعا كونيا متناسبا مع مستلزمات التقسيم (وإعادة التقسيم) بين العملين اليدوي والذهني، وان إعادة إنتاج المدرسة كجهاز مشروطة وظيفيا بهذا التقسيم، وهذا التقسيم يتعدى نطاق المدرسة كما انه يعين لها دورها: إن فصل المدرسة عن الإنتاج مرتبط بانفصال المنتج المباشر عن وسائل الإنتاج وافتقاره لها.

عند الحديث عن أجهزة الدولة، علينا أن نتذكر أن هذه الأجهزة لا تخلق الايديولوجيا وهي لا تشكل حتى العوامل الوحيدة أو الرئيسة في إعادة إنتاج علاقات السيطرة/ الخضوع الإيديولوجية. **إن الأجهزة الإيديولوجية تعمل فقط على تحديث وغرس الايديولوجيا السائدة**، لذا فان (**ماكس ويبر**) قد اخطأ حين ادعى أن الكنيسة تخلق وتؤبد الدين. بالمقابل، فان الدين هو الذي يخلق الكنيسة ويؤبدها.

في حالة العلاقات الرأسمالية الإيديولوجية، حين يحلل ماركس "**تشيؤ**" السلع في ارتباطها المباشر بعملية تثبيت رأس المال (تحويله الى رأس مال ثابت) يقدم لنا مثلا ممتازا عن إعادة إنتاج الايديولوجيا المسيطرة التي تتعدى نطاق الأجهزة. وهذا ما لاحظه ماركس في استشهاداته المتعددة بالشبه الذي يتضمن التمايز بين "المؤسسات" و"أشكال الوعي الاجتماعي". وهكذا فدور الايديولوجيا والسياسة في إعادة الإنتاج الموسع للمراكز التي تحتلها الطبقات الاجتماعية يماثل بشكل

مباشر صراع الطبقات الذي يحكم الأجهزة. يستتبع ذلك أن إعادة إنتاج المراكز في علاقات السيطرة الإيديولوجية –السياسية تستدعي استخدام أجهزة أخرى غير أجهزة الدولة الإيديولوجية أهمها الجهاز الاقتصادي نفسه. وكوحدة إنتاجية يعتبر المشروع بشكله الرأسمالي جهازا، بمعنى انه بواسطة التقسيم الاجتماعي للعمل (التنظيم الاستبدادي للعمل) ومن ضمن المشروع، ينتج المشروع نفسه علاقات سياسية وإيديولوجية ذات صلة بمراكز الطبقات الاجتماعية. بكلمات أخرى، إن إعادة إنتاج العلاقات الإيديولوجية الفائقة الأهمية ليس هَم الأجهزة الإيديولوجية فحسب، كما انه ليس كل ما تشتمل عليه عملية الإنتاج يقع في خانة "الاقتصادي". وهكذا فان الأجهزة الإيديولوجية لا تحتكر إعادة إنتاج علاقات السيطرة الإيديولوجية.

لننتقل الآن الى الوجه الثاني لإعادة الإنتاج، إعادة إنتاج الوسطاء، التي تشتمل (كلحظتين في نفس العملية) على تأهيل/ إخضاع الوسطاء لتمكينهم من احتلال وظائفهم وعلى توزيع الوسطاء على الوظائف. ومن الأهمية القصوى أن نفهم بالضبط كيفية صياغة وجهي إعادة الإنتاج (للمراكز والوسطاء) حتى نفهم تفاهة الإشكالية البرجوازية حول الحراك الاجتماعي Social mobilityإن للأجهزة الإيديولوجية وخاصة المدرسة، دورا حاسما في هذا المجال.

إن إعادة إنتاج الوسطاء، وخاصة "التأهيل" السيئ الصيت للوسطاء، في الإنتاج الفعلي ليس مجرد تقسيم تقني للعمل (تعليم تقني)، بل انه عملية تأهيل/ إخضاع فعالة وتمتد الى العلاقات السياسية – الايديولوجية. وهنا تتشابه اعادة الإنتاج الموسعة للوسطاء مع احد وجوه اعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية الذي يترك آثاره على اعادة إنتاج قوة العمل، وبينما يستتبع هذا دورا مميزا للمدرسة، علينا إن نتذكر أن هذا الدور ليس مجرد تعليم تقني بحت، بل هو نفس عملية التأهيل/ الإخضاع والتي تعمل من ضمن الأجهزة الاقتصادية أيضا طالما أن المشروع هو أكثر من وحدة إنتاجية بسيطة. وهذا بدوره يستتبع دورا مميزا للمشروع لكونه بالضبط ذلك الجهاز الذي يوزع الوسطاء العاملين فيه.

في حالة العمال المهاجرين يكون للجهاز الاقتصادي الدور المسيطر فعلا، ولكن دون أن يكون محددا بهم. إذا نسينا دور الجهاز الاقتصادي معتبرين إن المدرسة قامت بالأساس بتوزيع الوسطاء قبل الجهاز الاقتصادي، نكون قد انحدرنا إلى نفس مستوى التفسير الارتدادي الأحادي الجانب والذي يرى أن هذا التوزيع قد حدث أصلا في العائلة قبل المدرسة.

إن الطبقات الرأسمالية ليست طوائف ثقافية كما أنها ليست طوائف موروثة، وهذا التفسير الارتدادي يبدو عاجزا إمام العلاقة بين العائلة والمدرسة إذ أن العائلة تحتفظ بفعاليتها أثناء فترة الدراسة، كما يبدو عاجزا أمام العلاقة بين المدرسة والجهاز الاقتصادي بفعل استمرار اثر المدرسة على النشاط الاقتصادي للوسطاء.

من الهام أن نلحظ أن وجهة اعادة الإنتاج الثاني هذا خاضع للأول ومرتبط بشدة به، وهذا لأن أية اعادة أنتاج للوسطاء وأي توزيع لهم على الوظائف يرتكزان على اعادة الإنتاج الموسع لهذه الوظائف، ويجب إلا ينسى إن الدور الغالب في توزيع الوسطاء على طاقم

التشكيلة الاجتماعية هو لسوق العمل (كتعبير عن إعادة الإنتاج الموسع لعلاقات الإنتاج). واعتقد بحزم، أن هذه هي الحال حتى عندما لا تتوافر سوق عمل موحدة، أي، عندما توجه عروض سوق العمل نحو مجال مجـــزأ أصلا Compartementalized وذلك عائد جزئيا لعمل أجهزة الدولة الايديولوجية (مثلا، أن خريجا عاطلا عن العمل لا يملأ الفراغ الوظيفي الذي يحدثه العامل نصف الماهر)، والسبب انه، وبفعل التقسيم أيضا، ثمة علاقة تكوينية بين الأجهزة التوزيعية وبين علاقات العمل.

تفرض هذه العلاقة التكوينية، من بين أشياء كثيرة، على عمل أجهزة الدولة الايديولوجية حدودا في تجزئة سوق العمل. مثلا، ليست المدرسة هي سبب كون الفلاحين هم الممثلون الأساسيون للمراكز الشاغرة في الطبقة العاملة. بل على العكس فالسبب هو الهجرة من الريف، أي، زوال المراكز في الريف، إضافة الى اعادة الإنتاج الموسعة للطبقة العاملة والتي تحكم دور المدرسة في هذا المجال، أخيرا. ففي حالة اعادة الإنتاج الموسعة وفي حدود خضوع الوجه الثاني لإعادة الإنتاج للوجه الأول، علينا أن نحدد الآثار المباشرة التي تتركها الوظائف الفعلية على الوسطاء مما يختزل الى إعطاء الأولوية للصراع الطبقي على الأجهزة.

إنني اعتقد جازما انه لا وجود لوسطاء "أحرار" و"حركيين" في الأصل (في عالم "سابق على" المدرسة أو "خارجها") ومنتشرين في المراكز ومتبعين لأوامر الأجهزة الايديولوجية في الغرس الإيديولوجي والثقافي الذين يتلقون. صحيح أن الطبقات الاجتماعية ليست طوائف في نمط الإنتاج الرأسمالي وفي التشكيلة الاجتماعية الرأسمالية، كما أن الأصول الطبقية ليست أقدارا في تحديد مراكز الوسطاء، وان للمدرسة والأجهزة الأخرى أدوارا ذاتية هامة في توزيع الوسطاء على المراكز. ولكن من الصحيح أيضا أن آثار التوزيع تترجم نفسها بواسطة الأجهزة الايديولوجية ببقاء الأكثرية الساحقة من البرجوازيين (وأولادهم من بعدهم) ضمن الطبقة البرجوازية وبقاء الأكثرية الساحقة من البروليتاريين (وأولادهم من بعدهم) بروليتاريين. وهذا ما يبين أن المدرسة ليست السبب الوحيد أو الرئيس في التوزيع الذي يتخذ هذا الطابع، بل تسببه الآثار التي تتركها الوظائف نفسها على الوسطاء، تلك الآثار التي هي ابعد حدودا من المدرسة ومن العائلة نفسها.

إننا هنا لا نحاول أن نقرر، على طريقة بعض المناظرات الحديثة، إن كانت الأولوية للعائلة أو للمدرسة في سياق نسبي، بل أننا لا نرى في هذا "الزوج" العائلة/ المدرسة أساسا لآثار التوزيع هذه، إن ما يواجهنا بالمقابل هو سلسلة من العلاقات بين الأجهزة تمتد جذورها في عمق الصراع الطبقي.

بكلمات أخرى، إن التوزيع الرئيس للوسطاء ينضوي تحت اعادة الإنتاج الرئيسة للمراكز التي تحتلها الطبقات الاجتماعية. واستنادا الى مراحل وأطوار التشكيلة الاجتماعية فان التوزيع الرئيس هذا يعين لجهاز ما أو لسلسة أجهزة، الدور الخاص بها والذي تلعبه في توزيع الوسطاء.

الأجهزة الإيديولوجية، أجهزة دولة

لدينا بداية، بعض الملاحظات، على آلية عمل الايديولوجيا في تشكيلة اجتماعية معينة. لا تمكن الايديولوجيا في الأفكار فحسب:

ليست الايديولوجيا "نظام مفاهيم" بالمعنى الدقيق للكلمة، إنها تتسع لتشمل كما أوضح غرامشي، العادات والتقاليد، "نمط الحياة" لعناصر تشكيله. إنها تتجسد في ممارسات التشكيلة الاجتماعية (الممارسات البرجوازية، البروليتارية، البرجوازية الصغيرة).

من جهة أخرى، تشكل الايديولوجيا، بصفتها الإيديولوجية السائدة، سلطة رئيسة للطبقات، في تشكيلة اجتماعية معينة. وبهذه الصفة، فهي تتجسد داخل التشكيلة الاجتماعية ضمن سلسلة من الأجهزة أو المؤسسات: الكنيسة (الجهاز الديني)، الأحزاب السياسية (الجهاز السياسي) النقابات (الجهاز النقابي) المدارس والجامعات (الجهاز المدرسي) وسائل "الإعلام" (الجرائد، الراديو، السينما والتلفزيون وباختصار الجهاز الإعلامي) الميدان الثقافي (النشر) العائلة من زاوية ما الخ..

إن الأمر، يتعلق هنا بأجهزة الدولة الإيديولوجية.

وتتميز هذه الأجهزة نسبيا عن جهاز الدولة "القمعي" ذاك الذي يؤدي دوره تحت المظهر الرئيس (فالايديولوجيا تتدخل فيه أيضا) للقمع الجسدي المنظم الذي تستحوذ الدولة على احتكار ممارسته شرعيا: يتعلق الأمر بجهاز الدولة بالمعنى الحصري.

للأجهزة الإيديولوجية مظهر رئيس (ذلك أن القمع يتدخل هنا أيضا تحت أشكال مختلفة) هو مظهر التهيئة والترسيخ الإيديولوجي. لماذا إذن، يتعين علينا اعتبارها أجهزة دولة؟

أ- ليست الايديولوجيا شيئا "محايدا" في المجتمع، ليست ثمة إيديولوجيا إلا لطبقات. وهي، بصفتها إيديولوجيا سائدة، عبارة عن توازنات في القوى، قد تصل أهميتها ضمن تشكيلة ما الى درجة إمكان احتلالها الموقع المهيمن. لكن ذلك لا يكفي من اجل اعتبار الأجهزة الإيديولوجية أجهزة دولة. يجب السير بالموضوع ابعد من ذلك: إن السيطرة السياسية نفسها، لا يمكن أن تتم بواسطة القمع الجسدي فحسب، بل هي تتطلب التدخل الحاسم والمباشر للايدولوجيا. وبهذا المعنى، تتضمن "نظمة" – Systemeالدولة مباشرة، الايديولوجيا السائدة، المجسدة كوجود قائم بالأجهزة الإيديولوجية. وان نظمة الدولة بدورها، تشكل في آن معا تجسيد السلطة السياسية وضمانها ومكانها المكثف.

ب- لا بد من العودة الى **التعريف الماركسي للدولة**. إن كلاسيكيات الماركسية لا تعرف الدولة –التي هي دولة طبقية –بوصفها مالكة "قوة" القمع الجسدي فحسب، وإنما تعرفها انطلاقا من دورها الاجتماعي والسياسي بالدرجة الأولى. الدولة الطبقية هي الهيئة المركزية التي يتعين عليها الحفاظ على وحدة وتماسك تشكيلة اجتماعية معينة، والحفاظ على الشروط الاجتماعية للإنتاج وبالتالي إعادة إنتاج الشروط الاجتماعية للإنتاج: إنها، في ظل نظام الصراع الطبقي، ضمانة السيطرة السياسية للطبقة. إن دور الأجهزة الإيديولوجية يكمن في هذه الناحية على وجه الدقة: إن **الايديولوجيا السائدة هي، تحديدا، "اسمنت" التشكيلة الاجتماعية.**

ج- يتشكل جهاز الدولة بالمعنى الحصري، شرط وجود وعمل الأجهزة الإيديولوجية في تشكيلة اجتماعية معينة. وإذا كان صحيحا أن الجهاز القمعي لا

يتدخل عادة بشكل مباشر في عمل الأجهزة الإيديولوجية، إلا انه دائم الحضور خلفها.

فروع جهاز الدولة القمعي وخصائص أجهزة الدولة الإيديولوجية.

لا بد من إبداء بعض الملاحظات الإضافية في هذا المجال:

أ- قلنا أن أجهزة الدولة تقوم بدورها إما في ظل غلبة مظهر القمع بشكل رئيس، أو في ظل غلبة مظهر الايديولوجيا بشكل رئيس. وبمزيد من الدقة فان ذلك لا يعني على الإطلاق إن ليس للدولة من "وظيفة" إلا قمعية أو إيديولوجية.

فوفق أنماط الإنتاج ومراحلها، وحقبات ومراحل تشكيلة اجتماعية ما، قد تقوم الدولة، بما يمكن تسميته "وظيفة اقتصادية مباشرة". هذه الوظيفة "الاقتصادية"، هي آنذاك "مباشرة" من حيث أن الدولة لا تكتفي بإعادة إنتاج الشروط الاجتماعية للإنتاج، بل تتدخل بشكل حاسم في إعادة إنتاج دورة الإنتاج نفسها: كمثال على ذلك تحديدا، بعض حالات التشكل التدخلي للدولة الرأسمالية، حيث تتدخل الدولة كما أبان **لينين**، "حتى في تفاصيل الاقتصاد ، بل وفي دورة إعادة إنتاج رأس المال، (تلك كانت الحال بالنسبة للدولة الفاشية).

ويمكن لهذه الوظيفة الاقتصادية للدولة، أن تؤدي في آن معا بواسطة الجهاز القمعي (الإدارة، الحكومة) " و" بواسطة الأجهزة الإيديولوجية (النقابات).

ولكن الذي يعنينا هنا، هو أن هذه الوظيفة الاقتصادية للدولة تبقى على الدوام متمفصلة على دور الدولة السياسي الإجمالي. وبمعنى آخر، فان هذه الوظيفة الاقتصادية للدولة، التي قد تصل الى حد الهيمنة على سائر وظائفها، إنما تمارس في ظل مظهر رئيس: أما القمع أو الايديولوجيا.

ب- ولنبدِ هنا ملاحظة ملازمة لما سبق: لا يجوز قصر مفهوم "الجهاز" على أجهزة الدولة فحسب. بمعنى آخر، فليس لمفاهيم " الجهاز" و"الدولة" نفس المدى ونفس الميدان.

ليست "المنشأة" مثلا "وحدة إنتاج" فحسب، بل يعود لها القيام بدور إعادة إنتاج الشروط الاجتماعية للإنتاج، كما تتدخل هنا الايديولوجيا أيضا، وتكون التوازنات السياسية للسيطرة حاضرة. وكمحصلة لعلاقات الإنتاج، فان "المنشأة" تبلور الوشائج القائمة بين علاقات الإنتاج الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية السياسية والعلاقات الاجتماعية الإيديولوجية. لقد جربت الممارسة الثورية في "المجالس العمالية" و"السوفياتات". (كان غرامشي تحديدا مدركا ذلك تماما).

وبالمقابل، فلا يمكن اعتبار "الجهاز الاقتصادي"، جهاز دولة اقتصادي، رغم تدخل الدولة ضمنه كضامن "للانتظام" وذلك لان التعريف الماركسي للدولة، بما هي الأجهزة المنوط بها، كدور أساسي، الحفاظ على تماسك ووحدة تشكيلة منقسمة الى طبقات، بفعل تكريس السيطرة السياسية الطبقية، هذا التعريف، لا ينطبق تماما على الجهاز الاقتصادي، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فللجهاز الاقتصادي في ظل نظام الاستغلال الطبقي، شكل "وحدات الإنتاج" تحديدا. وان له، بالتالي، دورا أساسيا يؤديه حيال الجماهير الشعبية، هو دور الاستغلال. هذا الاستغلال هو الذي يتيح ظهور "سلطة" أو "استبداد" الطبقة المستغِلة بجلاء، بينما أجهزة الدولة لا تمارس الاستغلال بالمعنى الحرفي، أي

النهب المباشر للقيمة الفائضة.

وبالمقابل، فان التمييز بين أجهزة الدولة والجهاز الاقتصادي، يرتدي هنا أيضا أهمية أساسية. فمن الجلي انه لا يمكن "تحطيم " أجهزة الدولة والجهاز الاقتصادي في الوقت نفسه والأسلوب ذاته. ويصح الأمر أيضا للتمييز بين جهاز الدولة القمعي وأجهزة الدولة الإيديولوجية من جهة أخرى. فتلك الأخيرة لا يمكن "تحطيمها" في الوقت نفسه وبالأسلوب ذاته الذي يجري فيه تحطيم جهاز الدولة القمعي. لكن الفارق لهذه الجهة، بين أجهزة الدولة (القمعية والإيديولوجية) والجهاز الاقتصادي، هو من طبيعة أخرى: إننا نصادف في الجهاز الاقتصادي، بوصفه "وحدات إنتاج" هذه النواة الصلبة التي اسماها ماركس "القاعدة التقنية للإنتاج" وهو أمر لا نصادفه لدى أجهزة الدولة، وهو يطرح "مشاكل" بالغة الخصوصية.

ج. إن واقع كون أجهزة الدولة الإيديولوجية تبدو منتمية الى الـ"خاص" على الغالب، أي غير معترف بها كأجهزة دولة، لا يجب أن يفاجئ. إذ أن التمييز بين "الخاص" و"العام"، هو تمييز قانوني خالص.(....)

لكن ذلك لا يعني أن الطابع "الخاص" أو "العام" لأجهزة الدولة الإيديولوجية ليس بذي أهمية أو انه نتاج الصدفة. على العكس من ذلك، فارتداء أجهزة الدولة الإيديولوجية لأحد هذين الطابعين، يؤشر الى اختلاف وتباين أشكال آلية العمل وفق أنماط ونماذج الدولة. بل أن طابع هذه الأجهزة، "الخاص" عادة، هو الذي غالبا ما يؤمن استقلاليتها الذاتية النسبية فيما بينها وحيال جهاز الدولة.

د. بذلك ندخل الى لب الموضوع: يمكننا بالواقع، الكلام عن "جهاز" الدولة بالمعنى الحصري وبالمفرد. بينما نتكلم عن عدة "أجهزة" دولة إيديولوجية. وإذا كان صحيحا، أن جهاز الدولة بالمعنى الحصري، ليس بتلك الكتلة الصخرية الواحدة بلا شقوق، فجهاز الدولة القمعي بذاته، مؤلف مما سنسميه فروعا متخصصة، كالجيش والشرطة والإدارة.. الخ إلا أن أجهزة الدولة الإيديولوجية تقدم في علاقاتها المتبادلة وفي علاقتها بجهاز الدولة، شكلا ودرجة من الاستقلال الذاتي النسبي الذي لا تملكه فروع جهاز الدولة. إن جهاز الدولة القمعي، النواة المركزية لأنظمة الدولة وسلطتها، يمتلك وحدة داخلية اقوي واشد صرامة مما تمتلك الأجهزة الإيديولوجية. إن الوحدة الداخلية التي تمتلكها فروع هذا الجهاز، تجعل من الممكن الحديث بصدده عن "أنظمة فرعية " فعلية في إطار منظومة أجهزة الدولة.

إن أولى نتائج ذلك هي أن "تحطيم" الدولة، لن يمارس بصورة متماثلة على جهاز الدولة وعلى أجهزة الدولة الإيديولوجية. لن يجري "تحطيم" الأجهزة الإيديولوجية بالوقت نفسه وبالطريقة ذاتها التي سيجري بها " تحطيم" جهاز الدولة. كما أن تحطيم كل الأجهزة الإيديولوجية لن يجري بأسلوب وزمن مماثل.

ما هي أسباب هذه الاستقلالية الذاتية لأجهزة الدولة الإيديولوجية المجسدة بتعدديتها؟

1- إن التحول المؤسسي للايدولوجيا السائدة الى أجهزة دولة، لا يتعارض والمسافة النسبية القائمة بين الإيديولوجيات الطبقية وأجهزة الدولة: فمهمة تلك الأجهزة هي إعداد وترسيخ هذه الايديولوجيا وليس خلقها.

لن نطيل الكلام الآن حول هذه النقطة، إلا

أننا نشير الى أن كلاسيكيات الماركسية قد التقطت نتائج واقعة وجود هذه المسافة النسبية بين الايديولوجيا وأجهزة الدولة، والناجمة عن كون هذه الأجهزة ليست سوى نتاج الصراع الطبقي: وابرز هذه النتائج، القدرة الملفتة للايدولوجيا السائدة على الديمومة والاستمرار خارج نطاق التغييرات اللاحقة بالأجهزة (بما فيها الأجهزة الإيديولوجية) وبسلطة الدولة.

2- يستند ذلك كله الى المعطيات الأساسية لصراع الطبقات: فلنبدأ بالميدان الإيديولوجي. في تشكيلة اجتماعية ما، فان القائم ليس الايديولوجيا السائدة فحسب، بل توجد عدة إيديولوجيات أو منظومات فرعية إيديولوجية متناقضة ومرتبطة بمختلف الطبقات المتصارعة. إن الايديولوجيا "السائدة" نفسها لا تصبح كذلك إلا بعد نجاحها في السيطرة بطريقة بالغة الخصوصية، على هذه الإيديولوجيات والمنظومات الفرعية الإيديولوجية: وهو الأمر الذي يتم لها من منفذ أجهزة الدولة الإيديولوجية تحديدا. إن ذلك بدوره، يفترض أن هذه الأجهزة هي التعبير المركز عن التناقضات الإيديولوجية المكثفة، والتي تعبر عن نفسها بانشقاقات لدى "موظفي الايديولوجيا " المنتمين إليها. إن الاستقلال الذاتي النسبي للأجهزة الإيديولوجية هو نتاج ذلك.

3- وأخيرا، فان هذا الاستقلال الذاتي النسبي لأجهزة الدولة الإيديولوجية، يعود الى توازنات السلطة السياسية بالمعنى الحصري، وهو يعبر عن نفسه باختلالات هامة في سلطة الدولة. بادئ ذي بدء، فان سلطة الدولة تتشكل بوجه عام من تحالف طبقات أو فئات مسيطرة: تكتل موجود على رأس السلطة في تشكيلة رأسمالية ما. هكذا وعلى الرغم من حيازة طبقة أو فئة لموقع الهيمنة بشكل عام، إلا أن السلطة السياسية لسائر الطبقات أو الفئات الموجودة في "السلطة" تسبب اختلالات بين أجهزة الدولة. ذلك انه لا يصح الكلام عن سلطة دولة، أي عن سلطة سياسية طبقية إلا بمقدار تجسدها في أجهزة دولة.

ما تهم الإشارة إليه، هو أن اختلالات سلطة الدولة هذه، تظهر بشكل رئيس، فيما بين أجهزة الدولة الإيديولوجية نفسها، أو بينها وبين أجهزة الدولة. فبالواقع، وعلى الرغم من وحدته الداخلية بوصفه نظمة فرعية ، فان اختلالات من هذا القبيل يمكن أن تحدث داخل أجهزة الدولة بالمعنى الحصري. إن الجيش أو الإدارة أو القضاء يمكن أن تكون أحيانا مراكز مميزة لسلطة الطبقات أو الفئات المختلفة لتكتل حاكم.

لكن الطبقة أو الفئة المهيمنة، تتمسك عادة بالسلطة داخل جهاز الدولة القمعي، لكونه النواة المركزية للدولة. وحين تمسك بالسلطة داخل بعض فروعه، طبقات أو فئات غير مهيمنة، فان وحدته الداخلية " –مركزيته" – تتيح إعادة تنظيمه داخليا (وحسب أشكال الدول) بحيث تصبح فروعه تلك تحت هيمنة الفرع المسيطر عليه من قبل الطبقة أو الفئة المهيمنة. بهذا المعنى تحديدا، يصح الكلام عن وحدة ملموسة– وليس عن "تقاسم" – لسلطة الدولة داخل جهاز الدولة في حالة وجود عدة طبقات أو فئات مختلفة من السلطة.

يختلف الأمر بالنسبة لأجهزة الدولة الإيديولوجية. فهي تشكل بالواقع الأجهزة الأكثر قابلية لان تجسد فعليا، سلطة الطبقات أو الفئات غير المهيمنة: إنها هكذا،

وفي آن معا "الملجأ المميز لهذه الطبقات أو الفئات، وفريستها المفضلة. وهي سلطة طبقات أخرى يمكنها، في هذه الأجهزة، إلا أن تكون حليفة للطبقة المهيمنة، بل وقد تكون في حالة صراع جذري ضدها.

هكذا، غالبا ما تشكل هذه الأجهزة، أما آخر أسوار سلطة طبقية قديمة –الكنيسة بالنسبة لنبلاء الأرض، وأما أولى المواقع الحصينة لسلطة طبقية جديدة –المدارس والنشر بالنسبة للبرجوازية قبل الثورة الفرنسية –أخيرا على وجه الخصوص، فان نضال الجماهير الشعبية لا يخترق الأجهزة الإيديولوجية فحسب –وهو أمر بديهي تماما –ولكنه يترك أثرا مميزا على بعض هذه الأجهزة، وتحديدا على تلك المخصصة للجماهير.

وباختصار، فان " لعبة " بسط السلطة الطبقية هذه، فيما بين جهاز الدولة من جهة وأجهزة الدولة الإيديولوجية من جهة أخرى، والعائدة الى وجود الصراع الطبقي، تبدو السبب الأساس لأجهزة الدولة الإيديولوجية وإحدى نتائجه.

* هذا النص مستل من:

– **نيكوس بولانتزاس: الماركسية والطبقات الاجتماعية**. دار ابن خلدون، الطبعة الأول آذار 1975، ص .56 – 46

-نيكوس بولانتزاس: الإيديولوجية والسلطة –نموذج الدولة الفاشية. دار ابن خلدون، الطبعة الأولى، نوفمبر 1997، ص 8 –24

**نيوكوس بولانتزاس Nicos Poulantzas، عالم اجتماع ومفكر ماركسي مرموق من أصول يونانية ويعد واحدا من أهم المنظرين الماركسيين في القرن العشرين.

ولد في أثينا في 21 سبتمبر 1963 وأثناء دراسته الجامعية أصبح بولنتزاس ناشطا سياسيا حيث انظم الى " التحالف الديمقراطي " الذي كان احد منظمات الحزب الشيوعي اليوناني آنذاك، ثم لاحقا عضوا في الحزب الشيوعي اليوناني.

قبل قدومه الى فرنسا درس بولنتزاس القانون في جامعة أثينا وأكمل دراسته هناك حتى حصل على درجة الدكتوراه في فلسفة القانون. خلال هذه الفترة كان متعاطفا مع وجودية سارتر وسيمون دي بوفوار. وبعد عام 1996 بدأ بالتحول من الوجودية الى الماركسية وبدأ بالتأثر بالمقاربة التي قدمها الفيلسوف الماركسي المعروف ألتوسير 1919 – 1990 للبنيوية.

اشتهر بولنتزاس بأطروحته النظرية حول " **الاستقلال النسبي للدولة** "، والتي عرضها في أكثر أعماله أهمية وهو" **السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية** " الصادر في عام 1968، وذلك في سجاله مع المنظر الماركسي المعروف آنذاك **رالف ميليباند** – 1996 1924ومن المعلوم انه في عام 1969 نشرت مجلة New Left Review دراسة نقدية أنجزها بولانتزاس حول كتاب ميليباند الموسوم: ***الدولة في المجتمع الرأسمالي*** (1969). وقد اعتبر هذا العرض الانتقادي أول شوط في المباراة/ السجال بين الاثنين بما عرف في حينه بـ " السجال بين ميليباند وبولانتزاس ". ومن الجدير بالذكر أن بولنتزاس قدم تحاليل عميقة حول الدولة والطبقات الاجتماعية في مرحلة محددة من تطور الرأسمالية وهي الرأسمالية الاحتكارية وأزمتها. وفي هذا التحليل كشف بولنتزاس الديناميكيات

الاجتماعية – السياسية في هذه المرحلة وكيفية تطوير إستراتيجية ثورية لمواجهة تحدياتها.

انتقل بولنتزاس الى فرنسا عام 1968، و في باريس أصبح أحد أعضاء الحلقة الملتفة حول الفيلسوف الفرنسي الماركسي ألتوسير والتي ضمت كلا من باليبار وريجي دوبريه وغيرهما.

ورغم أن بولنتزاس اشتهر بأعماله النظرية حول الدولة غير انه أيضا كان معروفا في أبحاثه حول الطبقات الاجتماعية في العالم المعاصر كما قدم تحليلا ماركسيا عميقا للفاشية وللدكتاتوريات التي شهدتها أوربا بعد الحرب العالمية الثانية.

في سنوات السبعينات عانى من مشاكل شخصية أدت به الى الانتحار في 3 أكتوبر عام 1979 ورغم موته المأساوي والمبكر (حيث عاش فقط 43 عاما) فان بولنتزاس قدم مقاربات عميقة لجملة من القضايا.. وما زالت أعماله تحظى باهتمام كبير، حتى لمن يختلف معه. نعرض هنا نصين للمفكر الماركسي بولنتزاس نأمل أن تساهم في فهم أفضل لما قدمه من أطروحات تستفزنا معرفيا وتدفعنا للتفكير بعمق في قضايا مثل الدولة وأجهزة الدولة الإيديولوجية وقضايا الطبقات الاجتماعية المعاصرة وما شهدته من تحولات عميقة في بنيتها وما أدت إليه من إكساب الصراع الطبقي مضامين وأشكال جديدة.

من أهم أعمال بولانتزاس:

- **السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية** (1968)؛
- **الفاشية والدكتاتورية** (1973)؛
- **أزمة الدكتاتوريات: البرتغال، اليونان، اسبانيا** (1976)؛
- **الدولة، السلطة، الاشتراكية** (1978)؛
- **البنية الطبقية في الرأسمالية المعاصرة** (1979).

ترجمة نصوص

تزايد أعراض الأزمة في الاقتصاد العالمي *

ترجمة: رشيد غويلب

تأسس معهد البحوث الاقتصادية و الاجتماعية والبيئية في مدينة ميونخ الألمانية في حزيران عام 1990 من قبل اقتصاديين و علماء اجتماع و بالتعاون مع شخصيات نقابية، و أصدر المعهد منذ ذلك الحين أكثر من 100 دراسة و تقرير. يقدم المعهد تحليلات و مقاربات بديلة لما تقدمه الليبرالية الجديدة في إطار الصراع العلمي و الاجتماعي الدائر، و يهتم فريقه البحثي بشكل خاص بما تحتاجه النقابات و الحركات الاجتماعية و المدافعين عن البيئة و حركة السلام. كما يهدف إلى تقديم المعلومة العلمية بشكل مباشر و مفهوم للاستفادة منها لإغراض الدراسة و إجراء المناقشات المعمقة. صدر تقريره الاقتصادي لهذا العام في الحادي و العشرين من حزيران 2011 الذي ننشره هنا تعميما للفائدة.

تراجع في النمو وضعف في سوق العمل في الولايات المتحدة الأمريكية، و تزايد تهديدات أزمة الديون في منطقة اليورو، و تضخم مصحوب بالركود في الجزر البريطانية، والاقتصاد الياباني لا يزال في دوامة " التسونامي " و الركود، و الدول الناشئة تعاني من التضخم و ليس هناك مؤشر للانتعاش عالميا. ألمانيا وحدها تعيش ازدهاراً اقتصادياً. والسؤال هو: إلى متى سيستمر هذا الوضع؟

فشل الآلة الاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية

لا يرغب احد داخل الولايات المتحدة الأمريكية بالحديث عن النمو، بدلا من ذلك يدور الحديث عن نمو يعاني فقرا في الدم "فقر دم أمريكي" هكذا تكتب "زود دويتشه تسايتونغ" (جريدة الجنوب الألماني- جريدة محافظة واسعة الانتشار- المترجم) في عددها الصادر في 2011/4/24، فالنمو هبط في الفصل الأول إلى 1.8 ٪ ، وفي الفصل الرابع هبط النمو إلى 3.1 ٪ مقارنة بالسنة السابقة.

ومن المتوقع أن لا يتجاوز نمو الناتج المحلي الإجمالي لهذا العام 2.3 ٪، ويعود سبب تشاؤم خبراء الاقتصاد إلى تقرير سوق العمل الصادر في مايس/ آيار والذي أشار إلى وصول نسبة البطالة إلى 9.1٪ وليس هناك أفق لإيجاد فرص عمل جديدة،

وبلغت الزيادة في عدد العاملين 54 ألف، في حين إن المتوقع كان 150 ألف، والأكثر خطورة هو ارتفاع نسبة البطالة طويلة الأمد لتصل إلى 43 ٪ وهي اعلى بكثير م المعتاد.

كل هذا يضغط على الأجور و واردات الأسر التي تشكل 70 ٪ من الطلب في الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة الأمريكية. كما إن سوق العقارات و المساكن لم يتعاف بعد، بل على العكس من ذلك، فبعد الفورة الاستهلاكية و انفجار فقاعة العقارات يلاحظ و منذ بداية هذا العام هبوط مؤشر شركات العقار CASE-SHILLER-HOME-PRICE-INDEX الذي وضعته وكالات التصنيف في البورصة مجددا. ووفقا لمعطيات جريدة (فرانكفورتر الغماينه تساتنغ) في 2011/6/8، فان هناك 10ملايين مسكن غير مأهولة و 2 مليون مسكن خضعت للإخلاء الإجباري و 4 ملايين عائلة متأخرة بشهرين عن دفع أقساط الرهن العقاري. أن عدم قدرة الناس على بيع مساكنهم يعيق من حركتهم وفق متطلبات سوق العمل، وفي نفس الوقت تشكل خدمة الديون عاملاً ضاغطاً على واردات العوائل المتوفرة ،أما البقية فيتكلفها ارتفاع التضخم الذي أدى إلى ارتفاع تكاليف المعيشة بنسبة 3.2 ٪ تستهلك بقدر كبير القدرة الشرائية لمواطني الولايات المتحدة الأمريكية.

تعني هذه الأرقام أن لا اثر لانتعاش ذاتي في الولايات المتحدة، بل هناك خطر أن يتحول النمو المتواضع منذ عام 2009 إلى حالة من العجز. ويرسم بعض الاقتصاديين شبح تراجع مزدوج على الجدار، أي الغطس ثانية في الركود، و إذا ما حدث تراجع أو تجددت الأزمة فان الأدوات الاقتصادية تصبح إلى حد كبير غير فاعلة. إن ديون الميزانية العامة وميزانية الأسر قد استنفدت، وكان من الممكن للدين العام و الخاص للولايات المتحدة ، والفائض من الواردات الضخمة تغذية الاقتصاد الأمريكي و العالمي لسنوات طويلة. تبلغ نسبة مجموع ديون العوائل في الولايات المتحدة الأمريكية الآن (سلف الاستهلاك و الرهن العقاري) إلى مجموع الناتج الإجمالي المحلي 100٪ أي 14 بليون دولار(وعلى وجهه الدقة 13970 مليار دولار) إي بمعدل 46 ألف دولار لكل مواطن بغض النظر عن فئته العمرية. وتبلغ الأرباح الواجب تسديدها 700 – 800 مليار دولار على الأقل، وهي مبالغ تذهب مباشرة إلى راس المال المالي و مفقودة من الطلب على السلع الاستهلاكية.

وعلى نحو مماثل تبدو أوضاع التحفيز الحكومي للاقتصاد سيئة، فالأموال المطلوبة لخطة جديدة لتحفيز الاقتصاد غير متوفرة، كما أن الدين الحكومي يقترب هو الآخر من نسبة 100٪ من الناتج الإجمالي المحلي، و الضخ الحكومي للأموال سيصل في موعد أقصاه تموز من هذا العام إلى السقف المسموح به من قبل الكونغرس الأمريكي و البالغ 14.3بليون دولار أي ما يعادل 50 ألف دولار أخرى لكل مواطن أمريكي. وإذا لم تتوصل الحكومة مع المعارضة إلى اتفاق بشأن رفع سقف الديون ، وحتى في حالة التوصل إلى اتفاق فان شروط المعارضة ستؤكد على عدم السماح بخطط جديدة لتحفيز الاقتصاد.

لقد استنفدت الكينزية إمكانياتها القائمة على الاستدانة وتقوية الطلب الحكومي، و

وكالات التصنيف تضغط من اجل تضبيط ميزانية الولايات المتحدة وتهدد بالتقليل من الجدارة الائتمانية إلى درجة أدنى من الثالثة (أي من AAA الى AA – المحرر)، و هو ما يشجع الأسواق المالية لرفع الفوائد المترتبة على الديون.أبدت وكالة Standard & Poor´s أول شكوكها بالجدارة الائتمائية للولايات المتحدة الأمريكية التي تدفع الآن 3٪ كفوائد على سنداتها الحكومية، في حين إن اليونان، التي تكون حصة الفرد من الديون فيها أدنى من الولايات المتحدة، تدفع مابين 12٪ إلى 15٪. وبرغم نسبة الأرباح الواطئة فان مجموع الأرباح السنوية لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية يصل الى400 مليار دولار تقريبا ، وهي مبالغ يفتقدها الطلب في مجال تطوير البنى التحتية.

كما استنفدت الكينزية كذلك وسائلها في السياسة النقدية، فسعر الفائدة التي حددها مجلس الاحتياطي الفيدرالي هي عند مستوى الصفر، و الأرباح الحقيقية (مطروح منها سعر المؤشر) تقع في السالب، و لم يبقى لمجلس الاحتياطي الفيدرالي سوى " مخدر السيولة" لتحفيز الاقتصاد، و هذا يعني إغراق الأسواق المالية بالنقود مجددا لإنقاذها من الانهيار. و لهذا بدأ البنك المركزي الأمريكي، منذ تشرين الثاني 2008، برنامجا ضخما لطبع النقود أو ما يسمى بالتسهيل الكمي Quantitative Easing- QE، وقام بدفع مليارات من الدولارات للبنوك لشراء سندات ميتة ، و بهذا طرح أموالاً جديدة للتعامل. في آب عام 2010م تدهور الاقتصاد الأمريكي مرة أخرى فأطلق رئيس المجلس الاحتياطي الفيدرالي برنامج التسهيل الكمي الثاني و قام مجددا بشراء سندات بقيمة 600 مليار دولار ينتهي البرنامج في نهاية حزيران 2011

ويتوقع العديد من " مراقبي السوق" قيام مجلس الاحتياطي الفيدرالي بإطلاق برنامج ثالث للتسهيل الكمي، إذا تدهور الاقتصاد مجددا، وبهذا تضخ مرة أخرى، أموالاً جديدة في الأسواق. تتعزز المقاومة السياسية بسبب محدودية تأثير هذه الإجراءات و تصاعد التضخم. لقد استفادت أسواق الرأسمال و في مقدمتها أسهم البورصة من الطبع المستمر للنقود، فضلا عن ذلك كان ذلك سبباً لفورة اقتصادية و زيادة التضخم في البلدان الصاعدة (الناشئة)، لان ذلك يمكن المستثمرين الماليين و المباشرين من اقتراض مبالغ بسعر فائدة منخفض و استثمارها في البلدان الصاعدة بفوائد و عوائد عالية.

الخلاصة: يمكن القول " أن الولايات المتحدة فشلت كمحرك للنمو" على حد قول جريدة (الهاندلسبلات) (جريدة اقتصادية قريبة من اتحاد الصناعيين الألمان– المترجم) في عددها الصادر في السادس من حزيران.

خطر الفورة الاقتصادية و التضخم في البلدان الصاعدة

يتساءل (توماس فريك)، محرر الصفحة الاقتصادية في النسخة الألمانية من (فايننشال تايمز) الصادرة في العاشر من حزيران، بصوت عال: " ماذا تعنينا أمريكا؟" ويضيف " تقل أهمية اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية باستمرار بالنسبة

للاقتصاد العالمي. يقترب اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية من الوصول إلى ما يقارب ربع الإنتاج العالمي، وإذا دخلت هذه القاطرة الاقتصادية العملاقة في دوامة الأزمة فأنها ستجر اقتصاديات أخرى معها للقاع، لاسيما وان الولايات المتحدة تمتص 13٪ من الواردات العالمية و تهيمن على 9 ٪ فقط من الصادرات العالمية ".

استطاعت ألمانيا أن تعوض انخفاض صادراتها للولايات المتحدة الأمريكية بارتفاع صادراتها إلى الصين، إذا انخفضت الصادرات الألمانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية من 8.5٪ في عام 2007 إلى 6.8٪ في الفصل الأول من عام 2011 و بالمقابل ارتفعت الصادرات الألمانية إلى الصين من 3.1٪ إلى 5.8٪. إن ارتفاع التبادل التجاري بين البلدان الصاعدة دليل على تناقص الاعتماد على اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية. تستفيد البلدان الغربية المصدرة، مثل ألمانيا، من النمو القوي لاقتصاديات بلدان آسيا و أمريكا اللاتينية، فألمانيا تستطيع تصدير كل ضرورات الطلب الصيني كالمكائن و معدات الأسلحة، وكذلك كل ما يحتاجه الاستثمار المتفجر والسلع الاستهلاكية الفاخرة للطبقة العليا و المتوسطة التي تمتاز بقوة شرائية عالية و تقبل على شراء السيارات المتميزة والمجوهرات و الساعات و الأزياء الحديثة. ازدهار الاستثمار في الصين و البلدان الصاعدة الأخرى ينتج طاقات صناعية ضخمة و التي يمكن استيعابها فقط باستيرادها من قبل عملاء في الغرب وليس إفشال الطلب عليها، أو خفضه في حالة حدوث ضعف اقتصادي، و بخلاف ذلك ستتراكم المنتجات بسرعة فائقة و ستدفع على الأقل شركات التصدير الصينية متوسطة المستوى، و التي تكتفي بهامش ربح منخفض إلى الإفلاس.

يضاف إلى ذلك أن جميع البلدان الصاعدة تعيش الآن مواجهة مع تطور قوي للتضخم و ارتفاع للأسعار يتراوح بين 5.5٪ في الصين و6.6٪ في البرازيل و 9.1٪ في الهند (وفق مؤشر أسعار تجارة الجملة)، و أسباب ذلك تعود إلى ارتفاع أسعار المواد الخام و الطاقة في البورصات العالمية، والى الفورة الاقتصادية، و خصوصا إلى الارتفاع الانفجاري لأسعار المواد الغذائية التي ارتفعت، على سبيل المثال، في الصين بنسبة 12٪ و في الهند بنسبة 18٪. وتحتل أسعار المواد الغذائية وزنا هاما جدا في سلة السلع في هذه البلدان، وتلعب دورا أساسيا في تحديد معدلات الغلاء. فعلى سبيل المثال تبلغ حصتها في الهند 47٪ و في الصين 33٪، في حين تبلغ في ألمانيا 9٪ فقط.

والوسائل التي تواجه بها الصين و الدول الصاعدة الأخرى التضخم تتمثل في رفع سعر الفائدة و الحد الأدنى من الودائع الاحتياطية للبنوك (ارتفعت الى 21.5٪)، وضع قيود على القروض، وتدابير لكبح جماح أسواق العقارات ...الخ من ألإجراءات التي تهديء الفورة الاقتصادية و تحقق " هبوطا هادئا"، وعليها أيضا أن تحد من النمو في هذه البلدان وتؤدي إلى خفض الواردات. وقد أوضح نائب وزير التجارة الصيني (تشونغ شان)، أن التدابير الحكومية أدت إلى تهدئة الفورة الاقتصادية وخفض الواردات في النصف الثاني من

السنة (جريدة جينا دلي في 6/19/ 2011). وتسعى الصين في خطتها الخمسية، المبنية على الاقتصاد في المواد الخام و التقليل من الإضرار في البيئة، إلى تحقيق نمو في الناتج الإجمالي المحلي بنسبة 7 ٪ بدلا من 10٪ هي نسبة النمو الحالية.

الاتحاد الأوربي: من أزمة الديون إلى أزمة في الاقتصاد الحقيقي

تبلغ حصة منطقة اليورو من الصادرات الألمانية40.6٪ وحصة بلدان الاتحاد الأوربي59.9٪، ومهم جدا لإستراتيجية التصدير الألمانية أن لا تتقلص هذه الدائرة و لا ينخفض مستواها لأنها تمثل المجال الأساس لتصريف الصادرات الألمانية، و إذا ما حدث ذلك فأن النية تتوجه للتوسع في التصدير إلى آسيا.

ويبدو من غير المرجح الحفاظ على هذا الواقع الآن، فبلدان الاتحاد الأوربي تئن تحت وطأة أزمة الديون و بعض بلدان الأطراف الأوربية مهددة بالإفلاس. ويجري العمل، وفي كل مكان، على إعادة تنظيم الشؤون المالية للدولة، و يجري في البلدان الأخرى الاقتداء بالنموذج الألماني لفرملة الديون (تحدد قاعدة قانونية دستورية الحدود الممكنة لمديونية الدولة في ألمانيا – المترجم) ويؤخذ به في القوانين الأساسية وربما يثبت ذلك في الدساتير. وإلى جانب بلدان)- PIIGSمختصر لأسماء البرتغال،ايطاليا، ايرلندا، اليونان، اسبانيا – المترجم) يجري تطبيق سياسة التقشف في بريطانيا العظمى، البلد الأكثر تزمتا، والتي يبلغ عجز الميزانية فيها10.4٪ وتحتل بهذا المرتبة الثالثة بين مذنبي الديون في أوربا، و تواجه تهديد وكالة تصنيف Moody´s بحرمانها من درجة الجدارة الائتمانية إذا لم تدخر 90 مليار يورو و تقوم بإلغاء نصف مليون فرصة عمل في مجال الخدمة العامة و تخفيض المساعدات الاجتماعية و معونات الأطفال. وهناك ثلاثة أرباع البريطانيين ممن يعتقدون إن التخفيض يمسهم شخصيا، ونصفهم يتخوفون من انزلاق سادس اقتصاد في العالم نحو الركود أو حتى نحو الركود التضخمي (ركود في النمو + تضخم)، لان أسعار المستهلك ارتفعت في مايس الماضي مقارنة مع نفس الشهر من السنة السابقة بنسبة 4.5٪.

أدت برامج التقشف، التي تعتمدها جميع حكومات الاتحاد الأوربي، إلى كبح جماح الاقتصاد بشكل هائل. و لا يمكن الحديث عن تحسن اقتصادي حتى في بقية الاتحاد الأوربي الكبيرة: في ايطاليا بلغت الزيادة في النمو 1.1٪ و في فرنسا2.2٪ ، وفي بلدان الأطراف يتزايد خطر دخولها في أزمة جديدة جراء إجبارها على التقشف و تقليص ميزانياتها.

ألمانيا: ازدهار اقتصادي على حساب الجيران !

يتوقع المختصون استمرار انتعاش الاقتصاد الألماني، لان ألمانيا استطاعت أن تخرج نفسها من الأزمة بفعل قوة صادراتها و إن جاء ذلك على حساب الآخرين. فقد ساهمت إستراتيجية التصدير العدائية الألمانية بحصة كبيرة في بؤس الاقتصاديات الأوربية الأخرى، و أدت إلى نزوح المنتجات المحلية من الأسواق الداخلية في هذه

البلدان. و استطاعت عجلة التصدير الألمانية إضعاف قدرة صناعات بلدان الاتحاد الأوربي الأخرى على التنافس و دمرتها جزئيا، وأدت إلى عجز كبير في حساباتها الجارية و ديونها الخارجية. و بالمقابل لم تبذل الحكومة الألمانية و لا الرأسمال أي جهود لتنشيط الطلب في السوق المحلي الذي يرفع بدوره صادرات البلدان الأخرى، و لهذا فان اكبر الرابحين من الأزمة هم شركات التصدير المتوسطة و الشركات فوق القومية التي تتخذ من ألمانيا مقر لها.

يرى رئيس معهد ايفو للبحوث الاقتصادية أن " ألمانيا الآن مليئة بالقوة ". وسيعمد، في نهاية حزيران معهده و خمسة معاهد أخرى إلى تصحيح توقعهم للنمو نحو الأعلى ليصبح 3.5٪ تقريبا، ولكن السؤال ألا تفقد هذه القوة المتبجحة المنتفخة XXL الكثير من هوائها عندما تنفذ طاقة بلدان الاتحاد الأوربي الأخرى و قدرتها على التنفس. " الانتعاش الألماني يفقد من زخمه"، هذا ما أكدته في بداية حزيران جريدة (فرانكفورتر الغماينه تسايتغ) (9/6/ 2011)، ويتفق مؤشر الجريدة الاقتصادي مع مؤشر Barclaysوفق جريدة (الهانلسبلات) (9/6/2011) في إن النمو يسير نحو الأسفل. بعد ظهور الأرقام الايجابية جدا للناتج الإجمالي المحلي للفصل الأول 5.2٪ مقارنة بالعام الماضي ، بدت معطيات نيسان مفزعة حقا، فقد انخفضت بشكل مفاجئ مقارنة بالشهر السابق في الإنتاج الصناعي (-0.6٪) وكذلك في قيمة الصادرات (-5.5٪)، ولم ينخفض حجم التجارة الخارجية منذ عامين بهذه الدرجة. ويمكن أن يعود الاقتصاد الألماني إلى حالة التراجع التي أدت، في العقد الماضي، إلى الركود نتيجة لامتصاص القدرة الشرائية من خلال تخفيض الأجور الحقيقية و الضغط القاسي على أجور الوحدة الإنتاجية أو الخدمية.

الانتعاش الحالي معتمد على ارتفاع الصادرات التي ارتفعت حصتها، في الناتج الإجمالي المحلي، من41٪ في عام 2009 إلى46٪ في عام 2010 ، ويمكن القول إن نصف ما ينتجه الاقتصاد الألماني يجب أن يباع في الخارج، وكذلك الاستثمارات التي يمكن بعدها من قوى السوق الداخلي والتي ارتفعت في الفصل الأول من هذا العام بشكل سريع بمقدار 14.5٪ مقارنة بنفس الفصل من العام الماضي، جاء القسم الأكبر منها لدعم التصدير، لأنه انصب على تجديد صيانة المكائن التي أهملت خلال سنوات الأزمة.

بالمقابل ارتفع الإنفاق على الاستهلاك بالأسعار المعدلة خلال الفصل الأول من هذا العام (فصل انتعاش) مقارنة بالفصل الأول من العام الماضي بنسبة 1.9٪، في حين وصل النمو في الاقتصاد الحقيقي إلى 5.2٪ ، و ركدت الأجور الحقيقية و يتوقع أن تتقلص أكثر خلال العام الحالي. ان 58٪ من الناتج المحلي الإجمالي يعتمد على طلب الأفراد و الأسر، و هو أمر يوضح مشكلة الانتعاش الحالي، الذي هو باستمرار انتعاش الأرباح و الثروة النقدية. لقد ارتفعت واردات الشركات و الثروة في الفصل الأول مقارنة بمثيله من العام الماضي بنسبة 8.7٪.

إن الأرباح التي حققتها الشركات في العام الماضي (123.6٪)، وهي أعلى نسبة

متحققة لحد الآن، تعكس طبيعة التوسع الانفجاري المتحقق. وصلت الأرباح مستوى بفضل الانتعاش بالتصدير وخفض التكاليف (سياسات الادخار في الشركات)، ويتوقع أن يستمر ذلك خلال عام 2011 " الشركات الألمانية تتألق" هكذا تكتب جريدة الهندلسبلات في2011 /4/29، و تضيف " التقارير الفصلية اللامعة تشير إلى إن الشركات هنا تتجاوز بأرباحها حتى توقعاتها المتفائلة و تترك في(الوول ستريت) بقية البلدان الأوربية خلفها".

غير أن أربعة أخماس السكان لا يعنيهم الانتعاش، و التخبط يسود الطاولات المستديرة لتحديد الأجور (بمشاركة النقابات العمالية)، و اعلى نسبة تحققت لرفع الأجور في قطاع الصناعات الكيماوية4.1٪ لا تغطي في واقع الأجور الحقيقية، بسبب ارتفاع معدلات التضخم 2.5٪ – 3٪ و الزيادة في نفقات الضمان الاجتماعي (التأمين ضد البطالة و التأمين الصحي) و ضريبة الدخل التصاعدية.

ويفرض على 20 مليون متقاعد تحمل أعباء ضعف القدرة الشرائية نتيجة لارتفاع الأسعار وارتفاع تكاليف التامين الصحي مقابل زيادة الرواتب التقاعدية بنسبة 1٪ فقط.

و نفس الشيء ينطبق على 6 مليون شخص يعيشون على المساعدات الاجتماعية، تلقوا زيادة قدرها 5 يورو مقابل 10 يورو خسارة في قدرتهم الشرائية نتيجة لارتفاع الأسعار.

* نص التقرير الاقتصادي لمعهد الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية و البيئية - IWS- الصادر في 2011/6/21

حـــــــــــــــوارات

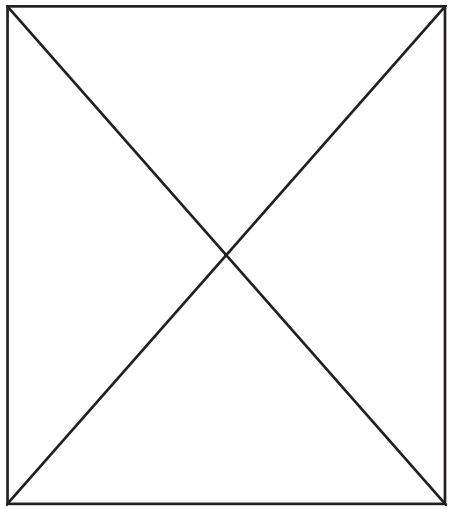

حوار مع الروائي والباحث جاسم عاصي

حـــاوره : سعـــدون هلـيل

ولـد في الناصـرية عام 1945 **عـمل في التعليم الابتـدائي خلال الفترة**1964-2008 **بدأ النشر منذ عام** 1965**في الصحف والمجلات العراقية والعربية. وقد حاز على جائزة مـؤسسة ناجي النعمان في الإبـداع الروائي لعام** 2006 **و جائزة وزارة الثقافة للإبداع للعام** 2010 **الدورة الثانية**

" حكايتي مع الميثولوجيا قائمة على نظرية المعرفة في الفكر الفلسفي "

القاص والروائي والباحث جاسم عاصي، غني عن التعريف. بدأ الكتابة بداية السبعينيات أو قبل ذلك، إننا نتذكر أول مجموعة قصصية له عام 1974 كانت تحت عنوان " الخروج من الدائرة " حتى كتابه " في انتظار الضفاف البعيدة / أربع روايات ". تعاطى الكاتب جاسم عاصي مع كل الهموم الكتابية حتى فيما يتعلق بالتشكيل والأسطورة وتحليل النصوص نقديا، ولم يفته تحليل النص البدائي وقراءة الميثولوجيا قراءة متفحصة ودقيقة. في هذا الحوار كان لنا وقفة كي نتأمل ونكشف عن عوالم الروائي والباحث جاسم عاصي.

● ***لنبدأ معك مع آخر ما كتبته من نتاج أدبي.. ماذا كنت تتوقع من القرّاء حوله*** ؟

– آخر ما صدر لي هي رواية (**انزياح الحجاب ما بعد الغياب**) وهي رواية يسودها المناخ العرفاني، لكنها تتناول محنة الإنسان وهو يصارع الوجود، و فيها المزيج من التراث أسلوباً ولغة من أجل الهم المعاصر. أرى أن عدم توفر الرواية في سوق الكتب أحال دون توقعاتي للانطباع الذي ستتركه عند القارئ. إذ أزعم أني اقتربت من هم كبير في حياتنا، ووظفت الأمكنة التي لم تطأها الرواية العراقية لاسيّما السجون

الانفرادية، التي هي علامة فارقة للشرق كما ذكر (**عبد الرحمن منيف**) في روايته (**شرق المتوسط**). كما تناولت الأمكنة التي تتميز بها المدينة، وهي جزء من تشكلي الذي عملت على صياغته حرب الثمان سنوات وتجلى في بعض قصصي، لكنه تجلى أكثر في هذه الرواية التي فازت بجائزة ناجي النعمان في بيروت عام 2006 وحازت على جائزة الإبداع في وزارة الثقافة العراقية لعام 2010 احتوت هذه الرواية أيضاً على الطقوس الدينية لا من أجل ذاتها، بل من أجل كشف ما هو كامن في الواقع والنفس البشرية من ثورة وغضب مكبوتين، وهي من تأثيرات واقعة كربلاء الدامية، واستشهاد الإمام الحسين (ع).

● ***وماذا يشغلك الآن في حقل الرواية ، بعد أن أنجزت طباعة أربع روايات منذ عام*** 2004 ؟

– ثمة روايتين ، إحداهما بعنوان (الداخل والخارج) وهي رواية أصطلح عليها كما بينت في كتابي النقدي (**المعنى المضمر**) بالرواية المولدة. أي أنها وهي تواصل مسيرتها في السرد تنبثق منها رواية أخرى، وذلك بتوظيف الوثيقة. كما وأنها تتناص مع أحداث في التاريخ القديم والمعاصر. كما وأن رواية أخرى نشرت منها مقدمة أو استهلال في صحيفة الأديب الثقافية تحت عنوان (المستور والمحذور). وهي رواية تستكمل سيرة أنموج من رواية (**ليالي المنافي البعيدة**) الصادرة عن دار فيشون في السويد عام 2009 وهي شخصية (المغفور له أبو زهير ـ محمد بن صادق بن علي بن عبد اللّه الموسوي). انها محاولة لتحقيق وثيقة عائدة للمرحوم أبو زهير الذي عشت معه في محطة أور في الناصرية، وهو عالم دين كبير، انحدر إلى الصحراء فأكلته الذئاب ، فأوصى لي بتحقيق مخطوطته .

● ***وعلى ذكر كتابك النقدي الذي تناول روايات مؤنس الرزاز وتحت عنوان المعنى المضمر، كيف توازن بين كتابة النص الإبداعي والنقد*** ؟

– هذا الكتاب ليس الوحيد في مجال النقد، فقد صدر لي كتابين في نقد القصة العربية تحت عنوان (جوّاب الآفاق) وآخر تناول القصة والرواية العراقية بعنوان (**دلالة النهر في النص**) ولدي تحت الطبع كتابين (**السرد والذاكرة وأنساق المعنى**). وفي هذا لا أرى ثمة ما يُعيق العملية الإبداعية، فكلا الجهدين يصبّان في حقل الإبداع ـ كما أرى ـ . ولكي أطمأنك أكثر فأذكر أن كتاباً تحت الطبع يحتوي على دراسات في الفن التشكيلي تحت عنوان (**الحلم والأسطورة**)، وأعمل في كتاب عن فن الفوتوغراف العراقي تنظيراً وتطبيقاً تحت عنوان (**العصا والضوء**). كلها حقول معرفية، فتحت لي آفاقاً واسعة لرؤية الواقع والتاريخ بعيون عديدة . كما وأن هذه الكتب وفّرت لي فرصة الإطلاع على الأدب الأردني والفلسطيني والسوري، كنتاجات (خليل السواحري، غسان كنفاني، إميل حبيبي، عبد اللّه تايه، المتوكل طه، غريب عسقلان، حزامة حبايب، سميحة خريس، هاشم غرايبة، ومحمد رفيق عوض، عزت الغزاوي) والأخير حررت عن نتاجاته الروائية كتاب تحت عنوان (**أنساق المعنى**) سيصدر عن وزارة الثقافة الفلسطينية في رام اللّه . وهو روائي يشكّل الحلقة المجددة والممتدة بعد

(إميل حبيبي وغسان كنفاني).

● ***كيف وجدته كروائي مجدد ؟ وفي أي الاتجاه كان التجديد عنده ؟***

– لعل وجهة النظر كفلسطيني عائد من المنفى بعد اتفاق أوسلو. هذه النظرات دفعته إلى أن ينظر إلى النص الروائي، نظرة توازي ما يحمله من اتساع الرؤى لديه. وقد التقيته مرة واحدة قبل وفاته، ودار بيننا حوار طويل شارك فيه الروائي (**عبد اللّه تايه**) والروائية (**نعمة خالد**) فتلمست عنده اندفاعا لذلك ورصانة كبيرة في ما يُصرّح ، وكنت قد قرأت له روايته (**عبد اللّه التلالي**). من هذا بدأت الحفر في سردياته، وهي عبارة عن ست روايات، ألحقت بها بعد وفاته رواية (**المسيح**) قرأت منها فصلاً واحداً منشوراً في مجلة عربية . إنه يعمل على تعشيق السرد بالموروث، مستفيداً من التقنيات الحديثة في كتابة الرواية.

● ***هل إن مشروعك في دراسة النص القصصي قائم على المزج بين الرؤية الأسطورية والواقعية؟ أم أن مسارك النقدي له مفرداته الخاصة قبل أن تقرأ النص ؟***

– في دراساتي النقدية يكون النص المقروء حاملا للمنهج الذي سيُدرس بموجبه، لأنه أساساً كُتب برؤى متعددة ، ذات تبئيرات مختلفة ، لكنها متجاورة ، تمثل وعي الكاتب. لذا فالنقد بهذا يؤسس وعياً آخر مجاور ومحايث للنص، لاسيّما أن بعض النصوص حمّالة أوجه، بسبب الوعي الصاعد للمنتج، الذي يستخدم تقنيات ورؤى متشابكة وأساسية، تُحيل إلى مداخل نقدية، لابد من بذل الجهد الكبير في استقبالها. هذا حاصل من فرضية عامة، أما في خصوصية النص، فلابد من البحث عن اشتغالاته، فهو في أحايين كثير تكون العلامة أو الإشارة ما يدفعك إلى تعميق قراءته بهذا الاتجاه أو ذاك. فليس ثمة قسر على قرائتي للنص، والذي يقود إلى التبويب وليّ العنق. فالنقد نص إبداعي آخر لابد من توفير مستلزمات النهوض به وبقدراته، لا أن يكون منسوخاً ومكرراً عبر التعكز على آراء الآخرين خارج النص. فحين تكون ثمة علامات تُشير إلى فعل أسطوري في النص، لابد من استدعاء كل إمكانيات القراءة الأسطورية له. وهذا ليس بالهيّن كما يبدو للبعض، سواء المعترضين على محتوى النص في كونه يوظف الأسطورة، أو عكسها. هؤلاء يستندون على شكل متخلف للتوظيف، وفهم قاصر للأسطورة، باعتبارها متن معرفي قديم. الأسطورة ليس هكذا، فهي تعيش معنا وتتحكم بأفعالنا، ولكل عصر وزمن أساطيره. الأسطورة رؤية معرفية شأنها شأن المعارف الأخرى، وسبيل لتجديد حيوية النص. وهنا لابد من ذكر أن توظيفها يتطلب مهارة معرفية خلاقة وليست مؤسسة لحائط ظل. كما وأن ذلك يوجب للناقد أن تكون له رؤى ومعرفة أسطورية، لكي يتوقف على المتون التي اعتمدها المبدع، خاصة النص الذي يتماهى مع متن أسطوري ولا يبوح به مباشرة . كما وينبغي الانتباه إلى ما يصطلح عليه تخليق الأسطورة، ـ الأسطرة ـ منطلقين من تعقيدات الزمن والعصر كما نعيش الآن من اشتباك وتداخل ورداءة الوضع السياسي. إن الأسطورة ليست وجبة جاهزة للمنتج، وإنما هي جهد كبير ومضني. في الشطر الثاني من السؤال، أؤكد على أنني لا أوفر الأسس التي سوف أعتمدها في قراءة

النص ثم الكتابة عنه، بل أساير النص وأكتشف توجهاته ، ومن بعد ذلك تكون الكتابة أكثر منطقية وموضوعية، فهي لا تعلو على النص، بل تحترمه باعتباره مجهود إنساني كبير، يركن وراءه مبدع .

● ***بعد هذه الممارسات النقدية التي ضمتها كتب مطبوعة ، كيف تجد تأثير النقد على إبداعك القصصي والروائي ، وماذا تعلمت من النقد باعتباره فعالية منتجة لذاته وللنص المقروء ؟***

– له تأثير كبير على نتاجي الإبداعي كما ذكرت وأنا بصدد الإجابة على بعض الأسئلة في حوارنا هذا. لكني أؤكد على أن الإطلاع على نتاج الآخر وبنفس نقدي، يُضفي على آلية المنتج نوعاً ونشاطاً ، لأن ما قرأه ونقده، فعل إبداعي لابد أن يواجه الاستجابة المعرفية العامة باعتباره ـ أي النص ـ معرفة ، ثم أنه يُعطي إضافة نوعية للآخر. هكذا تعاملت مع النص، أخذاً وعطاءً، فشدَّ من أزري وقوّم من مسيرتي، فنحن أسرة تنتج نصاً موحداً .

● ***مرت على العراق حروب مدمرة، وسقطت على أرضه ملايين القنابل والمتفجرات، هل غيّرت هذه الحروب المدمرة رؤية الأديب جاسم عاصي إلى الواقع؟ وهل بقيت مفردات ومصطلحات النقد مثلما هي قبل مرحلة الحروب ؟***

– السؤال يُحيلنا إلى حقل الإبداع في حياتي الثقافية قبل النقد، ولنبدأ به أولاً . جميعنا ممن لبثوا في داخل الوطن عانوا الكثير سواء من ويلات الحرب، أو من ظروف الحصار القاهرة. وبالنسبة لي كانت الحرب فيصل مهم كنت أحسه يُهدد حياتي في كل لحظة، لاسيّما حين أصبح لنا أبناء مهددون بالموت. كل ذلك أضاف لي بعداً جديداً لمثل هذا الواقع المدمر، وأنت كنت تعيش معنا هول ذلك، وكنت تناضل من أجل إيصال الكتاب المستنسخ لنا. المهم كنا بفضل هذا وذاك لم ننقطع عن مصدر المعرفة، وهذا مهم جداً لابد من كشف غطائه. كانت الأخبار تردنا في كل لحظة عما يجري، وكنت استعين بأحد الأصدقاء لكي يوفر لي زمن ممارسة التمعن بما تتركه الحرب على الأجساد البشرية داخل قاعات الاغتسال للموتى، فكنت أكتشف ما لا يمكن وصفه. وكان حصيلة ذلك كتابة جملة نصوص حادّة وكاشفة، لكن النقد كان ولا يزال غافلاً عنها. هذه المجموعة نشرتها آنذاك في الصحف العراقية ، ومررتها على الخبير بفضل من كان يشرف على الصفحات الثقافية من الأصدقاء، ثم طبعتها ضمن مطبوعات الكتاب العرب في دمشق تحت عنوان (**مساقط الضوء**) وكان هذا عام 1999 ثم أعدت طبعها ضمن مطبوعات الشؤون الثقافية عام 2006 تحت عنوان (**آخر الرؤيا**). ولم أكن الوحيد من كتب في هكذا نمط، فهنالك (فهد الأسدي، ناجح المعموري، فيصل عبد الحسن حاجم، ثامر معيوف، حاكم محمد حسين، حميد المخنار، كاظم حسوني، حمد صالح، محمود سعيد، لؤي حمزة عباس، قصي الخفاجي، شوقي كريم) وغيرهم الكثير. الخلاصة كان للحرب تأثير مباشر، علماً أني لم أكتب قصة ميدانية، على الرغم من مشاركتي فيها كمقاتل. كانت اهتماماتي منصّبة على التأثيرات التي تلحقها الحرب على حياة الإنسان في الداخل. حتى رواياتي (**ليالي**

المنافي البعيدة ، ما قيل وما ...) لم تتخلص من مثل هذا التأثير .

أما على صعيد الحرب فقد كنت راصدا جيدا لنتاج الحرب قصة ورواية، وذاكرتي تحتفظ بنصوص الأدباء الذين كتبوا قصصا وروايات تُدين الحرب أمثال (حمد صالح، نعمان مجيد، جهاد مجيد، ناجح المعموري، يوسف يوسف، فرج ياسين، قصي الخفاجي، لؤي حمزة عباس، كتّاب مطبوع البصرة أواخر العشرين) وغيرهم . إن الإهمال الذي لاقته نتاجات الحرب في بلدنا هو إدانة للذاكرة العراقية، لأنها انطلقت من رؤية ضيقة، تنظر بعين واحدة، ومشوبة بضيق الأفق وانحسار الرؤية التي تفتح آفاقا واسعة أمام الناقد. وقد كانت دعواتي للعمل على فرز مثل هذه النصوص وعدم إهمال أي منها لأنه جزء من الذاكرة الجمعية العراقية والإنسانية، وكنت أستحضر ما قاله (**لينين**) للثوار من العمال والفلاحين وهو يعملون على تحطيم ما احتوته قصور القياصرة بقوله: ماذا أبقيتم للأجيال القادمة كي تعرف لماذا ثرنا على سالبي حقوق الشعب ..؟

هكذا تعاملت مع نتاج الحرب وما زلت من باب الذاكرة العراقية. وهنا لابد من ذكر مسألة مهمة قلتها آنذاك وفي ما بعد والآن .. من أن نتاجاتنا الإبداعية لا تتخلص من تأثيرات الحرب لأمد طويل، لأنها وسمت ـ أي الحرب ـ الشخصية العراقية ، وهيمنت على الذاكرة الفردية ، لكن ما يتغير هو الأساليب التي تُكتب بها هذه الرؤى.

● ***بتأثير هذه الظاهرة المدمرة ، هل ترى من وجهة نظرك بقاء مفردات الكتابة الإبداعية دون تأثير سلبي ، وهل تأثرت مصطلحات النقد بالمتغيّر الذي يزرع اليأس لدى الإنسان أم بقيت كما هي قبل مرحلة الحروب ؟***

– كان التأثير وما زال، وسوف يبقى ملازماً للنص المكتوب أو الذي سيكتب، إذ ليس من السهل التخلص مما تحمله الذاكرة، لاسيّما ما استجد من دمار مابعد 2003 لقد تكرست من جديد صورة الحرب، وأصبح القتل يعيش بين الناس، وتسيدت ظاهرة الفقدان ..!

● ***من هذا نجدك تطالب بدراسة فاحصة لأدب الحرب عندنا ؟***

– لاشك، وأواصل المطالبة، لأنه جزء من الذاكرة ومن مشهد الثقافة العراقية، علينا أن لا نقبره تحت ضغط أية حجة خارج منطق الإبداع الأدبي .

● ***وما هو تقييمك للنتاج الإبداعي ما بعد التغيير الذي حصل في عام 2002 ؟***

– لا يمكن إعطاء تصور عنه بهذه العجالة، فهو ما زال ظلاً لمجريات سابقة.

● ***كيف ينظر المثقف إلى الأوضاع السياسية في العراق؟ خاصة وان هذه الحكومات المتعاقبة أهملت الثقافة والمثقفين، هل لديك تصور ما عن تطوير عمل المؤسسات الثقافية ؟***

– الاهتمام بالثقافة لا يأتي عفوياً ، فهي من ضمن البنية العامة للمجتمع، لذا يتوجب أن يكون الاهتمام بها من ضمن الأولويات التي توليها الحكومة داخل الدولة الحرة. وهذا يتوجب في أول ما يتوجب أن تكون للقوى الفاعلة والقائدة للعمل السياسي للبلد كالأحزاب السياسية أن تكون لها تصورات تنبثق من رؤاها السياسية تتضمنها برامجها

ونظامها الداخلي، كذلك ما تفرزه اجتماعاتها الدورية وكونفرساتها التي تتجدد بتجدد الظروف الموضوعية. هذا التصور من البديهيات. ومن هذا نرى أن ما آلت إليه الثقافة باعتبارها ترتبط بالوعي العام في البلد، واجهت الإهمال والصدود، باعتبارها منفذ ثانوي. الثقافة تعني التربية والتعليم في كل مراحله، ابتداء من رياض الأطفال وصولا ً إلى الدراسات العليا، مبنية على أسس علمية، يقوم عليها اختصاصيون مشهود لهم بعلميتهم، وقدرتهم على أن تفرض تصوراتهم برامج ً يُسهم بها الجميع. في هذه المقاييس نجد أن معظم ما هو محرك للعملية السياسية منذ احتلال العراق وللآن يعتمد على المحاصصة وإرضاء الأطراف، وهي في مجموعها عبارة عن أفراد وتجمعات غير متجانسة في ما بينها، إلا في ما يخص إرضاء الذات وإشباع غرائزها في التملك ، لذا أفرزت هذه الظواهر الفساد ليس المالي فحسب، وإنما الفساد العقلي، بحيث رأينا أن الشعب وهو يعيش ضمن محرقة الزمن غير أبه بذلك، لا تحركه سوى الخرافة لأن عقله غير متنور أساسا ً، بل منقاد إلى مفاصل كثيرة ومضّرة في الواقع والتاريخ . لقد انحرف العقل برأيي عن جادته المركزية والتي نعول عليها أن تكون الحجر الأساس في التوجه نحو المستقبل بشهادة فعالية الحاضر. نحن لا نجد أية خطوة باتجاه مستقبل يعوّل عليه، كل الذي نراه تراكم في الخسارة التي سببها فساد الإنسان، والذي هو محصلة نهائية ومستمرة لغياب القادر فعلا ً على القيادة. إن فعل أرضيك فترضيني، واغفل عنك فتغفل عني في الخطأ المتوارث والمتراكم، قد أضر بالبلد، وسيلحق به الضرر لأزمنة قادمة. إن الخديعة التي تقول وتدعي أن الأعمار ـ البطيء ـ في بعض مفاصل البلد تؤدي إلى تطوره، لابد من القول أن هذا غير صحيح ، لأنه في المقابل ببطيء كثيرا ً في تنمية العقل، وصياغته من جديد، ليس على جادة الحزب أو الكتلة أو الطائفة، بل على جادة الوطن والمواطنة، نحن إزاء إعادة الوطنية للإنسان العراقي، عبر إعادة ثقته في نفسه التي غيبتها السياسات الخاطئة والحروب المدمرة، والفقر المدقع الذي يعاني منه الإنسان. لقد بلغ معدل الفقر في العراق الآن مبلغا ً كبيرا ً، فلو رصدنا بالعين والزيارات الميدانية لوقفنا على صور لا يقبلها الضمير الإنساني. إن التقدم الأساس في أن ترى التلميذ يجلس على مقعد دراسي لائق به وبالعملية التربوية، ويتلقى الدرس تحت ظروف مناسبة، لا تحت فقدان الكهرباء، وقلة الماء الصالح للشرب واضطراب الأجواء العامة.

هذا استطراد يقودنا إلى صلب السؤال، وهو لابد منه لكي يستوضح لنا الأمر وينكشف اللبس الذي نعيش تحت خيمته دون رغبة. لقد عمدت كل الفعاليات الثقافية المحكومة بعدة عوامل ـ لعل التمويل واحد منها ـ إلى إسقاط مبدأ كونها لا ترتقي بالعقل المندثرة أسسه العلمية والاكتفاء بإسقاط الفرض لهذه الفعاليات. المهم أن يكون ثمة مهرجان يصل إلى تصاعد رقمه، إذ لا يهم ماذا قدم، كذلك فعاليات المنظمات الثقافية وعلى رأسها اتحاد الأدباء سواء المركز العام أو في المحافظات. إن كل هذا سيضعنا في دوامة لا فكاك منها ، بل الخطر الذي تولده بمرور الزمن، هو التخلف، ثم

التخلف، وانتصار الخرافة التي تقود البلد إلى عصر أسود ظلامي .

● ***أنت كما هو شأن العديد من مثقفي العراق تعيشون في المحافظات. ودور المحافظات في تنمية الثقافة الوطنية هو الأساس، هل تلمسون تعاوناً وتجاوباً من قبل المحافظات بالشأن الثقافي؟***

– كما ذكرت لك وأنا بصدد الإجابة على السؤال أعلاه، فلا فرق بين المركز والأطراف، فالذي يجري على الفوق يجري بطبيعة الحال على التحت. أنا لا أعتقد أن ثمة تعاوناً بمستوى تصعيد وتيرة الوعي والنهوض بما خربته الأزمنة، وآلت إليه العقول. وفي هذا حديث طويل يصعب الخوض به الآن، لأنه كالنفخ في قربة مثقوبة. لكننا بصدد القول والتأكيد على أن منظمات المجتمع المدني قادرة بحكم مبدئيتها الحضارية على تفعيل مثل هذه الأجواء، وذلك بالخروج من تشكيلاتها الفردية في بعضها، والاعتماد على عناصر ذات كفاءة عاليه في مضمار الثقافة تأخذ على عاتقها وضع برامج لفعاليات أساسية وفاعلة وبانية. وأن تكون لمجالس المحافظات متمثلة بلجانها الثقافية فعالية متميزة ومبنية على أساس الارتقاء بالعقل وبنائه. إن أغلب الفعاليات التي تقام في المحافظات مع استثناءات قليلة، هي عبارة عن إسقاط الفرض، وخاصة في البيوت الثقافية. تصور ما حصل من تغيير حين استبدلت تسمية البيوت الثقافية إلى القصور الثقافية. أجد أنه تغيير بالتسمية فقط وليس في البرامج والمهام.

● ***تعيش الثقافة العراقية حال تشرذم مؤسساتها الثقافية، فوزارة الثقافة لديها مؤسساتها في المحافظات، واتحاد الأدباء لديه فروعه، هل ترون أهمية لهذا التفرع؟ أم هو شرذمة وتشتيت للجهود؟***

– أرى أنها حالة صحية، إذا ما أخذت بمحمل ما أشرت إليه سابقاً، إذا ما كان الاعتماد على العناصر الفاعلة وذات الرؤية المتقدمة والعلمية بهذا الشأن. كما وأن على عاتق هذه المرافق أن تعرف خارطة مثقفيها، وتعمل على تفعيل ذواتهم عبر الكثير من قنوات الاتصال دون وضع العقبات غير العلمية، وغير الوطنية وبحجج واهية. إن المهم العمل على تنشيط فعاليات الذات وعدم قبرها بحجج غير منطقية. وعلى سبيل المثال أن الشخص المثقف هذا قد أحيل على التقاعد بسبب العمر، إذا لابد أن يُقبر في منزله. هذا منطق غير علمي ، العمر لا يُحدد القدرة، فرب فتى في عمر الستين . وهذا ما حصل لي وأنا أسس لدار ثقافة الأطفال، والسير بها قدما وفق منهج وضعناه مع زملاء متخصصين، لكن عقبة حالة التقاعد حالت دون استمراري قسراً في العمل، وبسبب أيضاً تغيير مدير الدائرة المركزية الذي يسير وفق قوانين الدولة الصارمة ولا أقول العادلة، فكم من متقاعد حتى في البرلمان حاز على مرتبة كبيرة، دون أن يكون هذا عقبة أمامه . وحتى ما أقوم به الآن كمسؤول لمعرض الكتاب التابع لدار الشؤون الثقافية. إذ وقفت القوانين عقبة أمام السيد المدير العام، فلجأ إلى الأجور اليومية المجحفة. إننا بحاجة إلى قلب موازين الأشياء والثورة على ذواتنا في هذا المضمار، من أجل الخروج من شرنقة صُنعت لنا من مادة البلاستك .

● ***الكتاب العراقي مشكلة بدون حل، وما نعنيه بالكتاب العراقي الثقافي ليس هو ديوان الشعر ولا القصة ولا الرواية فقط، بل كتاب الثقافة العراقية الذي يعالج مشكلات اجتماعية وتقنية وعمرانية وآثارية وسياحية وإنسانية وغيرها، هل من الضروري وجود خطة لإنعاش مثل هذه الحقول المهملة ؟***

– دعنا أولاً نتلمس تأثير الكتاب على العقل، وسأذكرّك بالظروف التي مر بها العقل وأنت من المصادر التي دافعت عبر كتاب الاستنساخ. والتلمس يتشكل بأسئلة مفادها؛ لماذا الحصار ؟ وهل هو اقتصادي فقط ؟ ولماذا الانغلاق على الكتاب وتحجيم حركة سوقه ؟ هذه الأسئلة تصب في ما نحن بصدد دراسته، وهو علاقة الكتاب بالعقل، وبالتالي بالشعب الذي يفيض عليه الوعي، فيتلمس طريقه. الدوائر المشبوهة لا تريد للعقل أن ينهض، لأنه سينبه على حراكها المضر بالإنسان، وبالتالي يُفشل مخططاتها. أنا لا أؤمن بنظرية المؤامرة، غير أن الخرائط منسوجة عبر الأزمنة كخارطة كيسنجر مثلاً لرقعة الشرق الأوسط . إنها ليست المؤامرة، بل هي الانقضاض على الذاكرة. وهنا يحضرني سؤال، ما المدى البسيط الذي يعرفه تلميذ الابتدائية وطالب الإعدادية والجامعة، عن آثارنا ورموزنا القديمة، ربما سمعوا عن حمورابي أو جلجامش، ولكن لم يتعرفوا على واحد بالمائة عنهم. غير أنهم يعرفون الكثير عن الغزاة كالقعقاع وخالد ابن الوليد وصلاح الدين الأيوبي. وهذا ينسحب على مجموع الشعب. السؤال ؛ أين القصور؟ والجواب ينسحب على كل المعارف والأجناس وضروب الثقافة. العقل في طريقه إلى التخزين وتحديد المحتوى، بل تسميته، بينما مجاله وفعاليته التنوع والشمولية، والنظرة الجدلية في ما هو مطروح. تصور اتهمتني مرة إحدى المعلمات حين كنت أعمل في حقل التربية وقالت بالحرف الواحد؛ أنت ملحد ..! وحين سألتها لماذا ؟ قالت أنت صديق أخي، وأخي علماني لذا فأنتما ملحدين .. تصور ؟!

فسؤالك محدد بالكتاب، وهذا هو الذي سحبنا إلى ما كنا عليه. فالكتاب كان ذي فعالية، وشرائح المجتمع كانت تعرف كثيراً عن علي الوردي ولينين والطبقة العاملة والفلاحين، وتعرف المستويات التي تحفل بها الساحة العالمية والعربية، وتحلل عبر تراكم الأخبار قبل أن يظهر هيكل بتحليلاته النبوئية الفارهة ! لقد صادفني فلاّح في قعر الأهوار، حين كنا نستمع للمذياع وهو يبث أخبار معارك تشرين. وبعد الانتهاء سأله أحدهم عن رأيه قال بعفوية طبقية بعد أن هزّ ساعده بدوائر إنها (داوركيسه) وعني بالفصيح مؤامرة. وهذا حدث قبل أن يُعلن حكيم العرب (محمد حسنين هيكل) بأنها حرب تحريك وليست تحرير. السؤال ؛ من أين أتى مثل هذا الوعي للإنسان البسيط ذاك ؟ والجواب؛ من المجالس التي كانت بمثابة مدارس، إنه تعلم في مدرسة الحياة، فقد كان يحيط به الكتاب عبر حامله المعلم في ريف الجنوب وأقاصي الصحراء والمناطق النائية، لذا كان فم الطبقية المعادي للعلم والمعرفة يُطلق على المعلم كنية (أبو راضي) سخرية منه، أي أنه انتهازي ..؟! هكذا حال الكتاب الذي يعاني من سوء التوزيع والتحجيم، فلابد من مؤسسات عملاقة تدير شؤونه عامة وتبث ما يحويه

كـزاد للعقل. كما لابد من أن نكون أمام الكتاب ولا نبتعد عن محتواه لأنه يُخالف محتوى عقولنا المبرمجة. إنها أزمة كبيرة ، والقضاء عليها يعني القضاء على معطلي العقل .

● ***مهرجانات كثيرة، ولكن غالباً ما تفشل في توصيل هدفها للناس، خاصة وان بعض الشعراء يفرضون وجودهم بقوة أحزابهم وليس بقوة معارفهم، وإذا لم يدعوا لمهرجان توسطوا آخرين لدعوتهم، هل تجدي مثل هذه التوسلات بصناعة شاعر*** ؟

– هل نسمي هذه مهرجانات فعلاً ، إذا ما احتكمنا إلى صيرورة مثل هذه الفعالية ..؟ الجواب؛ كلا، ذلك لأنها بطبيعتها تنفذ ضمن فعاليات إسقاط الفرض . فلا إعداد جيد، ولا تنظيم مناسب ومعقول، ولا جلسات منظمة وتُعطي نتائج، ولا متابعة لما أتخذ من قرارات وتوصيات للدورة السابقة . فمهرجان يقرأ في جلساته أكثر من ثلاثين شاعراً ، ماذا تنتظر نتائج القراءة ـ تضيع التجارب الناضجة أمام (والآن سأقرأ لكم قصيدتان) !! فبعض ـ الشعراء ـ يمتطون المنصة ولا يحترمونها، كونها استقبلت قبلهم شعراء أفذاذ ومرموقين تاريخياً وأدبياً . كما وأن أغلب جلسات المهرجانات ارتجالية، دون تحضير لا للجلسات ولا للبحوث ولا لتنظيم مدارات الجلسات واعتباراتها ولا أقول قوانينها. إننا عفويين في كل شيء. لذا لا تعطي مهرجاناتنا شيء يذكر، فقط يعود المدعوين إلى بيوتهم كما عادوا لولا خيبة الأمل التي يحملها البعض الحريصين على حركة الثقافة، أما الآخرين فقد أكلوا وشربوا وناموا وتمتعوا بسفرة مجانية لا غير، وعادت جيوبهم الثقافية فارغة كما جاءت.

● ***الذائقة الثقافية والنقدية تتجه للحداثة، وما بعد الحداثة، في حين أن البعض يكتب القصيدة العمودية العادية ويعتبرها حداثة، هل مفهوم الحداثة يفرض تطوراً في إشكال التعبير أم مفهومها خارج هذه التجديدات*** ؟

– هناك إشكالية معرفية بما يسمى حداثة وما بعد الحداثة ـ كما ذكر الشاعر (سركون بولص) في إحدى المقابلات ـ . فنحن قد اجتزنا الحداثة بعد أن مارسناها، وسرنا باتجاه ما بعد الحداثة ..! وكأن الحداثة وما بعدها عبارة عن وصفة طبية نأخذها من الصيدلاني بدلالة الطبيب المختص. وبهذا نلغي الزمن وحركته، النتاج الحضاري وصيرورته، الجدل في التاريخ ونتائجه. وبعد كل هذا حركة الثقافة مقابل حركة الذات المنتجة لها. هذا الإشكال سائد وينبئ بانحرافات كبيرة تصل حد مسخ الأشياء. وهذا ما نلاحظه في الوسط الثقافي والأدبي. فالكتابة لا ترتكز على عفوية منضبطة، بإحالات معرفية، وقدرة مكتسبة تومئ بمرجعية النص دون الإعلان عن مصادره. نحن لا إشكال لنا حول نوع الكتابة، بقدر ما لنا مثل هذا الإشكال مع القدرة التي تمارس هذا النوع أو ذاك. فخذ على سبيل المثال الشعر، ثمة من يكتب الشعر العمودي بدون موهبة، لذا فشعره خال من الشعرية، وآخر ينطلق من الشعرية فتتلمس في شعره الشعرية. وهذا أيضا يسري على شعراء التفعيلة وقصيدة النثر. فكم من شاعر استسهل نظام البيتين فوقع في فخ المعنى المفجع، وكم من كتب قصيدة النثر وعدها

أسهل الأجناس، فارتكب خطأ كشفته ضحالة النص، لأنه انطلق من ظاهرة تصورها حقيقة هي خلو قصيدة النثر من الوزن لأنها طلقت بحور الخليلي، ولم يدر هذا الجاني أن لها إيقاعها الداخلي ونظامها الصارم أيضاً خاصة اللغة الشعرية وتراكيبها وطبيعة بنيتها. وكما يسري هذا إزاء استثمار الموروثات والأساطير والحكايات في النص شعراً كان أو سرداً . فوجده البعض موئلاً لمسايرة ـ الموضة ـ كما يعتقد فوقع في فخ الاستنساخ والنسخ، وليس التناص الذي له قوانينه الإبداعية وتناسى معرفياً إن لكل هذا المصادر لغتها وصيرورتها الشكلية والبنائية فوقع في فخ التقليد لا الاستجابة المعرفية التي يتوازى من خلالها ما كان وما يجري وما سوف يكون. ولنا في قصص (الطائر زو، الحكماء الثلاثة، مملكة الانعكاسات الضوئية، نيدابا) مثلا في القصة، ونصوص روائية مثل (بطاقة يانصيب، نافذة العنكبوت، دومة الجندل ، ما قيل وما....، ليل الملاك، شرق البصرة شرق السدة، مدينة البحر) على سبيل المثل. هذه النصوص حاولت أن تكون جزءاً من زمنها، وبالتالي من حداثتها. فالحداثة معناها أن تتوازن مع ما هو مستجد، وتحاور بممكنات عصرك، وجدلية الواقع والتاريخ. أما أن تخضع النص إلى فبركة المستورد، فهذا يعني الوقوع في فخ ـ التجديد ـ الذي لا يشكل تاريخه. أم تكون حداثوي ، فهذا يعني أن تنطلق ذاتياً ، من معارفك ورؤيتك.

صدر له:

1- الخروج من الدائرة (قصص ـ مطبعة الغري/ النجف 1974)
2ـ خطوط بيانية (قصص ـ دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد 1980)
3ـ الحفيد (قصص ـ دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد 1988)
4ـ مساقط الضوء (قصص ـ إتحاد الكتّاب العرب/ دمشق 1999)
5ـ نهوض (يوميات ـ دار الشؤون الثقافية العانة/ بغداد 2001)
6 ـ لليالي حكايات (قصص ـ دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد 2001)
7 ـ صلاة الظهيرة (قصص ـ دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد 2002)
8 ـ المعنى المضمر (دراسات ـ دار الكرمـل/عمـّان 2003)
9- مستعمرة المياه (رواية ـ دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد 2004)
10ـ دلالة النهر في النص (دراسات في القصة والرواية العراقية – دار الشؤون الثقافية– الموسوعة الصغيرة 2004 العدد9)
11ـ جوّاب الآفاق (دراسات في القصة ـ دارالكرمل/ عمان 2004)
12- انزياح الحجاب ما بعد الغياب (رواية ..ط١ صدرت باللغتين العربية والإنكليزية ـ دار ناجي النعمان ـ بيروت 2006).
كما هناك طبعة ثانية لذات الرواية صدرت في عام 2009عن مركز بابل للثقافات السويسرية العراقية.
13ـ آخر الرؤيا (قصص دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد 2006)
14ـ ملكوت البراري (قصص / إتحاد الأدباء والكتاب / العراق 2007)
15 ـ ليالي المنافي البعيدة (رواية / دار ميشون ميديا ـ السويد 2009)
16ـ ما قيل وما ..... (رواية / دار الينابيع ـ دمشق 2009)
17 ـ مرايا الشعر (دراسات في الشعر العربي / مؤسسة كلاويز ـ السليمانية 2009)
18ـ في انتظار الضفاف البعيدة (أربع روايات / دار تموز ـ رند للنشر والتوزيع 2011)

أدب
و
فن

كزار حنتوش: مساء سبعيني... وقصيدة ضائعة

إلى الأعزاء أدباء الديوانية لمناسبة مهرجان كزار حنتوش الشعري الرابع، وإصدارهم مؤلفاته الكاملة

❖جـــاســم العـــايف

جاسم العايف، عضو اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين، واتحاد الكتاب والأدباء العرب، وعضو نقابة الصحفيين العراقيين. رئيس تحرير جريدة مهرجان "المربد" عام 2006 في عام 1965 نَشر نتاجه الثقافي- الأعلامي في صحف ومجلات عراقية وعربية، وكان حينها سجيناً في سجن الحلة لمدة ثلاث سنوات. واستمر نشاطه بعد ذلك حتى عام 1979 حيث انقطع عن النشر. بعد سقوط النظام في/ 9 نيسان عام 2003 عاود العايف النشر في الصحف والمجلات العراقية والعربية وايضا على العديد من مواقع الأنترنت. صدر له كتابان: (قراءة اولى - 2010) و(قتل الملاك في بابل.. المفكر والناقد قاسم عبد الأمير عجام نصّا ورثاء – 2010 وهو عمل مشترك)، كما له كتابان جاهزان للطبع.

يقع (مقهى أبو مضر) قبالة نهر العشار في قلب مدينة البصرة... لا يفصله عن النهر إلا شارع ضيّق ما أن تعبره حتى تكون على رصيف ينتهي بدكّة إسمنتيّة تحوّلت في السنوات التي ازدهر خلالها المقهى إلى مصطبة طويلة يتراصّ عليها يومياً عشرات المثقفين والأدباء والفنانين ما أن يحلّ المساء. وكان ذلك المقهى الضئيل حجماً، الخطير صيتاً أقرب إلى صالون ثقافي للحوار في شؤون الأدب والفن والسياسة بين مثقفين متنوعي المشارب والاهتمامات فيه يلتقون ومنه ينطلقون لاستكمال حوارهم في دورة الليل، يوم كان لمدينة البصرة ليل للفرح والمتعة.

وجد مثقفو البصرة في (مقهى أبو مضر) الذي حصل على لقب (مقهى الدّكة) بسبب

دكّته الشهيرة، ما يعوضهم عن غياب مبنى خاص بفرع اتحاد الأدباء في مدينتهم، هذا الفرع الذي تجاهل المعنيون الرسميّون بالشأن الثقافي آنذاك ضرورة افتتاحه، في ظلّ ضآلة عدد الموالين لهم بين أوساط أدباء ومثقفي المدينة.

مرّ وجلس في هذا المقهى، على صغر حجمه، عشرات الأدباء والكتاب والصحافيين والمثقفين العراقيين، لا تسعفني الذاكرة على تذكرهم جميعاً. لكني أذكر منهم أ.د. شجاع العاني، بحكم عمله أستاذاً بجامعة البصرة، والقاص عبد الستار ناصر، والراحل الشاعر صاحب الشاهر، والمعدوم شنقا حتى الموت، الناقد الحلي قاسم محمد حمزة والشاعر الشعبي عزيز السماوي وشاكر أيضاً، والناقد والصحفي محمد الجزائري، والشاعر عواد ناصر، والباحث د.فالح الحمراني، والصحفي سلام مسافر، والكاتب حسين علي عجه، والشاعر عبد الرحمن طهمازي خلال سني عمله مدرساً في البصرة، والقاص إبراهيم احمد، الذي كان يعمل في جريدة (طريق الشعب)، وحتى الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد، الذي صحبه إليها القاص المغترب، حالياً، احمد أمين، ولم يقدمه لنا فتجاهلناه تماماً. ومرةً احتسى الشاي فيها، في وقت متأخر من الليل، الراحل الفنان إبراهيم زاير، والقاص جمعة اللامي، بصحبة محمد خضير والفنان التشكيلي شاكر حمد وأنا، عند زيارتهما الخاطفة للبصرة، والصحفي والناقد التشكيلي إسماعيل زاير، خلال تأديته خدمته العسكرية والقاص والروائي، بعد ذلك، نجم والي، خلال تأديته الخدمة العسكرية، بصفة مترجم للخبراء الألمان (الشرقيين) في القوة البحرية العراقية. ذكر ليّ الشاعر طالب عبد العزيز انه والشاعر عبد الزهرة زكي، الذي كان طالباً بجامعة البصرة، كانا يترددان على المقهى، لكنهما أحجما عن التعرف علينا. ومن الأدباء العرب الروائي إسماعيل فهد إسماعيل، والشاعر محمد الأسعد، وشقيقه الشاعر صبحي الأسعد، والكاتب والصحفي غازي القناعي، عند زياراتهم المتكررة للبصرة، بصحبة بعض الأدباء والفنانين والصحفيين الكويتيين، وغالباً ما يحدث ذلك مساء يوم الخميس. كما وفد إليها القاص والروائي إبراهيم أصلان، عند حضوره احد مهرجانات المربد، زمن النظام السابق. والمقهى، يشبه حجماً مع ما يسمى في بغداد بـ (مقهى المعقدين). وأمست مقهى (أبو مضر) مكاناً يلتقي فيه اغلب أدباء البصرة ومثقفيها وفنانيها، وبعض سياسييها، خاصة المنشقين عن أحزابهم، وتختلط فيه حوارات، في الأدب والفن والثقافة عامة والسياسة، حادة أحياناً، بثرثرات الزبائن العاديين.

يقع المقهى عند نهاية (سوق المغايز) المشهور، مقابل الجسر المعروف بجسر المغايز. لا وجود الآن للمقهى إلا في ذاكرة الأدباء السبعينيين البصريين. والذين غادروا البصرة منهم إلى خارج العراق وعادوا إليها بعد سقوط الدكتاتورية كانوا يأملون أن يجدوا أثراً لمقهاهم الأثير وخاب أملهم جميعاً، فقد تمّ هدمه ما أن جرت توسعة الشارع الذي يقع عليه. وانقلب فضاء المقهى الثقافي إلى دكان متجهّم لبيع (البالات) تحيطه تلال الأزبال، ويتلقى من النهر، الذي ما عاد نهراً، روائح عفنة.

بسبب عسر الحالة المادية لبعضنا، كنا لاندفع أثمان ما نشربه في المقهى، ونستدين أحياناً من صاحبها المهذب والحييّ جداً (أبو مضَر) دراهم قليلة لشراء سندويجة لاذعة من الفلافل أو السمبوسة من دكان (أبو عباس) الذي يقع في الجهة المقابلة للمقهى عبر النهر. وأحياناً نستدين لنحصل على تذكرة الدخول للسينما في الدور الثاني الذي يبدأ عادة بعد الساعة العاشرة ليلاً. وعندما يَصرّ (أبو مضَر) على تسوية الحساب، بعد إلحاح متواصل منه، نقلب اسمه، بمزاح معه، إلى (أبو مُضِر)!.

ولدت في المقهى عشرات المشاريع الأدبية والثقافية والفنية منها: مشروع (12قصة بصرية) بحلقتيها، وكان المخطط لها أن تستمر، ولكن ذلك لم يحدث لأسباب عدة. عند عودة الشاعر عبد الكريم كاصد من فرنسا كان دائم الجلوس في المقهى، واعتاد أن يجلب معه كُتباً باللغة الفرنسية، ويقرأ علينا، اغلب ما ترجمه بعد ذلك لجورج شحاده وجاك بيرك وإيلوار واراكون وسان جون بيرس و ريتسوس، وآخرين، ونشرَ، حينها، بعضاً منه في صفحة (آفاق) بجريدة الجمهورية. وكذلك ولدتْ فيها فكرة إصدار مجموعتيه (الحقائب) بطبعتها الأولى، التي صدرت عن دار العودة/ بيروت بخط الفنان والشاعر هاشم تايه، وطبعتها الثانية التي صدرت عن دار الأديب/ بغداد. و(النقر على أبواب الطفولة). وأعلمنا القاص محمد خضير، الذي غالباً ما يتردد مساءً على المقهى، انه أرسل مخطوطة (المملكة السوداء) للطبع على نفقة وزارة والإعلام، إذ لم تكن ثمة وزارة معنية بالثقافة حينها. وكذلك علمنا في المقهى إن القاص مجيد جاسم العلي قرر أن يطبع مجموعته القصصية الأولى، (فتيات الملح) على نفقته، وفي مطبعة حداد بالبصرة، وكذلك ذكر الراحل كاظم الأحمدي انه سيطلب تعضيد الوزارة لطبع (هموم شجرة البمبر)، واخبرنا خالد الخميسي انه سيتسلم مجموعته القصصية الثانية (الملوثون) في المقهى بعد أن طبعها حميد المطبعي بمطبعته في النجف. ووزع، فيها، علينا، كاظم الحجاج (أخيرا تحدث شهريار)، مجموعته الشعرية الأولى. وثمة مشاريع ثقافية وأدبية أخر، منها ما صدر ومنها ما وئد لأسباب عامة– خاصة.

بعد الساعة الثانية عشرة ظهرا تعودت على إرسال نظراتي مُتلهفاً، ولهان، خارج المقهى، لأسباب لها علاقة بشغف القلب، ورغباته الشابة الجامحة التي لا أقوى على التحكم بها. كنتُ وأنا استمع لمَنْ يحدثني، انظر عبر الشارع، منتظراً مرور مَنْ تهواها روحي الشابة، الطرية، في ذلك الزمان، وإشارتها المعلومة لديّ، لنذوب، هي وأنا، كالأسرار في الشوارع الخلفية لمنطقة العشار. فأراهُ، وأنا انظر عبر الشارع، دون أن يَعرفني، رائحاً غادياً أمام المقهى، وتحت الشمس البصرية الحارقة، يتطاير شعره مع الريح ويرسل نظراته، عبر نظارته، كالصقر، وسط المقهى دون أن يجرؤ على دخولها، فأعلم انه ينتظر أن يرفع عبد الكريم كاصد، المنحني دائماً على كتاب أو مجلة ما، نظراته إلى الأعلى، كي يراه. عندما أشاهده على هذه الحالة، أنبه (كريم) لذلك، فيخرج مسرعاً، بشوشاً، مرحباً بودٍ به، ويقوده من يده للجلوس، لكن، في الصف الأول من (التخوت الخشبية) التي تقع خارج المقهى، ويظلان يتهامسان، دون أن نسمع شيئاً مما

يتهامسان به، كان ذلك الرائح الغادي (محمود البريكان).

كل مساء نلتقي في المقهى، و مع بداية الليل نتوجه لنزهة على شط العرب ومرورنا الأول بـ (السياب) الواقف، على علوٍ منتصباً، نرفع رؤوسنا نحوه، لنلقي عليه تحية المساء، دون أن نتوقع جواباً. ثم نكمل المسير إلى آخر (الكورنيش) على شط العرب. ونتفرق بعد ذلك للاستمتاع ببهجة بصرة السبعينيات وألقها. ذات مساء شتوي دخل المقهى (الياس الماس محمد) ونحن نخوض في شؤون أدبية – فنية وثقافية وسياسية عامة، وعلى وفق ما اذكره الأن، كنا نجلس متقاربينَ: عبد الكريم كاصد ومهدي محمد علي ومصطفى عبد اللّه ومحمد سعدون السباهي، والمعدوم بعد ذلك، عبد الجليل المياح واحمد أمين وكاظم الأحمدي ومجيد جاسم العلي وعبد الحسين العامر وعبد الخالق محمود، ومجهول المصير، ذياب كزار– أبو سرحان–، وسلمان كاصد، كان حينها طالبا في كلية الأداب بجامعة البصرة، وأنا. وقف (الياس) في منتصف المقهى، وخلفه شاب، مهلهل الثياب، اسمر البشرة، نظرتُ إليه، هالني أول الأمر شعر رأسه الذي اعتقدت انه لم يضع المشط عليه ربما لأسبوع، ثم عيناه الصغيرتان اللتان تشبهان عيني نسر، وحذاؤه الذي خمنت تماماً انه لم يصبغه مذ اشتراه، إضافةً إلى انه لم يكن قد وضع في قدميه جوربا، مع إن البرد قارس بعض الشيء. قال (الياس) وهو يشير إليه: كزار حنتوش. ولم يضف شيئاً. تعالت أصوات الترحيب، وتم التعارف بسرعة. اذكر انه منحني قبلة حارة بادلته إياها بسبب من انه وأنا، وبحكم المصادفة، كنا نلتقي غالباً على صفحات (طريق الشعب) و(التآخي) و(الجمهورية) و (الثقافة الجديدة)، و(الثقافة) لأستاذنا الراحل صلاح خالص، دون أن نتعرف على بعضنا. بعد أكثر من ساعة غادر الجميع لأسباب خاصة، وبقينا وحدنا. اقترحت عليه الجولة المعتادة، فرحب مسروراً. ثم القينا بأنفسنا في أقرب مكان، للمتعة البريئة التي تُصعّد اللغة الإنسانية الحميمة المشتركة. علمت منه انه نُسب للعمل في مديرية طرق البصرة، وانه يذهب صباحاً بسيارة الدائرة للعمل في مشروع تبليط طريق الفاو– بصرة، ويسكن في دار استراحة الدائرة، مع قلة من المهندسين ومعاونيهم. ثم طلبت منه شيئاً من الشعر فأعطاني الكثير منه. مذ تلك الليلة لم نفترق إلا عند إجازته الشهرية التي يقضي بعضاً منها بين الدغارة والديوانية وبغداد. أستطيع أن أؤكد أن كزار قد حمل معه إلى البصرة، عادة التسكع في طرقاتها، بعد انتصاف الليل، وانه فرضها عليّ مقترحاً مبيتي معه في دار الأستراحة، كون سكني بعيداً عن مركز المدينة. عادة بعد الثانية ليلاً لا احد في (أم البروم) غير كزار وأنا والكلاب، التي اعتادتنا، وهي تبحث عن طعامها في أكوام النفايات التي تعج بها الساحة، وكان احد الكلاب يتبعنا أينما نذهب فيقول كزار بمرحٍ: انه من سلالة الأجداد النازحة من الدغارة للبصرة، ويشم رائحتي، لذا تراه يتبعني. فأعلق بسخرية: انه يحبك ويودكَ بشكل (كلبي). تعرضنا لأسئلة عدة من دوريات شرطة النجدة ثم ألفنا رجالها، بعد أن تأكدوا من هوياتنا،

وأدركوا متعتنا الليلة البريئة تلك. ما كان يدهشني أننا نصل دار الإستراحة عند الساعة الثانية فجراً، وينهض كزار من النوم في الساعة السابعة صباحاً بسرعة وحيوية، ليذهب لعمله دون أن يكون قد أكل من جرفه سهر الليل أو التسكع، بينما أبقى نائماً إلى وقت متأخر لان عملي يبدأ بعد الساعة الثانية ظهراً.

في المربد الثالث المنعقد بتاريخ 15 –17 نيسان 2006 – دورة الشاعر عبد الكريم كاصد– تشرفت برئاسة تحرير جريدة المهرجان، ولأول مرة عبر تاريخ مهرجانات المربد، تتألف الجريدة من ثماني صفحات وبالحجم الكبير. في ليلة المهرجان الثانية زارني كزار بعد الساعة الواحدة ليلاً، في مقر الجريدة، بملحق فندق المربد، فوجدني اعمل والتعب والإرهاق باديان عليَّ. بعد المزاح والاستذكارات، رغب كزار في أن انشر له قصيدة في جريدة المهرجان. رحبت جداً بذلك، فتح دفتراً صغيراً، كان معهُ، واستل منه ورقة وضعها بيدي، كانت قصيدة نثر تتألف من خمسة عشر بيتاً. ما استوقفني في القصيدة عنوانها أولاً، وعندما قرأتها، قلت له من غير الممكن أن انشر القصيدة، وهي بهذا المتن والعنوان، وعليه أن يستبدله بعنوان آخر؟. رفض ذلك، قلت له إكراما للاسم الذي عليه العنوان أرى أن نستخدم الحرف الأول من اسمه، والحرف الأول من اسم أبيه، فرفض ذلك أيضاً بإصرار؟. أوضحت له إن مَنْ تحمل القصيدة اسمه جزء من تاريخ العراق السياسي– الإجتماعي، منذ العشرينيات وهو مناضل عنيد ومعروف على المستوى العربي وحتى العالمي، ونَشرُ القصيدة وما فيها وهي تحمل اسمه، سيضعني أمام بعض أعضاء الهيئة الأدارية للاتحاد وهيئة المهرجان بحرج، إذ إن شاعر المهرجان، وأنا ومدير التحرير وسكرتير التحرير، محسوبون على جهة سياسية، و مَنْ كُتبت القصيدة لأجله، و تحمل اسمه كذلك، هو من قادتها التاريخيين المعروفين، ومع أننا غير منتمين لهذه الجهة السياسية حالياً، ولكننا محسوبون عليها ونتشرف بذلك. إضافة إلى أن القصيدة تُعطي إشارات واضحة، عن إحداث ووقائع غير متفق عليها من قبل تلك الجهة السياسية ذاتها !؟ ولا زالت محط خلافات واجتهادات متضاربة، وتقولات متعددة حتى الآن!. وسيحرجني ذلك أيضاً أمامها!؟. ورجوته أن يعفيني من نشر هذه القصيدة، لكني سأحتفظ بها وانشرها في مكان آخر بعد نهاية المهرجان، مع تقديم مناسب لها. وافق كزار على ذلك وأعطاني قصيدة قصيرة أخرى، فطالبته بثانية. ونشرتهما في العدد الثاني من جريدة المهرجان وفي الصفحة السادسة، أما تلك القصيدة التي لم انشرها فكان عنوانها (زكي خيري) وقد قررت الإحتفاظ بها، ونَشرها، في صحيفة مناسبة، بعد نهاية المهرجان. لكني بأسف بالغٍ تركتها على المنضدة، التي كانت بيني وبين كزار. بعد مغادرته الغرفة، بَقيتْ القصيدة على المنضدة، واختلطت مع عشرات المسودات، التي مزقتها لانتفاء الحاجة إليها، بعد إرسال العدد الأخير–الرابع– إلى المطبعة، وكان مخصصاً في غالبيته لشاعر المهرجان. كم أحس، الأن، بالندم والحسرة، على فقدان تلك القصيدة التي فاتني، وفي

غمرة العمل أن احتفظ بها .أدناه القصيدتان اللتان نشرتهما لـ (كزار) في جريدة مهرجان المربد الثالث، ولم ينشرا ضمن أعماله الكاملة:

*عراق

(1)

عراق

اقلب

قارع

احذف العين

.....راق

احذف الراء

هنا مربط الديناصور

.....

الراء سيف علي

لماذا تريد انتزاعه

من العراق

أيها العاق.

(2)

*عبد الله كوران

أنت شجرة بلوط في كردستان

أوراقها قصائدك

عصافيرها غناؤك

ثمارها التي نثرتها على الجبل

حياتك

كبلوطة أودعك الثرى

وها أنت ثانية شجرة بلوط وارفة الضوء

والعصافير والثمار.

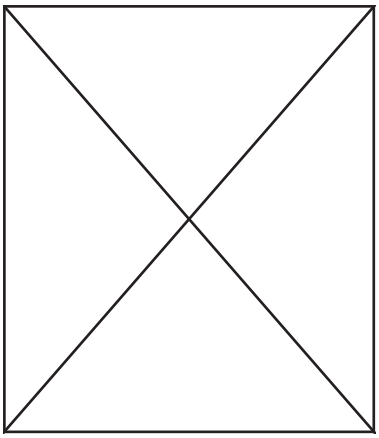

حُسين مِردان سيّدُ الدّامى

نبيل عبد الأمير الربيعي

نبيل عبد الأمير الربيعي من مواليد الديوانية عام 1958 خريج كلية الأدارة والاقتصاد. كتب العديد من الدراسات الفكرية والأدبية والثقافية في بعض الصحف والمجلات وفي مواقع الأنترنت.

قال زرادشت لأحد أتباعة: منذً أن عرفتً الجسد ما عادت الرّوح عندي أكثر من كلمة تقال، وكلّ هذا الذي لا يفنى إن هو أيضاً إلا رمز.

حسين مردان ذلك الشاعر الذي امتلك الطيبة وسلامة النية وبراءة الطفولة وعمق وحبه للمعرفة وأصالته للحياة. وروحه المفعمة تمرداً. القريبة لقوى الشعب المتوثبة، وهذا هو الجمال الحقيقي، فتدرج مع العمر والمعاناة والتجربة والقسوة ووهج الوعي، ليصبح معرفياً وأساسياً في مواجهة التخلف والجهل.

ولد شاعر التمرد والصعلكه البودليري التوجه، حسين علي مردان عام1927 في الوردية التابعة لبابل من أب عريف شرطة وأم أميه طيبة القلب، وقد انتقل للسكن في ديالى مع أسرته بعد نقل والده للعمل في شرطة محطة القطار. ترك الدراسة في مرحلة المتوسطة بعد أن وجد ضالته في الأدب وهوس المطالعة وأصبح يقرأ كل يوم كتاباً، يقول حسين مردان انه في السابعة قرأ عنترة وفي العاشرة نظم أول بيت شعري، ولكن أمه عند معرفتها إهماله لدروسه واهتمامه بالشعر ونظم القصائد بدأت تضايقه لترك الأدب، مما أدى به لترك مقاعد الدراسة والذهاب إلى بغداد ليجد ضالتهُ، ولضيق ذات اليد مارس مختلف المهن وكان منها عاملُ بناء ولغربته الوجودية المتجذرة في أعماقه ذكر مقولة: سأضع رجلي فوق الجميع وبعد أيام جلست مع الشاعر الرصافي. التقى في بغداد (بجماعة الوقت) التي يشترك معها بأكثر من آصرة،

كان لقاؤهم في مقهى العراق، لا شيء يحمله معه إلا دراهم معدودة وبعض الملابس... ورحبت به وكان منهم (جميل حمودي وبلند الحيدري وكانت ضيافته وسكناه في الغرفة البائسة التي تقع فوق المقهى مجاناً، كان يبلغ من العمر العشرين عاماً، هذا العمر الذي يتصف بشباب متحمس وكتلة من نار ودهشته لبغداد وشارع الرشيد كان يفكر في ذاته ومسيرته الصعبة لصعود قمة الجبل ووصوله إلى مقهى الزهاوي حيث يحضر هادي الدفتري وخضر الطائي وعبد الرحمن البناء، فقد كانوا يعاملونه كظاهرة غريبة طريفة ليس الأ.

ويذكر الكاتب باسم عبد الحميد حمودي في جريدة المدى: فهو لا يمكث مع هؤلاء طويلاً وإنما ينتقل مع رشيد ياسين وبلند الحيدري وزهير أحمد القيسي الى مقهى البلدية يومياً تحدوه الرغبة للتعرف على أدباء وشعراء بغداد، ومن هؤلاء بدر شاكر السياب وعبد الرزاق عبد الواحد وأكرم الوتري للإطلاع عن كثب على منجزهم الشعري... ومن رواد مقهى حسن عجمي أمثال عبد القادر البراك –الصحفي– والشيخ جلال الحنفي – وكمال الجبوري –الشاعر– ومحمد مهدي الجواهري الذي يلتقي مجلسياً بجماعته ولكنه غير مستعد آنذاك لقبول قصيدة شعرية حرة.

عزز هذا الشاعر تمرده وكرسّ التزامه بموسيقى الكلمة عندما أصدر مجموعته الشعرية (اللحن الأسود) عام 1950 وطبع (قصائد عارية) 1949 ثم أطل على شعراء المرحلة بمجموعة (الارجوحه هادئة الحبال) عام 1958 متحملاً تبعات الإتهام بالوجودية والعبثية. وقد برز حسين مردان في شعر الجنس إلا أن ديوانه (قصائد عارية) لم يلقَ الترحيب من الحكومة العراقية آنذاك لأنها كانت مخلة للأخلاق وهذا السبب حظر من التداول على المجتمع. فجمعت من الأسواق وصودرت وأُوقف مردان وأُحيل الى القضاء وبعد مرور شهر أُطلق سراحه بإعتبار قصائده من الأدب المكشوف حاله حال أي رسام أو نحات يظهرُ الجنس في عمله الفني وبدفاع المحامي صفاء الأورفلي وكيل الشاعر أمام قاضي محكمة جزاء بغداد في حينه وبوساطة الشاعر محمد مهدي الجواهري، ثم أُعتقل حسين مردان مرة أُخرى بسبب صدور مجموعته الشعرية (عزيزتي فُلانه) عام 1952 والتي كانت شبيهه بقصائد عارية إلا أن الأعذار التي ذكرها مردان في قصائد عارية لم تعد مقبولة حيال مجموعته الشعرية (عزيزتي فلانة) فحكم بالسجن عاماً واحداً وقد ذكر ذلك في إحدى مقالاته حين قضى محكوميته مع سجناء شيوعيين وتأثره بهم، وما دفعه لقراءة أكثر من ألف صفحة عن الفلسفة الماركسية. وقد وصفت بعض الصحف الغربية مردان بأنه بودلير العراق وقالوا بأنه مثال للشخصية العراقية التواقة إلى التجديد والحُرية، وقد حقق مردان نجاحاً وشُهرة كبيرة وبتأثير سجنه الثاني راح مردان يؤسس الأنطلاقة الشعرية وليصارع في وطنه الحُكام والمحاكم والسُجون والفُقر والواقع الثقافي التقليدي... معلناً التمرد على الموروث الشعري وقوالبه وليتلقى بدلاً من الأحتفاء الرفض والمطاردة. شعر هذا الشاعر مرادف للبُؤس والموت مثقل بالوعي الحاد بتعبير فني يُشَكلُ وفقَ سلسلة من الدوافع الخفية المختزنة في رؤى الشاعر، وتبدت التلقائية والعفوية التي تدفع كلماته دفعاً، حتى تحمل عذابات قصائده تشريداً ومطاردةً وسجناً، و سدد فواتيره بالكامل.

أما (قصائد عارية) فقد تخص مفردات

يوصف الحياة الصاخبة الحافلة بالملذات الجسدية والشهوة المرعبة للنساء، وقد كتب الشاعر مقدمة الديوان بنفسه، عبارة هنّ صرخة بوجه الرذيلة، حيث بدأت المقدمة على النحو التالي: (إني أحيا عارياً، أما أنت تحيا ساتراً ذاتكَ بلف ستار، فنصيحتي إليك هو أن لن تظل على أشعاري خشيناً مني إن لن ترى الحيوان الرابض في أعماقك). كان مصراً على قول الحقيقة ويقول: هل يتوب مفكر صرّ على قول الحقيقة مجبراً.

حسين مردان مقالياً:

عمل الشاعر حسين مردان في الصحافة ليحصل على قوت يومه لا لغرض الغنى ومن هذه الصحف: الأهالي، البلاد، الأخبار والمستقبل، مصححاً وكاتباً للمقال.

يذكر الدكتور علي جواد الطاهر في مقاله (حسين مردان... مقالياً) من يفرك الصدى ص18: للكلمة وحركاتُها أهمية كبرى في الشعر الحر... إن الشعر الحديث يعتمد الى حد كبير على موسيقى الكلمة وحركاتهُا داخل المقطع ولكن الكلمات إذا لم تتفاعل مع بعضها تفاعلاً حيوياً تفقد الصورة قسماً كبيراً من الأنسجام الفني.) هذا بحق مقالات حسين مردان بسبب إهتمامة وتأثره بالشعر وإطلاعه على شعر بودلير وكتابات أبو شبكة ومتابعته لمجلة الأديب البيروتية، اعتزازه بنفسه لدرجة تحسبها إدعاءً وغروراً ووهماً ذلك الشاعر الفقير المعدم المتشرد الذي لم تُؤثر فيه الحياة فقد كان عادلاً محتفظاً بمنطلقاته الإنسانية.

لقد اتقن مردان كتابة المقاله في الصحف التي عمل بها وأبدع وكانَ ذو حس وطني واقعي حر الأنتساب محب للإسفار والترحال وقد أصبحت هواياته المفضلة.

يؤكد د. علي جواد الطاهر في تعليقه على كتابات حسين مردان الذي أعده بعد وفات الكاتب وجمع مقالاته وبعض إشعاره بعنوان (من يفرك الصدأ؟): ما هو بالثائر المبدع، هو شاعر ولا نقاش عنده في ذلك، أما المقالة شيء يكتب، وقد كتب... آراء متلاحقة مؤيدة بأبيات متلاحقة).ص23

لقد أبدع بمقالاتهِ في مجلة ألف باء موضوعات من الفنِ والأدب والسياسة والإجتماع والشعر الحديث وقصيدة النثر... كانت مقالاته قصيرة ذات طابع تعليمي ولكنها ذات إبداع عالٍ بحُكم مزاجه الفَني سبب امتزاج الشعريِ بالنثري في أَغلب مقالاته على سبيل المثال منها: (الحلم) و (منائر كربلاء) و(لقاء مع الدكتور مصطفى جواد).

وله مقالات يمزج فيها بين الرمزية الشعرية والسريالية منها (لنحطم بيضة العنقاء)و(جسدي الذي يتحول إلى دموع) و (قبضة الضوء والحزام). لقد وصفه أصدقاؤه بالعربدة والسكر والشعوذة والتشرد والصعلكة بسبب قربهِ من حانات بغداد ومواخيرها ونسائها. ولكَن لم يسيء هذا الشاعر لأحد من أصدقائه أو حتى الأدباء في سلوكه ولم يهزل في حياته، كان جاداً في عملهِ مخلصاً في واجباته اَتجاه الصحف والمجلاَت التي عمل بها.

فهو يكتُب المقالة عندما تختمرُ الفكرة وتكتمل في ذاته المحاور الأساسية لها براقة كإنشاء أدبي إذ يقول في مقالة له بعنوان (الموت والفعل الخارق): فالبطولة هي التي ترفع هذا الطوق بواسطة الأعمال المجيدة... ولكن الخسارة لا تساوي أبداً ذلك الشعور العظيم المرافق لروحنا أثناء القيام بعمل كبير... لن تفلق البذرة أي لا تساعد على حدوث الطفرة التي تشق وجه الأرض ويفتح الدروب أمام الزهرة الجديدة).

وفي وصف الثورة الكوبية بقيادة كاسترو والثائر جيفارا يقول: متى أمُد بقامتي عبر العالم كله فأُقدم لشعبي وللإنسانية مثل تلك الخدمات التي قدمها جيفارا و سيدا وبارون... متى).سيدا تلك المناضلة اليوغسلافية التي دافعت عن بلدها أمام الغزو الألماني وبارون شاعر انكليزي دافع عن الحرية للشعب اليوناني.

لقد عُرف مردان بعمق وحدته وعزلته بل توحشه في عالم الأنس، لذا أثر أن يهدي قصائده الى نفسه ويستعير بعض الأحيان كلمة بودلير حين يخاطب القاريْ بقوله (أيها القاريء المراوغ، يا شبيهي يا أخي... إني لأضحك ببلاهة كلما تخيلت وجهك العزيز وقد استحال الى علامة استفهام ضخمه... ولكن ثق انك لا تفضلني على الرغم من قذارتي إلا بشيء واحد وهو أني أحيا عارياً... بينما تحيا ساترا).

وبسبب ما عاناه من الفاقة والعنت فقد كان ينام في كل مكان وفي مذكراته يقول: إني نمت في مقبرة الأنكليز في الكرنتينة ليالي كثيرة. وكان ضيفاً حميماً لمصطبات العمال والمقاهي الرخيصة وفي أرصفة شارع الرشيد يقضي إستراحته ممدداً على رصيف الشوارع مع أصدقائه من الشعراء أمثال عبد الأمير الحصيري وجان دمو وغيرهم الذين يقاسمونه الصعلكة.

حسين مردان شاعراً:

وهو رغم ما كتبه من قصائد فاضحه والتي تشي بجوعه الإنساني حيث يقول:

سأترك الحبَ إلى حينٍ
إلى أن نجد العسلَ لكلِ طفلٍ
وعندئذٍ سأعود
إلى حبيبتي الجميلة كقنديل من ماس
إلى جسمها القرمزي

وفي مخاطبته للشيطان تتبدى قدرته الشعرية في رسم صور شعرية غرائبيه حين يقول:

قلتُ للشيطان مرة: أريد أن أكون مفكراً عظيماً
فنظر إلي بعيونه التي لا تحصى
قلتُ لم أجد في عقول الفلاسفة شيئاً كبيراً
ومنذ ذلك اليوم وأنا أقوم بتجاربي

ويمكن تلمس ما عاناه من شظف العيش والجوع وهو يبوح به بصدق وعفوية يقول:

إن حبيبتي الحسناء كنشارة خشب
لا تحس بعطر الورد
أنا لا أبحث عن الحبَ
لأني لا أعرف الربيع
أعرف الجوع
الجوع الذي يلتصق بنفسي
والجوع الذي يعيش في معدتي
والجوع الذي يدور في رأسي

آراء النقاد في شعر حسين مردان:

وقد احتفت جريدة المدى بالشاعر فقد أصدرت ملاحق خاصة عنه وأقامت احتفالية استذكارية له ولكن أجمع النقاد على محدودية ثقافة حسين مردان إذ كتب الناقد د. إحسان عباس أن مردان ظهر في (فترة سئم الناس فيها في العراق مواعظ الرصافي باسم الشعر الإجتماعي ومنظومات الزهاوي باسم الأفكار العلمية. ولكن لحسين مردان بعض الحكم في قصائده منها آراء مفاجئة: الشاعر العظيم هو الذي يُحدّق بعيون الهدهد في التراب الذي يملأ رئتيه) وكتب (الرسام إذا جرب الحب لا يرسم الحب لنفسه، ولكن يرسم ما يبعثه الحُب فيه).

وقد جسد حياة الراحل حسين مردان الكاتب الراحل غائب طعمه فرمان في رواية

(خمسة أصوات) عام 1967 فكانت شخصية (شريف) التي أداها الفنان القدير يوسف العاني وقد كتب الدكتور علي جواد الطاهر عام 1988 (من يفرك الصدأ؟) الذي أوجز فيه سيرة حياة الراحل حسين مردان.

وقد خاض حسين مردان انتخابات إتحاد الأدباء وينتصر بأصوات الأدباء الشباب ليصعد إلى منصة الهيئة الأدارية بشكل أجبر الشاعر الجواهري والمخزومي وصلاح خالص وبحر العلوم على احترامه والأخذ بآرائه. كما كتب لثورة 14تموز 1958في (هلاهل نحو الشمس) و(أغصان الحديد) التي رموا بها لحراب الجيش العراقي الذي قاد الثورة.

ويصف الدكتور علي جواد الطاهر الشاعر الراحل مردان في الكتاب الذي جمع فيه مقالات مردان (من يفرك الصدأ؟): يقول (تعجب لمن كان متشرداً بوهيمياً وبودليرياً كحسين مردان... يقيد نفسه فيلتزم بكلمتهً للمجلة ويواصل الكتابة الأسبوعية في موعد مقرر وحجم محدد. ولا تعجب والعمر والمصاحبة والمناقشة والقراءة والسفر وطيب الجوهر).

أما البيان الشعري الذي قدمتهً مجلة (شعر) 1969 بتوقيع مجموعه من الأدباء والشعراء منهم الشاعر فاضل العزاوي وسامي مهدي وخالد علي مصطفى وفوزي كريم، هذا البيان الطويل الذي ذكره الأديب الشاعر فاضل العزاوي في (الروح الحية) ص٣٣٤ ذو أفكار متعددة ومقاطع ستة صاغ حسين مردان من كل مقطع مقاله فنهضت لديه ست مقالات وهكذا امتلأت ستة أسابيع متوالية منها: الكلمات. الحرب والوحوش. الماركسية واللاوعي. إماتة الوعي. حول البيان الشعري. مقالات تتصل بخيط اللباب وتنفصل بوحدة النوع المقالي. وكان الراحل كثير السفر فسافر الى أكثر من ستة عشر دولة منها اسطنبول وموسكو ولبنان والكثير غيرها وكتب مقال من اسطنبول: طاحونة الشرق، وكان صعباً وغير معقول أن يكون مردان في إسطنبول ويكون موظفاً ومراسلاً لمجلة ألف باء وقد تواصل بمقالات أربع تريد أن تكون أكثر من مقالة (حتى في النوم).

هذا الشاعر الذي تأثرتُ به أيام الشباب في فترة السبعينات فقد كان يعشق الليل وكان مجده قد قام على الليل الذي يقترن بنساء من نوع معين فقد باع في أحد الأيام سرواله ليشتري بثمنه زجاجة خمر شربها هو و غائب طعمة فرمان وعبد الحميد الوندواي وشربوا البنطلون في الملهى. ملهى بلقيس الذي كان يرغب الأستمرار في الجلوس فيه، وغناء عفيفة إسكندر التي كانت تصرف عليه وتعطف عليه وهو دائم الحضور لهذا الملهى. ويجنح بهِ الخيال ليستذكر أخاه العامل عباس ومحبته للعمال وحب الناس ولكن الليل أكثر حَبيبا لحسين مردان لأنه هدفه الذي يريد بلوغه فالليل ينتظر والزمن يحملق بهِ ويطرح أسماله على عينه، ولكن موقنا مرّ هذا الواقع الذي يساوي بين الكبير والصغير والعظيم والحقير، وهو يشكو الزمان وظروفة والواقع وآلامه، لكن الإنسان الصادق فيه في النهاية كما فِي البداية كان صادقاً في المسيرة كلها بين الرضا والسخط والكبرياء والتواضع والعزة والهوان والبناء والهَدم، الكاتب البارع هو الذي يجلو الصورة وكأنها عملت نفسها ولكن كان حسين مردان يسكن في قبر حسب وصفه (واقتربت من البيت... من قبري المؤقت فيا إلهي متى تعود الكف التي تفرك الصدأ...). ولكنها حرمان في حرمان ولم يبق له إلا منفذ واحد هو الصدق... وفقدان الأحساس ولكن بقيت أنت في بكاء صامت ولكن الهمس ضرب من

البكاء، لا تستطيع أن تحب امرأة واحدة ولا تتوانَ عن النص على وجهك وفي (الروح والحليب الأسود) يقول: (آه أيها الوجه، يا وجهي البغيض، إنك لم تخلق علامة عطور الفساتين، فأجمع آهاتك ولتعد المبدعة وأنت أهلاً لها ومنها).

أيها الشاعر الراحل لن تنساك المجالس الشعرية وزملاء المهنة والشعراء الخلص لمواقفك فأنت الذي مررت بمرحلتين، مرحلة التشرد ومرحلة الثورية وقد وصل طريقك الأول إلى الأنتحار ولكن لخشيتك من الهزيمة تنبهت لذلك، فتحولت للحقيقة المخيفة والمفجعة إن الدرب الوحيد الذي يصل إلى الهدوء هو الموت ولكن تراجعك عن هذا الطريق المأساوي لتزج نفسك في حميم الحياة حيث تقول إني... رجل شارع حقيقي، لا أميل إلى المختلة والتزويق، لأني مقاتل نظيف.

لقد كانت حياة مردان خالية من المرأة وهذا يدخل الحزن الى قلبه ليتصور خيال امرأة جميلة رائعة تجلس بجانبه ويداعب شعرها الجميل ولكن كبرياءه المفعم بعزة النفس يخاف المغامرة ويصفه الدكتور علي جواد الطاهر: (فإن رجلاً اسمه حسين مردان لا يلقي السلاح في يسر ولا يعدم مجالاً جديداً للكبرياء إن فاته مجال ثم إنه إنسان – كأي إنسان– يعزي نفسه صدقاً أو كذباً، ولا نريد لحسين مردان الكذب هنا لأنه لا يريدهُ، ولأنه العوض الأكبر.

وقد كتب مقاله لم تكتمل هي (نحو هدف واحد) ولكن الأزمة القلبية التي داهمته في الساعة الثامنة والنصف صباحاً من يوم 1972/9/14وعلى أثرها نقل الى مدينة الطب، وبعد تحسن جزئي داهمته أخرى وفي فجر الأربعاء 1972/10/4 توقف قلب الشاعر البودليري البوهيمي وقُضي الأمر ولم تعد أزهاره تورق داخل تلك العاصفة التي عصفت بأوراقه اليابسة وأزهاره، وبقيت شجرة حسين مردان الوارفة تمد أغصانها بمرور الأيام حتى يتذكرها الأدباء والشعراء.

وقد رثاه الشاعر فوزي كريم بقصيدة حيث يقول:

يا حُسين مردان
كيف تركتَ الباب مفتوحاً
والليل لم يبدأ
وكان السر مفضوحاً
وأنتَ قد تجهل أن الخمر في الدنان.

وقد كتب الراحل حسين مردان يوماً في الموت والضحك يقول: لو يموت كل ما في العالم من جمال قبل موتي بيوم واحد فقط، إذن لاستطعت أن أُنظم قصيدة عن الضحك.

أما الكاتب عبد الكريم كاظم فقد خاطبه بعد سقوط النظام عام 2003 وما آل إليه الأدب والثقافة والمسرح والإهمال حيث يقول: لقد أحرقوا المسارح ونهبوا المتحف العراقي وغزو العراق وما تضمنه من حرق وتدمير وسلب ونهب بل ما تختزنه المكتبة الوطنية بعد أن أضرموا بها النيران وتفجرت صراعات جديدة ومسميات غريبة...

فقد اندحر الجمال وانتصر القبح وعلينا الإنتظار لفترة أخرى من الزمن... وصولاً لصور الماضي الأليم.

وأنا أخاطبك يا شاعرنا ذا المواقف الصادقة والحقيقية والكاتب الذي آمن في يومٍ ما بالفكر التقدمي ومناصرة العمال وثورة الرابع عشر من تموز والمتفائل بالحياة والإنسان والإبداع لن ينساك أصدقاؤك وقراء قصائدك إذا كانت عارية أو أزهارك التي لا تموت ما دامت أشعارك خالدة

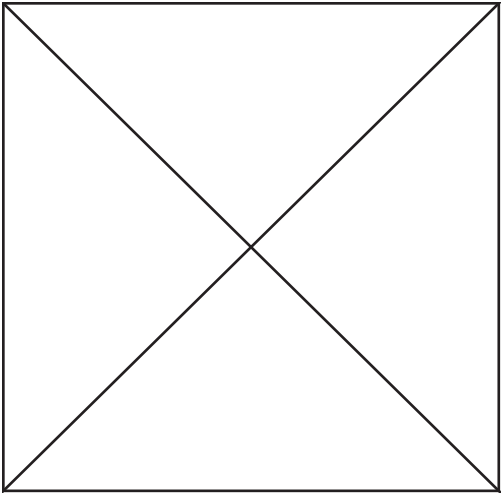

ق.ص.ة ق.ص.ي.ة

اغفاءة الديناروجي

سلام حربه

المبدعون يسبقون زمانهم هكذا كان يقطّر فرات كلامه، عصارة حديثه، في آذان سامعيه كل يوم.. فرات صديقي وأخي وجاري تربينا في زقاق واحد وجمع قلبينا حب الكلمة والطيران في ملكوت خيالها فهو شاعر يسيل الشعر على لسانه وتزدحم به سطور أوراقه، يشرق علينا في كل صباح بقصيدة جديدة رغم انه طالب في المرحلة الثانية من كلية الطب، وانأ قاص اخترت دراسة الأدب رغم أن درجاتي في البكلوريا تؤهلني لدراسة الهندسة ما دفع عائلتي الى التعامل الحذر معي لإصابة أملهم بداء الخيبة وإبقائهم على مسافة من الريبة والتوجس كالمرغمين على معاشرة مجنون، كنت أقول لهم بإمكان الإنسان أن يكون مهندسا ناجحا لكن ليس بمقدوره أن يكون أديبا مرموقا وكل هذياناتي تموت عند آذانهم الصماء.. لا افترق عن فرات إلا حين انقطع الى زمن الدرس في كلية الأداب.. في احد المساءات طرق بابي بقوة.. كان يبدو عليه الأنفعال والقلق، عيناه ينعكس فيهما سر مثير، كان كلامه متقطعا وأنفاسه متلاحقة حتى أن قضمه للحروف انتقل لي عبر الأثير..

سألته ونظراتي لا تفارق هياجه.

– ما بك فرات.. هل أصابك مكروه..؟

اقتادني من يدي ولم يفتح فمه إلا حين وصلنا الى ضفة النهر...

– لقد اتخذت قرارا لم يخطر ببال احد في يوم من الأيام...

– ما هو..؟

– سأختفي من الحياة أربعين عاما...

أطلقت بوجهه ضحكة مدوية استفاق لها اللقلق على ساعة البلدية في الضفة المقابلة، هدر غاضبا واصطفق جناحاه كي يهش الضوضاء التي أقلقت منامه والتوت رقاب جلاس المقهى القريب منا وتحنطت أياديهم المضمومة على أحجار الدومينو وأزرار

النرد.. قربت رأسي منه وصدري تغلي فيه ضحكة ساخنة، همست بأذنه...

– هل ستحلق في السماء وأنت بلا أجنحة..؟

لم يجب فرات إلا بعد أن هدأ بركان ضحكتي.. سحب نفسا عميقا.. قال بجدية... – لدينا أستاذ في قسم الفسلجة الدكتور مجيد يعمل أبحاثا وتجارب على غاز النيتروجين وفي آليات حفظ الأنسجة.. وقد حصل على نتائج مذهلة..

– وما الجديد في الأمر..؟

زفر فرات بقوة، تقلصت عيناه كموشورين صافيين لنفاذ يقين فكرة راسخة... – النيتروجين غاز سائل حرارته مائة وستة وتسعون درجة مئوية تحت الصفر وبخاره ستة وتسعون درجة مئوية تحت الصفر، يحفظ الأنسجة عشرات ومئات السنين دون أن يطرأ عليها أي تغيير...

قاطعته وقد ومض لدي في الأفق طيف من أطياف جنون فرات وتحليقه الدائم في اللامعقول... – ماذا تريد أن تقول..؟

– دكتور مجيد أعاد عليّ ما اردده دائما من أنني اسبق أبناء جيلي أربعين عاما وطلب موافقتي على تجميدي أربعين عاما في غاز النيتروجين بعدها سأخرج كما أنا الأن، لن يتغير فيّ شي إلا زمن معطل حيث أن الناس في ذلك الوقت من المستقبل سيفهمونني جيدا، يتذوقون أشعاري ويناصرون أفكاري...

لم اسمع يوما أن الجنون انتقل بالعدوى ولم اقرأ أن فايروسا للهلوسة أصاب خيال الحالمين كالأنفلونزا التي تباغت أنفاسهم وكل اللي حصل أن جيشا من الأنفعالات باغتني وغامت الدنيا في عيني من غبار زحفه وتموجت على صفحة وجهي رايات من الدهشة وعدم التصديق وانفرجت شفتاي عن جنين ابتسامة ساخرة أُجهض من طلقات حيرة هرسها كفا اليدين النديتين.. عيناي تُصلب فيهما قامته المديدة وشفتاي منفرجتان ومشلولتان مررتا كلامي المحشور في حنجرتي كالصفير...

– ألا تعتقد بان تخريفك هذا ناجم عن حمى شديدة..؟

امتدت أصابعي المرتجفة لتجس حرارة وجهه وجبينه، كان ملمسه باردا ومقلتاه تتراقص فيهما سعادة غامرة.. أطلق ضحكة واثقة لم يرتج لها جسده الممتلئ وبقي طوله الفارع مشدودا كوتد لكن تمدد لها فمه الصغير على اتساعه.. اقترب مني وأنفاسه ما زالت تتقسط شهقات بنوبة الضحك العاتية.. وضع يده على كتفي، أجابني بحب...

– يا صديقي أنا لا أخرف.. بعد يومين سنفترق أربعين عاما، كل ما اطلبه منك أن لا تفارقني ولا للحظة واحدة كي أودع أهلي وأصدقائي ومدينتي وأبناءها الذين، لسوء حظي، اسبقهم أربعين عاما...

لم أذق طعم الراحة ليومين كاملين، كنا نقتفي رائحة المدينة في الطيبة التي تكحل ملامح وجوه أبنائها، في شوارعها التي تُزرع فيها خطى العاشقين وعند نهرها المتدفق المنقط بلهو النوارس، نتلمسها في بساتين النخيل وأنفاس نداوتها وهي تطوق جسد المدينة من جهاتها الأربع وفي مكياج حدائقها الذي تتزين به والمرصع بألوان الشذى والورود.. لن انس ما صادفناه من مواقف مع عائلته وأصدقائه ما دمت حيا.. حين أخبرهم فرات بأنه سيفارقهم أربعين

عاما كان الصراخ في البيوت يتعالى والنحيب يتعاظم كما لو إنهم يباغتون بجنازة فرات رغم انه يقف أمامهم بثبات ويجاهد على أن يديم ابتسامة هجينة على وجهه حتى لو كان يلصقها بمهارة مهرج... في بيتهم لم ينطق أبوه، العطار البسيط، بكلمة... انهمرت دموعه مدرارة وانسحب صامتا الى غرفته، أغمي على والدته وتم نقلها الى المستشفى، ولم تنجح كل محاولات أخيه سلام، الذي يكبره بعامين والمهووس بالسياسة ونزيل السجون الدائم والطالب في قسم الفلسفة وعلم النفس، وحبيبته سعاد في ثنيه عن قراره هذا... كان فرات هو من يختن الحديث بشفرة كلامه القاطعة..

– أخي سلام حاول في فترة غيابي أن تنسى السياسة للحظة واحدة واهتم بحبيبتك سعاد التي تذوب بك حبا... كان ألمه قاسيا وهو يودع الطفل المنغولي حامد ابن جارهم، والذي يبلغ السابعة من العمر وقد أفنى فرات سنتين جامعيتين في عرضه على أساتذته في كلية الطب، تعلق حامد بساقه وهو يهمهم بكلام غير مفهوم ونزف دموعا ساخنة جرفت معها مخاط انفه، لم يتحرر منه إلا بعد أن وعده بأنه لن يتخلى عنه وسيعود له في اقرب وقت.. اقترب فرات من والد حامد، الموظف المتقاعد والذي أصابه الهرم قبل أوانه بعد أن فقد زوجته مبكرا وحين يأس من علاج ابنه حامد، كلمه فرات بحزن...

– يا عم، حامد أمانة عندك اعتني به ريثما أعود...

ما أبكانا جميعا وداع فرات لعائلة جارهم الثاني الفقير عامر، المتوفي قبل عشرة سنين والذي خلّف وراءه طفلا عمره أياما، لم يترب في حضنه، اسماه طارق وزوجة صامتة ابيضت عيونها في خدمة العوائل الميسورة كي تعيل ابنها الوحيد والذي طرد من المدرسة الأبتدائية بعد مسكه متلبسا بسرقة حقائب أقرانه.. وقف فرات أمام الأم المحنية بذل الفاقة والعوز واخرج كل ما في جيبه من نقود ليضعها في جيب طارق.. نظراته تتنقل بين الأم وبيني..

– يا خالة أوصيك بطارق خيرا، ما يحتاجه في المستقبل سيوفره له صديقي ناظم...

في قسم الفسلجة كان الجميع واقفين بانتظار فرات وهو يسقط في فم النسيان أربعين عاما.. على جانبي السرير يقف حامد وطارق يحضنان يديه المدودتين على السدية ويبكيانه بتوسلات مبهمة لا تهدأ من روعيهما توسلات أبو حامد ولا تهدجات اللوعة في صدر أم طارق واللذين لم يجف نبعا دمعيهما منذ يومين.. نظرات فرات الحانية تطيب خاطريهما ويرهن مصيريهما برسائل شفقة يطيرها اليّ حين تحط عيناه على حائط شرودي، لم يحضر أبوه فقد طلق الدنيا وأغلق عليه بابه، أما أمه الراقدة في المستشفى فقد اخبروها بان فرات موجود في البيت وقد باعها إحدى أكاذيب نيسان الرخيصة، سلام وسعاد وقفا عند زاوية السدية وقد أُسقط ما في أيديهما وتجرعا أمر فرات كدواء طبي مرّ لا مفر منه، الغرفة تكتظ بطلبة كلية الطب وبالمصورين والصحفيين على الرغم من أن الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلا، كان دكتور مجيد دائب الحركة ووجهه يشع بابتسامة مضيئة لم تنطفئ منذ أيام فقد تحقق له ما عجز عنه أطباء العالم وسيدخل العام الجديد بعد

دقائق وهو يمتطي انجازه العلمي هذا ليحفر اسمه، ابد الدهر، في سجل الخالدين...

اقترب مجيد من فرات وهو يحمل حقنة طبية، تطايرت همهمات حامد وصرخات طارق الحادة ورطبت الدموع أخاديدها على الوجوه، انحنى رأس الدكتور مجيد عليه وهو ينقّب عن وريد نافر في ذراعه، آخر ما اصطاده فرات قبل أن يُجرف في غياهب بحر التخدير ويحنّط في أحواض النيتروجين نضارة ملامح مجيد بأعوامه الثمانية والثلاثين وابتسامته الطرية، علامته الفارقه، وعقرب ساعة الحائط الذي قفز منذ ثانية في أحضان عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين... في الثانية الأولى من عام ألفين واحد عشر آفاق فرات من إغفاءته في رحلة النيتروجين، كان مستلقيا على السدية ورائحة النشادر المعتقة تفوح من جسده.. لم تتبدل لديه ملامح الشاب ذي العشرين عاما، شعر اسود وبشرة لامعة تنضح عافية والرحلة التي قطعها بأربعين عاما بدت كقصة لم يحتج لسردها إلا لثوان معدودات، تفتقت أجفانه بصعوبة والضوء المنسكب من قاعة الفسلجة طعن مقلتي عينيه فاختض جسده بشدة من الألم.. تحركنا، أنا وأخوه سلام وفرح ابنة سلام، لنجدته لكننا جوبهنا بمعارضة الطلبة والأساتذة الذين أحاطوه وجففوا جسده بالمراهم والقطن الطبي.. الحزن يغلف ملامح دكتور مجيد وهو يدقق بجسد فرات ويجس نبضه وأنفاسه بسماعة طبية تمسكها يده المرتجفة وقد بدا عليه الهرم وانحنى ظهره وانطفأ البريق في عينيه ولم يبق ما يدل عليه إلا خصلة شعر بيضاء نافرة على جلدة رأسه الرقيقة وطبقات بشرة متيبسة على عظام وجه ضامر... أعاد فرات فتح عينيه بعد قرابة الساعتين، تفحص الواقفين بقربه، تعابير وجهه تشي بأنه وسط عالم غريب لا يمت إليه بصلة، تلمست أصابع يديه الهواء كي يزيد من لزوجة ذكرى كانت ترطب راحتيه لكن أصابعه سقطت في فراغ عميق أسلمته لنوم متصل لعدة ساعات ليصحو بعدها وقد انزاح عن ناظريه الكثير من السحب والضباب.. تفرس في الفراغ حول السدية كان يقتفي خطى أشباح طبعت بأذيال ذاكرته في سِفرْ النيتروجين، تاهت نظراته الجامدة لكنها تعلقت بصعوبة بخطوط وجهي المتعبة، التصق بها، مد يده كي أجلسه على السدية، فقراته ما زالت متصلبة وكل حركة كان يئن لها أنينا موجعا، عيناه لم تفارقاني..

تحدث بكلام تساقط كبلورات الثلج وسط دهشة الجميع وفرحتهم...

– أنت ناظم.. ما زالت رائحتك معلقة بأنفاسي...

لم أتمالك نفسي هززت رأسي بقوة ودموعي الحارة بللت وجهي وقميصي وخدي فرات الأبيضين.. حضنته بقوة، تسلل الى جسدي شرر من سخونة بدأت تسري في عروقه وتعرفت إليه أكثر من ود معتق تصاعد مع أنفاسه الدافئة..

تلفت فرات حولي.. نطق بصعوبة...

– لماذا لم تحضر أبناءك كي أراهم..؟

لا اعرف كيف تسللت من صدري ضحكة قوية، رفست الأرض بقوة، رغم إني تجاوزت الستين، كي تعينني على الوقوف، أجبت بخجل..

– أنا لم أتزوج، ما أصابنا من كوراث وويلات خلال هذه السنين دفعني أن ادفن نفسي في القراءة وكتابة القصص والتي لم

ينتبه إليها احد...

مسح فرات بنظراته الكليلة الموجودين في القاعة.. توقف عند دكتور مجيد والذي جاهد أن لا تحط على أله طيور أسئلة فرات...

– أنت دكتور مجيد...

فرات يطيل إليه النظر منقبا في ذاكرة جامدة بدأت بالتحلل...

– ولكن ما هذا الحزن الذي يطعن ملامحك وتغيم له عيناك..؟

حاول مجيد أن يبدو راسخا ويستعير ظلال ضحكة غاربة منذ سنين.. اقترب من فرات وضمه الى صدره الناتئ، وضع يده المعروقة على كتفه...

– حمدا على سلامتك في رحلتك الشقية في عالم السكون...

سحب مجيد نفسا عميقا ليعينه على مواصلة حديثه، أكمل بحرقة...

– لم يعد للعلم مكان في حياتنا.. لقد غزا الجهل عقول الناس حتى الطلبة في هذه القاعة.. حين تمضي في المدينة وترى بعينيك النابهتين ما خلفته الأربعين عاما ستعذرني كل العذر..

اقترب منه سلام وفرح.. وقفا أمامه، تفرس فرات بوجه سلام، كان يبحث عن خيط نافر كي يتسلق شرنقة الهموم التي تطرز وجهه، لم يبق من عناده الطاغي إلا رماد خيبات يغبّر صفحتي وجهه، اتسعت عينا فرات وألهبت ذكرى العائلة الهمة لديه، نزل من السدية وهو يترنح في وقفته، هوى على جسد سلام وهو ينتحب.. سلام تلقفه بشدة، قبله بحرقة، بقيا متلاصقين لدقائق والبكاء رصّع أكتافهما بنجوم من ماء.. فرح مواظبة على تنشيف عينيها بمناديل ورقية، خفت العناق..

قال فرات وهو ينشغ دمعه...

– سلام.. لمَ لم يحضر أبي، أمي..؟

تحرر سلام من ذراعي فرات المتصلبتين.. زفر بقوة...

– لقد توفي أبوك بعد فراقك بأيام وهو لم يغادر غرفته، وتدهورت صحة والدتك في المستشفى وتوفيت بعده بشهر..

انتبه فرات الى فرح وهي تتشح بثوب اسود وتغطي رأسها بشال اشد ظلاما من خصلات شعرها، هربت من نظراته رغم ثقل الأسى الذي يتأرجح من عينيها...

– سلام.. هذه الشابة الجميلة فيها بعض من ملامح حبيبتك سعاد...

نثر فرات كلامه وهو يلاحق الخجل الذي تملك فرح وأحنى رأسها كعلامة استفهام..

أجاب سلام بعدم ارتياح...

– إنها ابنتي فرح.. وهي كل ما تبقى لدي.. أخوها وثاب لم يطق العيش هنا وهاجر الى السويد منذ سنين، فرح الآن متزوجة...

– الست سعيدة مع زوجك..؟

سأل فرات وقد عرف بفراسته القديمة ما ستقوله فرح...

– أنا لست سعيدة يا عمو.. انه يعاملني كجارية وقد حرمني المجتمع حق الأحتجاج وواجب المطالبة بحقوقي...

– وأين سعاد.. هل حصل لها مكروه..؟

أجاب سلام وهو يخرج سيكارة أشعلها بأصابع مرتعشة.. سحب نفسا عميقا...

– سعاد موجودة.. لقد طلقتها منذ ثلاثين عاما.. لقد تزوجت رجلا آخر.. وآخر

وهو يسحب أنفاسا متلاحقة من سيكارته.. أكمل حديثه بانفعال...

– كل ما آمنت به في السابق كان وهما..

السياسة، الحب، الوطن، كل شيء في هذه الدنيا أكذوبة.. أكذوبة...

في جولاتنا اليومية لم يخفت شلال دموعه وهو يرى أبناء مدينته وقد أظلمت وجوههم بالتيه وباللحى الكثة والتعابير الجهمة، الأذان هجرتها الموسيقى وقايض لباس الأجساد ألوانه بالسواد وسيطت العقول طائعة في مجرة الظلام واستدانت الألسن لغة منسية وانزلقت مع لعابها الأوهام والخرافات واحتشدت الأفاق الرحيبة، للمغلوبين على أمرهم، في ثقب أبرة... تقطعت نياط قلبه وهو يرى برج البلدية وقد هجرته اللقالق ونهر المدينة المتدفق وقد أصبح ترعة يُرى قعرها الضحل وتسممت نسائمها بالفضلات والمياه الثقيلة، الأزبال التهمت الحدائق والساحات العامة ولم يعد هناك فضاء للتأمل واستدرار الشعر، أمام بناية كبيرة وقف فرات يتأمل صورة كبيرة مؤطرة منصوبة عند مدخلها، سأل بعد أن ضجت ملامحه بالحيرة..

– هذا الشخص يشخط ذاكرتي وهذه اللقطة الغبية أراها قد نبتت في الغرف الحكومية وفوق سطوح الأبنية العالية، في العملات النقدية وتأرجحت على صدور الرجال والنساء، نظراته المبهمة تلاحقني...

أجبته وضحكة في صدري تقطعت الى قهقهات...

– انه حاكم المدينة...

– حاكم المدينة.. ! اعتقد باني كنت اعرفه في السابق..؟

– طبعا تعرفه.. انه حامد المنغولي...

الضحك أحيانا يصعب السيطرة عليه فقد يقتحمك وأنت في اشد المواقف حزنا فيفسد عليك هيبتك، فكيف الحال وأنا أرى فرات وقد اندلق لسانه من عدم التصديق..

– حامد المنغولي..؟

– نعم حامد المنغولي لا غير...

عند اقترابنا من ساحة الأحتفالات، كان الأف المواطنين يحملون صور احد المترفين الأنيقين، يعكس خداه اللامعان النشوة والعافية، ويهتفون عاليا بحياته.. تجمعوا بالقرب منا.. عاود فرات التحديق بالصور، نظر اليّ كي أساعده على حل لغزها، دنوت برأسي من أذنه، سألته مبتسما...

– هل تعرفه..؟

تأمل فرات الصور..

قلبها في ذاكرته، كانت هزات رأسه الباردة المتأرجحة بين الشك واليقين هي من ألجمت لسانه..

– انه طارق.. ابن جيرانكم الفقير، الطفل اليتيم المطرود من المدرسة والذي كنت تمد له يد العون، انه الآن أغنى أغنياء المدينة ويتحكم بمصائر الناس هنا...

لم يعقب فرات على كلامي، كانت عيناه أكثر إفصاحا من فمه.. تكلمتُ بألم..

– لقد سرق طارق خزائن المدينة، القضاء اسقط التهم عنه، انه من يرسم السياسة والأخلاق وما يصح وما لا يصح ويمنح الناس صكوكا للغفران و...

لم أكمل كلامي فقد شعرت بغياب فرات المفاجئ وكأنه فقاعة حزن ذابت في الهواء.. بحثت عنه بين جموع الناس، في الأزقة والشوارع، عند الأهل والأصدقاء، لم أجد له أثرا حتى هذه اللحظة، ولكن ما تيقنت منه انه لن يرجع ثانية الى أحواض النسيان النيتروجينية والتي أكلت من حياته وحياتنا أربعينيات لا تحصى من السنين وقذفتنا في عوالم اشد سوءا من ذي قبل...

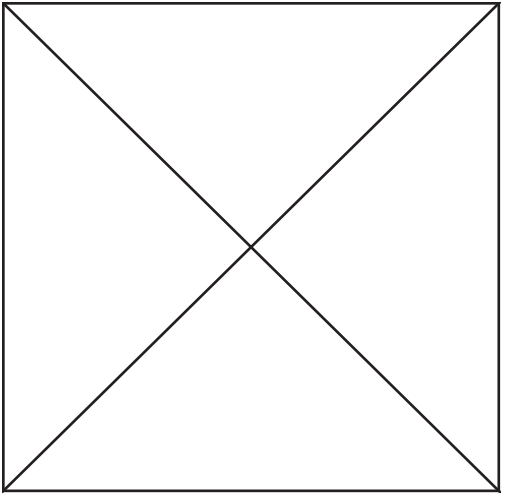

قصة قصيرة مترجمة

الولدة *

ئورهان كمال
ترجمها من الهولندية: نزار محمد سعيد

أورهان كمال، اسمه الأصلي " مصطفي رشيد ئوگوتچو " ولد سنة 1914 لم يستطع إكمال دراسته لهروب والده الى سوريه ومنها الى لبنان لأسباب سياسية. بعد عودته سنة 1932 الي تركيا، عمل أورهان كمال عاملا فموظفا في معمل للقطن. بدا في كتابة الشعر سنة 1939، وأحيانا كان يكتب الرواية والقصة القصيرة. توفي سنة 1970 في العاصمة البلغارية صوفيا. من أعماله: السنوات الحبلى، الأرض الكثيرة البركات، نحو الأعالى.

أما المترجم نزار محمد سعيد فهو من مواليد مدينة دهوك عام 1953 عمل في مجالي التدريس. اختصاصي في حقلي التنمية الثقافية والبحث الإجتماعي من مدرسة اوتريخت العالية بهولندا، كما عمل منسقا تنفيذيا للإعلام لدى المعهد الدولي لشؤون المهاجرين في مدينة هارليم بهولندا. صدرت له مجموعتين قصصيتين هما: (الطاحونة) و(صهيل الجبل الأبيض).

في مزارع القطن التي لا يرى نهايتها، اصطف مئات العمال على شكل مجموعات مؤلفة من عشرة الي خمسة عشر عاملاً، وهم منهمكون بكل ما أوتوا من قوة، في تنظيف نباتات القطن الحديثة الزراعة من الأعشاب الضارة. تربو درجة الحرارة تحت ضوء الشمس على الخمسين درجة ونيف. ليس ثم طير يحلق تحت قبة السماء الزرقاء المغبرة.

كل شيء يرتجف تحت الشمس الحارقة. العمال الذين ابتلوا بالعرق، يرفعون الأت التعشيب ويضربون الأرض ضربات متتالية متناغمة، تضرب الأتهم الحادة الأرض التي غدت قطعا كقطع الأجر.

ولكي تصيب الأتهم أهدافها، يعمد العمال الـذين أنهكـهم الأعيـاء والـتعب، علـي الغنـاء جمـاعيـا، وكـان صـوتهم يـدوي في الهـواء الساخن:

وراء القلعة يبذرون القمح

يزرعون، يحصدون ويحتضنون الحبيبة.

مـسح " فرحـو عزيـر" يديه المعرقة بشاله الأسـود، وحدق بعينيه المحـمرتين امرأته التي تعمل هي الأخـري على بعد أمتـار منه، كانت تـند صـراخ وآهات تـوجع عنهـا، كان فـرحو حانقا عليها، يدعو لها بالشر.

لطالما حـاولت المـرأة الحـاملـة أن تخفي صراخهـا أثناء الـولادة، خشيـة أن يسـمعها الرجـال الغـرباء. فـإن هم سمعـوا صوتـها، فذلك يعد عيبا وإثما كبيرا.

– فرحـو، صرخ مـراقب العمـال من تحت العريشة.

جلست المـرأة القرفصـاء، ضغـطت بكلـتا يـديها علـى الأرض الملتـهبة، حـاولت أن تقف علـى قـدميهـا، صـرخ مـراقـب العمـال مـرة أخري:

– " گوليزار"، انهضي يا امرأة، دعي آلتك جانبا فأنت لا تقدرين على العمل.

فجأة انقـطعت عنهـا الأم المخاض، لكـنها تعي بأنهـا سرعان ما تعـود، اقوي واشد من ذي قبل.

وعلى أي حال تمكنت مـن أن تجر قدميها خلفهـا لـبضعـة مئـات مـن الخطوات، حـتي وصلت الى بداية حقل القطن.

مـشي فرحـو عزيـر لغايـة زوجته متـوترا، وفي طريقه ألفى ابنته الحافية القدمين، كانت واقفة الى جانب مراقب العمال.

– اذهبي، وخذي مكان أمك

التقطت الصبيـة الآلة التي كانت أطول من قامتهـا، والتي ما فتيء آثار أصابع كف أمها بادية عليها.

حـثت الخـطي الـي العـمل، ووجـدت لهـا مكانا بين صفوف العمـال، المكان الذي كانت أمها تعمل فيه قبل دقائق معدودات.

كمـا لـو انه لـم يحـدث شيء، صـدحت حنـاجر العـمال مـن جديـد بالغـناء وشـرعوا يواصلون العمل ثانية.

كـانت الـشمـس عمـوديـة علـي السـاقيـة المجاورة للـحقل. ما أن تجـول ببصـرك حتي تـري هنا وهنـاك أزبالاً مبعثرة، تري سحالي خضراء وهي تروح وتجيء.

گلـيزار واقفـة عند حافـة السـاقيـة تجول بعينيها حواليها، فهي مشغولة لهنيهة بسماع أزيـز الحشـرات، في ذلك الجـو الحـار تحت أشعة الشمس.

لم تـر أحـدا حـواليهـا، أدخلت يـدهـا في جيب السروال الأسود وأفرغته من كل ما فيه من حاجيات، وضعتها علي الأرض بجانبها.

حينما أحـست قرب موعد ولادتها، جمعت حاجـياتهـا ؛ بعض الخيـوط كانـت قد لفـتها على قطعة من الكارتون، شفرة حلاقة صدئة، بضعة قطع بـالية من قـماش ذي ألوان، قليلا من الملح مع ليمون حامض * *.

الملح ستـنظف به جسـد وليـدهـا، وتضـع قطرات من الليمون في عينيه.

نـزعت سـروالهـا، طـوته ووضعت حجـرا كبيـرا فوقه، فرشـت قطعة كبيـرة من القماش على الأرض، شطرت الـليمون بواسطة الخيط الـى نـصفين، جلـست، ومـا أن سـمعت وقع أقدام حـتي غطت بـين فخذيهـا بكلـتا يـديها. أدارت فرأت كلبا ضـخما واقفا بالقرب منها.

التقطت حجرا وألقمته فولي هاربا، وقف على بعد أمتار منها وهو يشهق هواءً حارا بمنخاره الرطب.

سرى الهلع في دمها و جعل قلبها يدق بسرعة غير معتادة.

يا ترى هل سيأتي طفلها في هاته اللحظات الي الدنيا، وتقع هي جانبا مغمية عليها، وهذا الكلب سياكل طفلها في الحال.

في هذه اللحظات كانت تتأمل ما حدث لـ"فرجة "، تلك المرأة الكردية التي ولدت يوما على حافة نفس الساقية، لفت وليدها في خرقة ووضعته الي جانبها، ثم انتابتها للحظات حالة إغماء، وحينما عادت إلي وعيها وأفاقت، لم تجد طفلها في مكانه، بحثت عنه في كل مكان دون جدوى، وأخيرا الفت كلبا ضخما تحت شجيرة وهو منهمك بأكل طفلها.

حدجت گوليزار بنظرها الى الكلب، لم تسحب عينيها لبرهة منه، وكان الكلب يرنو إليها بدوره.

تبدو من عينيه انه يضمر نية سيئة.

– يبدو من عينيك انك تحمل مراما دنيئا في قلبك ! قالت گوليزار.

كانت طفلتها في الجهة الأخرى من الحقل، يا إلهي كيف لي أن أناديها..

أقترب الكلب رويدا رويدا منها.

– ابتعد من هنا... أيها الأجرب النتن !

تقهقر الكلب دون رغبة خطوة الى عشرة خطوات الي الوراء، وقف، ثم جلس على قوائمه الخلفية ينتظر شيئا. كانت تبدو في عينيه زرقة لامعة. وعلى حين غرة عاودت گوليزار الأم المخاض، اشد واقوي من ذي قبل. صرخت وجثت علي ركبتيها العاريتين.

وضعت كلتا يديها قدامها علي الأرض، بدت الأوردة الزرقاء في يديها متورمة.

انتابتها الأم متتالية، كانت تشتد شيئا فشيئا. فجأة أحست بدم حار، إكفهر وجهها وتشكل غشاء ابيض علي عينيها.

– أنت يا فرحو –صرخ مراقب العمال – اذهب يا رجل وابحث عن زوجتك، إلق نظرة عليها، ماذا حل بها

شخص فرحو عزير غاضبا الي جهة الساقية، المكان الذي تنتظر فيه زوجته مولودها.

هز برأسه مغتاظا حانقا علي زوجته وأطلق كلمات نابية ثم واصل عمله غير مكترث. كانت حبيبات العرق تتصفد من جبينه كل كلي تنزل من بين حاجبيه الشبيهتين بالفرشاة الي الأسفل.

– يا رجل، لم لا تبحث عن زوجتك، اذهب والق نظرة عليها

رمي فرحو آلته جانبا ثم جري، سيلحقها لا محال، ركلها بضعة مرات، بسبب هذه المرأة لا يقدر علي أي عمل.

وقف الي جانب الساقية، گوليزار متكورة على جنبها، ثم شيء بين الخرقة المخضبة بالدماء يتحرك، طفل ذو لون وردي مائل الي البنفسجي، كلب ضخم واقف بالقرب منه، وقد فتح فكيه التي تبدو من بينها أنياب حادة.

قفز من فوق الساقية، فولي الكلب هاربا وهو يلك شفتيه المغضبتين بالدماء.

كان الطفل يضرب بيديه ورجليه الهواء، عيناه كانتا نصف مفتوحتين.

فرحو كان يبعد الذباب الأخضر التي كانت تحط على وجه طفله.

ابعد الخرقة من علي جسم الطفل، إنه صبي !

فجأة تحول الي إنسان آخر، رفع يديه نحو السماء، ارتسم سرور لا يوصف، بين حبيبات العرق اللامعة على وجهه الأسمر الذي احرقه الشمس.

رفع الطفل بخرقته المدمية نحو صدره وصرخ:

– أصبح لدي طفل ! ايها الناس، لقد جاءني صبي !

أحس كما لو انه يطير في السماء من شدة الفرح، وأخيرا وبعد أربعة إناث جاءه صبي.

حينما سمعته زوجته، جعلت تحملق فيه من طرف عينها.

– عاشت يمينك... عاشت يمينك أيتها المرأة ! قاله فرحو.

امسك بالطفل علي صدره محكما، قفز من فوق الساقية وجرى على الأرض المتشققة. ما أن رأى مراقب العمال فرحو، حتي صرخ مناديا:– أيها الشباب، ها لقد قدم فرحو !

اتكأ جل العمال على الأتهم ورنوا الي فرحو، صرخ فرحو وهو يلهث:

– صبي، أصبح الآن لدي صبي !

شد الطفل الملفوف بالخرقة علي صدره، الطفل الذي ما فتيء يبدو بنفسجيا.

انتبه يا رجل لئلا تسويه مع الأرض!

واصل مراقب العمال حديثه وقال:

– اذهب إلى داري، سلم على أولئك الذين يعدون الطعام وقل لهم، أن يعطوا لزوجتك مزيجا من الدبس والزبدة كي تشرب.

نسي جل تعبه، كذلك لم يعد يشعر بسخونة الجو.ونسي غيظه من كون الرجال الغرباء يسمعون صرخات زوجته أثناء الولادة. فرحو عزير، ينتابه شعور في هاته اللحظات كما لو انه شاب في العشرين من عمره، يشعر كانه طير حالق في الأعالى وهو في طريقه باتجاه أكواخ القرية، تلك الأكواخ المصنوعة من القصب.

* قصة الولادة نشرت في انقره؟ سنة 1975 ضمن مجموعته؟ القصصية الموسومة بـ " المظاهرة ".

المصدر:

Korte verhalen Uit afrika, azie en latijn amerika
Erena bayman
Het Wereldvenster, Baarn
NOVIB, s-Gravenhege; NCOS, 1987, Brussel

* *في بعض المناطق من تركيا ثمة عادة باقية الي اليوم، وهي إنهم ينظفون جسم الطفل الوليد بالملح مباشرة بعد الولادة. كذلك يضعون قطرات من الليمون الحامض في عينيه. القصد من ذلك للحيلولة دون تأثر الطفل برائحة العرق، ولتسهيل عملية التنفس. وتستعمل قطرات الليمون كمضاد للالتهابات.

رواية زفاف عبد الكريم قاسم *

مقداد مسعود

مقداد مسعود، شاعر وناقد من مواليد 1954، أصدر العديد من الدواوين الشعرية: المغيب المضيء (بغداد/ 2008)، زهرة الرمان (دمشق/2009)، الزجاج وما يدور في فلكه (بغداد/2009)، بصغيري أضيء الظلمة وأستدل على فراشتي (دمشق/2010)، شمس النارنج (دمشق 2011). وله في النقد: الأذن العصية واللسان المقطوع / قراءة اتصالية في السرد والشعر (دار الينابيع/ دمشق/2009). كما نشر مقداد مسعود العديد من المقالات في الصحف والمواقع على الأنترنت.

بصرة...بصرة 2 حزيران 1953

برفقة هادي المتروك.. وصلنا سلام عادل وأنا..

في محطة المعقل شاهدنا عبد اللّه حاتم.. عامل معروف جماهيريا في بغداد، يبتسم لنا لم أقل لسلام.. الضرورة الحزبية، لا المصادفة جمعتنا معه الآن في محطة المعقل.. عبد اللّه حاتم، إذن مرحل مثل سلام عادل للعمل في البصرة.

بعد سنوات راح أعرف... عبد اللّه ضمن لجنة المنطقة الجنوبية...كأن هادي المتروك رحلنا إلى عبد اللّه حاتم الذي سيوصلنا إلى حي عمالي يعيش ويعمل فيه عمال الميناء وعمال شركة نفط الجنوب سنستقر فيه لمدة زمنية مع عائلة مكلفة بذلك حزبيا...

بعد زواجنا بثلاث أيام.. إلى البصرة. سافرنا. كيف أنسى.. الثالث من حزيران ٥٣ ونحن ندعو بعض

الصديقات والأصدقاء.. لهم علاقات اجتماعية واسعة في بغداد، ليعلنوا خبر زواجنا على نطاق واسع.. كما أعلنا سلام وأنا.. شهر العسل في دمشق..

في ذلك البيت العمالي...أثر وصولنا مباشرة.. غيرت ملابسي.. لبست أحدى الدشداشتين... خاطتهما العزيزة أم حسين الوردي.. تفوطت كأي كادحة بصرية، وتبادلنا السوالف مع إستكانات الشاي.

في هذا البيت العمالي المؤنس أنا زوجة ابن عم.. ربة البيت.. ولأنني لا أتقن اللهجة البصرية..

فأنا أعاني من الم في أسناني..؟. لا أستطيع الكلام !!

اللّه..... !! أي دقة ونباهة وحذر وشجاعة وحرص...علمتني.. سنوات العمل السري العشر..؟!

في سطح ذلك البيت البصري العمالي...أنا مستلقية في الفراش.. سلام كل ليلة يأتي متأخرا

اشتم في دشداشته وغترته البيضاء وسترته روائح لوكس وتركي وسكاير غازي

كنت أزعل كأي زوجة وهي في شهر عسلها.. لماذا حين يغادر لا يخبرني...ثم تآلفت مع ذلك..

يقتسم معي الوسادة.. لا ليهمسني..... يقتسمها معي... يطرح علي مقترحات.. آراء...إشكاليات التنظيم.. رؤى خطط عمل الحزب..... يهمس كل ذلك دون ذكر.. أسماء أو حقائق.....يطرحها كمشاريع...

ذات ليلة تأملني وأنا ابتسم في وجهه الجميل...همسني: ها.. ثمينة خير؟!

أهمسه مازحة: يبدو... أنا سبورتك.. تكتب أفكارك عليها وبعدين تمحو ماكتبت..

لم يستفزه مزاحي.. تحولت ابتسامته إلى ضحكة خافته...ولولا نوم الجميع في السطح لقهقه عاليا.

هل كان سلام عادل يحاورها؟.. يحاور نفسه من خلالها؟يشركها ليعمق وعيها الثوري؟

أم ليودع لديها:إشكاليات أقفال /مفاتيح /شفرات مغلقة؟ سلام عادل يخاطب ثمينة ناجي.. امرأة لا علاقة لها بالمرأة النمط التي اعتادت على فعل الأستعارة... استعارة ذاتها من كتالوك أنثوي أنتجته الذكورة وتأطرت الأنوثة فيه واستمرأت ذلك.. وماتزال..

***

8/8/ 2009 في مهرجان رابطة الأنصار الشيوعيين... كلفت أنا مقداد مسعود بعرافة حفل اليوم الأول، في فندق السدير... كان ذلك بعد انتهاء أعمال مهرجان الجواهري وعودة الوفد البصري إلى البصرة. بحثت عن المناضل كريم أحمد طمعا في تنضيد معلومات روايتي.. بإسنادها وثائقيا إلى شهود عدل ساهموا بأجمل زهرات أعمارهم من اجل فرح جماعي للعراق.. والمناضل أبو الشهيد ناريمان.. ثمة من أوصل إليه فكرة مشروعي الروائي هذا...هل تحدثت أنا شخصيا مع الأنصاري (آشتي) في المربد الأول بعد سقوط الطاغية، قبيل الجلسة النقدية التي كنت مقرر جلستها.. شارك فيها الروائي زهير الجزائري والناقد والروائي جاسم عاصي والدكتور سالم جار اللّه من الموصل...

سألت المناضل المخضرم كريم أحمد: كم مرة تعرض سلام عادل للسجن..

وضع يده اليمنى، على كتفي الأيسر... وغادرنا صخب القاعة إلى هدأة الممر:

أولا أتمنى أن أقرأ هذه الرواية..

سجن سلام عادل في بداية 1949 أمضى أربع سنوات في نقرة السلمان.. أطلق سراحه عام 1953

وضع في الرمادي تحت الأقامة الجبرية لمدة عامين.. يومها كنت أنا مسؤول قيادة الحزب، بعد إلقاء القبض على بهاء الدين نوري... ناقشنا الأمر في اللجنة المركزية.. ثم

كتبت له رسالة باسم اللجنة المركزية.. فهرب سلام بعد يومين من وصوله للرمادي..

***

الحسين الأهوازي إلى البصرة، سنة 264للهجرة: يتوجه وكان.. في بداية العقد الثالث.. يقيم في حي تميم المجاور لحي عقيل بن أبي طالب.. يشارك، في ثورة الزنج... أبن دريد أبو بكر محمد بن الحسن بن عتاهية الأزدي العالم البصري يهرب من البصرة الى عمان.. وحين أصبحت ثورة الزنج من الثورات المغدورة.. يختفي الحسين الأهوازي.. ويرى بعض المؤرخين...

حسين الأهوازي هو الحلاج.. حيث كان الحلاج يؤمن بتعدد التسموية، فهو في الهند (المغيث) وهو(المميز) في خراسان وهو الشيخ حلاج الأسرار في خوزستان...شخصيا أرى في تعددية الأسماء وتغيير الزي كما شاع عن الحلاج.. يدخل ذلك ضمن الصيانة في التنظيمات السرية...الحسين الأهوازي يستخدم طريقة ذكية في قيام الأضراب: وهو بشخصيته الكاريزما والتفاف الناس حوله.. يخبرهم أن الصلاة المفروضة في اليوم هي خمسين صلاة في كل يوم وليلة. ومن خلال هذه الفروض كان الأهوازي يفعل إضرابا مبطناً ضد جشع الملاكين الظلمة.. الأمر.. استفز كبير الملاكين الوالي (الهيصم)...انتزع حسين الأهوازي.. من بين الجموع.. وحبسه في غرفة من غرف قصره المنيف.. ليقتله.. عند الصباح وهو يفتح باب الغرفة / المحبس: لم يجد الأهوازي..هنا أنتصر الميثالوجي لدى الفلاحين الفقراء على ثوريتهم وهم يشيعون: الأهوازي ارتفع....ابتسمت جارية من جواري (الهيصم) في سرها.. وهي تعيد مفتاح محبس الأهوازي.. تدسه تحت وسادة سيدها الثمل جدا، بعد أن أطلقت سراح الأهوازي وجهزته بجهاز سفر بعيد...قلبها يبتسم الآن... وصلت الى قصر سيدها شائعة الفلاحين الفقراء: الأهوازي رفعه اللّه الى السماء....

277 للهجرة طولب الوراقون (نساخوا الكتب) في بغداد أن يقسموا الأيمان، بأن لاينسخوا كتابا في الفلسفة حتى هجر النساخ حرفتهم / ص875/ حسين مروة / النزعات المادية في الفلسفة العربية الأسلامية / الجزء الأول...

سيختفي الحسين الأهوازي، بعد هروبه من الوالي الإقطاعي (الهيصم) في 278 للهجرة يواصل الأهوازي تنقلاته وتخفيه ثم يظهر في بغداد 292 للهجرة.. مستشارا سريا لأبرز قائد عسكري، ويستمر في سريته هذه حتى 296 حيث تقمع ثورة أبن المعتز.. يفر إلى الأهواز ويمكث فيها حتى 301 ثم يلقى القبض عليه ويقاد الى بغداد كأحد دعاة القرامطة.. / هكذا يخبرنا الدكتور محي الدين اللاذقي في كتابه ثلاثية

الحلم القرمطي/ ص162

الأوضاع مضطربة في بغداد.. الأسعار مرتفعة الأمن خفيض، الضرائب سخية، العدل بخيل، كسرت السجون فر المساجين، باستثناء الحلاج زلزلت الأرض زلزالها.. أخرجت الناس أثقالها.. تشظت دماء السجناء في سجن بغداد المركزي 18 حزيران 1935 تساقط العزل المقيدون بمفاتيح مستقبل زاهر..

في منتصف سبعينات القرن الماضي، وأنا أقرأ كتاب سعاد خيري (من تاريخ الحركة الوطنية) و(تاريخ الوزارات) للمؤرخ عبد الرزاق الحسني.. سألت معلمي الأول / الخياط الأمهر (محمد مسعود) نزيل السجون العراقية ونقرة السلمان، أتمنى أن اكتب كتابا عن تاريخ الحركة من خلال السجون العراقية..

كنت في أوج رومانسيتي الثورية.. روحي عذراء.. لم تغتصبها أمزجة الفاشية لم انتبذ، في قعر مظلمة لم اعرف، كيف تتشتت عائلة متماسكة بسبب نصاعتها، ما مر ببالي ترقين قيد عائلتنا وهي على قيد الحياة... موت النبية أمي... بالحسرة القلبية وغياب أولادها عن مجلس فاتحتها وهم أحياء، لأن مجالس الفواتح استعملتها الفاشية كمائن، لاصطياد الخيرين في الحركة الوطنية..

أستمرأ معلمي إصراري.. عند المساء... محل الخياطة... منتصف سبعينات القرن الماضي.. وجها لوجه مع الأسطورة المناضل سليم إسماعيل/ أبو عواطف.. رحب بي وحين صافحني أبقى كفي بكفه، كأنه يفرغ شحنة ثورية من كفه الى كفي.... أو كأنه يقيس منسوب حماسي الثوري...ثم حدثني:...يا مقدادنا.. سأخبرك بما ينفعك فدونه في دفترك الذي تحمله مع كتبك:

حزيران 1935أرتفع التذمر من قبل المساجين في سجن بغداد المركزي.. كانت المعاملة في منتهى الوحشية، المجرم (جبار أيوب).. أراد تجريد السجناء من كافة مكتسباتهم.. تعمد المجرم... إخبارهم بطريقة مرعبة.. كل ماعرفوه السجناء أنهم سينقلون الى سجن يعزلهم تماما عن عوائلهم ويجردهم من المكاسب البسيطة التي بصمودهم نالوها.

18 حزيران 1935 استيقظ السجناء على طوق من الشرطة المسلحة... بكامل عدتهم يحتلون سطوح السجن.. ثم بدأوا برمي السجناء بالحجار.. ثم بالقنابل المسيلة للدموع.. وحين تجمع السجناء في: ساحة السجن.. انفتحت عليهم خراطيم الماء...ثم انفتحت عليهم البنادق.. أختلط الماء بالدم تساقط العزل تضرجت ساحة السجن بثمانية سجناء شهداء وبثمانية عشرجريحا.. وبهذه الطريقة الوحشية تم نقل السجناء الى سجن بعقوبة المركزي..

بعد ثمانية عشرة عاما تحديدا 5/22/ 1989سيحكم على مقداد مسعود بالحبس الشديد لمدة أربع سنوات من قبل المقدم داود فيصل عبد الرزاق، قاضي المحكمة 18/ ولضيق وقت القاضي، كان يحاكمنا بالجملة...

وحين زارني...في سجن بعقوبة المركزي، في 2/7/ 1989معلمي الأول.. محمد مسعود، في المواجهة قلت له ونحن نشرب شاي السجن: مباركة أمنا ثلاثا... بين النساء، أولادها كلهم تخرجوا في السجون

العراقية: بدرجة شرف..... مبتسما بصوت مثقل بندى أخوة باسلة: تبادلنا الأدوار يامقداد في الستينات حتى ترحيلنا الى نقرة السلمان، كنت أنت تزورني بقاطك ورباطك وأنت في الرابع الأبتدائي في مركز الرباط.. مركز البصرة سجن البصرة المركزي.. أنت وخالتي... يفتشك الحرس وتدخل حاملا السفرطاس والملابس والفاكهة والبريد السياسي يستلقي مسلفنا تحت التمن..

ابتسمت بدوري وأضفت: وأغادر المركز أو السجن وقد دسستم البريد الحزبي في جيب السترة المفتوح على الأبطانة.. أنت أو هاشم الطعان الذي نال في أوائل السبعينات شهادة دكتوراه بامتياز أو... عارف عبد الرزاق.. المقدم سمكو مقديد.. غني القريشي... وأحيانا عواد الدودان أو الملقب بنج إدريس.

يبتسم معلمي الأول: مانسيت أحدا...!! أتأمله أشعرني ارتوي.. من عذوبة ابتسامته.. قلبي يخفق.. قلبي علم منتصر على رابية أهمسه: زهرة الرمان...ذاكرتي والقميص.هما...مالي ورأسمالي.. يا أبو سلام.....

نصمت.. ضمن ضجيج بهيج يلونه تداخل أصواتنا العوائل والمساجين ثم أخاطبه بنبرة من يتذكر:

لن أنسى تلك المرأة العظيمة أخت الشهيد عبداللّه رشيد، المتهم ظلما بسحل (أنس) في المعقل، هووكريم حسين... تدمع عينا محمد مسعود، ثم يضيف هامسا: غترة الشهيد كريم حسين.. عندي ماتزال.

(صمت)

ألمعلم الأول يتأمل وجوه السجناء بحنو فياض.. هل يتفرس أوجههم ليعرف أجدادهم.. أخوالهم؟ الذين رحلوا بعيد مجزرة سجن بغداد 1935الى سجن بعقوبة: الياس حنا كوهاري أبو طلعت أول شهيد تحت التعذيب في قصر النهاية.. زكي خيري.. عمر الياس.. عمر علي الشيخ.. مهدي حميد.. سلطان ملا علي.. حسين الوردي.. جميل نوري.. حميد عثمان.. هؤلاء من نقرة السلمان قدموا مكبلي الأرجل بالحديد...إلى سجن بعقوبة.. هاهو(آرا خاجادور) بمعوله يحول كوات الزنزانات... نوافذ للشمس.. مكرم الطالباني مسؤولا عن لجنة الأخبار وعن الراديو الكبير المنصوب وسط القاعة في تلك السنة كان أصغر سجين بيننا هو من إبراهيم الحريري.. كتاب تاريخ الوزارات يجمع السجناء كلهم وخصوصا علي الوتار وإبراهيم الحريري ورسول رضا الجبوري وسليم إسماعيل.. كان ذلك في 1945

أنا ارتشف وجه أخي.. ملعون هذا الخجل البصري.. أشتهي معانقة أخي أمام الجميع.. أن اباهل... بصموده... بوعي الثوري. مواجهته لصنوف التعذيب... إيمانه المطلق بزهرة الرمان، بالكتب الكتب التي يقرأها، ويحلمها ويفصلها بمقص الخياطة ثم يخيطها بكل أناقة... هو من أوصلني... تاريخ الحركات الفكرية في الأسلام.. / ...حكمة الديانة الحية/ مؤلفات سلامة موسى خالد محمد خالد / علي الوردي/ شاكر خصباك وروايته الحقد الأسود/ جاك لندن.. العقب الحديدية/ غوركي/ غوغول / بوشكين/أغاني فيروز/ منيرة الهوزوز/ كامل الخلعي/ عبدالوهاب/ محمد

القبانجي/ كارم محمود أفلام فيكتور ديسكا/ سينما الواقعية الأيطالية/ ماستريو ماستريانى/ اليزبيث تايلور/ تيرن باور/ جون وين جميس دين/ الفيس برسلي/ سمفونيات بتهوفن/ سبارتكوس للموسيقار جاغوتودريان/ بحيرة البجع جايكوفسكي حلاق اشبيلية: روسليني/ هايدن: كسارة البندق...

* ونحن نتبادل الأبتسامة: مقداد.. زين أعرفك.. راح تكتب كل مايجري..

* وضعت كفيه بين كفي.. شعرت ونحن نتبادل النظرات أن دموعنا انبجست من اكفنا.. طلينا في ذات اللحظة / وجهينا بابتسامة واحدة، ثم همسته: أيها الخياط المعلم أنا تلميذك.. مهارتي من صنع عقلك...أنت أول قرائي..

* سأكون فيك.. تشعرني وأخاطبك من خلالك وأنت تكتبني.... من خلالهم

* أبو سلام...عمرك طويل

* دعها حرة تأتي بما تلد

شقيقي ومعلمي معجب جدا بشخصية الشاعر طرفة بن العبد.. كان كثير الأستشهاد بقصائده.

اللجنة المركزية... قررت أن يقود سلام عادل منظمة المنطقة الجنوبية، لتستعيد حيويتها بعد الضربة الشرسة التي وجهت لها...اعتقلت كوادرها بعد انتفاضة 1953

وما أن ذكر المناضل كريم أحمد، اسم ناصر عبود.. بادرته أنا.. شكرا...

ليلتها لم أنم.. بعد أن نام الشاعران موفق محمد وكاظم الحجاج.. بقيت يقظان لوحدي.. أستعيد كلام كريم أحمد... فتذكرت حواراتي مع أبي خالد /ناصر عبود، في مقر محلية البصرة... أخبرني في ضحى 8/15/ 2005: أكتب يا مقداد.. كتابتك ثمة من يحتاجها اكتب ولا تنسى الشاعر الذي فيك وأنت تكتب.. واكتب بطريقتك أنت لا بطريقة هذا وذاك.... عرفت أنك منذ منتصف الثمانينات وأنت تحمل صليب مشروعك الروائي على كتفك... وها أنت الأن...تحاورني.

ثم تنتقل الى أبو خالد/ سلطان ملا علي...وتخلف وعدك معه.. فإذا بك تختفي بإحدى الغرف مع شقيقه محسن ملا علي ليحدثك عن إضراب الموانئ وإضراب شركة نفط الجنوب.....

يصمت ناصر عبود قليلا.. ثم يلتقط خيط التاريخ ويدخله في إبرة الكلام.. ليخيط لي مسردتي التالية:

حين أعتقل بهاء الدين نوري في نيسان 1953 صار كريم أحمد هو مسؤول قيادة الحزب.. وأبو نريمان يعرف سلاما منذ سنوات الدراسة.. يومها كان سلام قد أطلق سراحه للتو.. وكان متخفيا بعد فراره من الأقامة الجبرية في الرمادي.. في بيت الشهيد طالب عبد الجبار..

لم يطلب.. ملبسا أو مالا. من الرفيق طالب... أراد منه – وهو كان قد قرأها نقرة السلمان فقد وصلت للسجناء بهذه الطريقة أو تلك –فأمتثل طالب و جلب له كل أدبيات الحزب، التي صدرت في فترة اعتقاله.. تلك الليلة سهر سلام عادل للصبح وهو يقرأ الأدبيات وفق تسلسلها التاريخي...هل هي قراءة أم رؤية مالا يراه سواه من مخفيات وإشكاليات السنوات الأربع حزبيا..

في الليالي التالية.. سلام يسأل وطالب

يجيب وهما لا يتوقفان عن احتساء خمرة الفقراء باستكانات أيام زمان على أثرها يقدم سلام عادل قراءته الخاصة لتلك الأدبيات..تلاقي الترحاب من رفاقنا في اللجنة المركزية وشخصيا كنت إلى جانب التقرير المرفوع من قبل سلام عادل وكذلك سكرتير اللجنة المركزية وكان يومها كريم أحمد.. في تلك الأيام انتقل سلام إلى بيتي وكنت أشغل موقع المسؤول الثاني في الحزب..

*أبو خالد.. ما علاقتك بالمناضلة ثمينة ناجي؟

*يبتسم ناصر عبود.. ويخاطبني: خوش عندك سوالف.. كلفني الحزب بكتابة رسالة إلى رفيقتنا ثمينة عرضت عليها أن تتزوج سلام عادل.. وثمينة من المشاركات بانتفاضة 1952وهي من عائلة ديمقراطية معروفة.. والدها كان مدير معارف لواء الديوانية في الخمسينات...وقبل اعتقاله عام 49سلام خطبها ووافق أبوها..

* مقداد مسعود...عن الكتابة يتوقف... يتمنى... أن يملي ذلك كله عبر شريط تسجيل.. ثم يكتبه بالقلم السوفت على الورق الأبيض.. لا يثق بالحاسوب.. خدعة التقنية.. الحاسوب خائن... يضطرك للفرمة.... كثيرا ما أخبرتها ذلك... حتى صار ذلك يقلقها جدا.. جدا

يترك مقداد أوراقه.. يتوجه الى توفير أسباب الحياة اليومية: البقال...المخبز...صاحب المولدة.. ثم يتوجه الى شارع عبد اللّه بن علي... بعدها يقصد أم البروم.. يتوقف عند مكتبة المربد ليسدد ماعليه من أثمان المجلات الدورية... يقصد ناصر أبو علي... يتصفح الجرايد ويستلم منه بريده الثقافي.. يتوجه للتبضع من السوق... يدلف مكتبة الزهراء، يلتقط الجديد القادم من بيروت... وفي اللحظة ذاتها يتصل ويخبرها انه في شارع عبد اللّه بن.. علي.. قرب ناصر..ألا تسمعين الأصوات؟ أنا الآن في السوق قليلا وادخل مكتبة الزهراء.. وفي المكتبة ما أن يلتقط كتاباً يتصل بها: ألو بين يدي كتاب ينفعك.. تغمره بصوتها الفضي.. ستعود وارى كفى تبذيرا بالرصيد.. يرد ضاحكا: الرصيد تحت نعليك....

قبل وصوله الى الأعدادية المركزية.. تزلزل الأرض زلزالها.....

.. يقف في مكانه.. يختنق الشارع بالسيارات.. السماء.. بدخان كثيف كالحقد أسود.. صريخ.. عويل

نساء يتراكضن وهن يسحبن أطفالهن رجال.. تهرع الى الشارع. يستقبلهم زلزال ثان.السماء قبل الأرض.. تميد.صخب. صخب.. صخب معدني.... و دوي ثالث يرج شارع عبد اللّه بن علي.....

.. كانت ثمة مدينة عتيقة.. تسمى.. بهشت أردشير أي جنة اردشير..

.. شن عليها الغارات... المثنى بن الحارثة الشيباني حتى خربها في سنة 17 للهجرة وقيل 14 أو 16 للهجرة.. هذه البقعة لم تكن خيمة في صحراء.. كانت مجرات سماوية تنبض على أرضها.. مجرات متشبكة متظافرة حضاريا.. أصوات فينيقية متمازجة مع زرادشتية ومانوية فارسية.. ديصانية ومرقوتية.. صابئة حران.... مشائية أفلاطونية، تاوية الصين تتمشى برفقة التناسخ الهندي.. هيلينية متأخرة.. ممزوجة

بمسيحيةشرقية...في هذه البقعة المباركة: عرب اقحاح... فرس.. هنود.. فينيقيون.. نبط.. زط.. أحابيش.. روم سيابجة.. إنداغار من أصول متجذرة في السند...بخارية جلبهم عبيد اللّه بن زياد من آسيا الوسطى...

كل هؤلاء وسواهم كانوا يأكلون من ماعون واحد أحد أسمه: بصرة.. نعم بصرة فهي ليست نكرة لأحليها بألف سلام... أقترض من التوحيدي حنجرته وأخاطبها: بصرة... واباهل.. كما باهل أبو حيان:

يابصرة..

ياخير بلاد اللّه للجائع والمفلس والعزب

*الدنيا...: بصرة / الصحابي الزبير بن العوام

أمتلأ الماعون بخيرات اللّه كلها.. ازدهرت التجارة.. انتعشت الرفاهية.. إنبجس الناس صوبها... من مكاني في دكاني أحدثكم أنا سعيد...سعيد بن سلام بن حماد التميمي.. ها أنا أراهم يمشون معا قاصدين دارة الأزدي.. أراهم ستتهم واعني أصحاب الكلام في البصرة: عمرو بن عبيد.. واصل بن عطاء.. بشار بن برد.. بن عبد القدوس...عبد الكريم بن أبي العوجاء.. جرير بن حازم الأزدي..

أصواتهم تتعالى وهم في الزقاق المؤدي الى بيت الأزدي.. وأصواتهم تعالى حادة وهم يغادرون بيت الأزدي: بن عبد القدوس وعبد الكريم انقطعا ثم تابا.. ولم تنفع توبة ابن عبد القدوس عن قتله على يد الخليفة المهدي عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء.. أصبحا من أئمة الأعتزال... أما الأزدي.. فتمذهب بمذهب السمنية وهو من مذاهب الهنود... الذي بقي متحيرا مخلطا هو بشار.. وحسم حسام المهدي حيرته في البطحاء...

بن عبد القدوس.. أتهمه المهدي بالزندقة، فأمر بحمله إليه وأحضر بين يديه، فلما استجوبه.. المهدي.. أعجب بغزارة أدب بن عبد القدوس وأعجب بعلمه وحلاوة بيانه وقوة الحكمة في شعره فأمر بتخلية سبيله.. وحين أصبح المهدي خليفة انشغل بتصفية موجة الزنادقة التي علا منسوبها في حينه فأمر بإحضار بن عبد القدوس... وأستجوبه قائلا، أليس أنت القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضنا عاد إلى نكسه

فقال: بلى يا أمير المؤمنين

أجابه المهدي: فأنت لا تترك أخلاقك ونحن نحكم فيك بحكمك في نفسك، ثم أمر به فقتل وصلب على الجسر..

الحكاية كاذبة إليكم حكايتي... إن حكايتي لا تجرح..

من أنا؟ أنا الخطيب البغدادي... المهدي قال له أنت القائل هذا البيت وهي تمس الرسول (ص). أجابه عبد القدوس: لا واللّه يا أمير المؤمنين.. واللّه ما أشركت باللّه طرفة عين... ناشدت اللّه يا أمير المؤمنين لا تسفك دمي على الشبهة..

ثم لما أراد المهدي قتله على الزندقة.. رمى إليه بكتاب، وقال له أقرأ هذا؟

قال بن عبد القدوس: ما هو؟

الخليفة: كتاب الزندقة..

بن عبد القدوس: أو تعرفه أنت يا أمير

المؤمنين إذا قرأته؟

الخليفة: لا

بن عبد القدوس: افتقتلني على مالا تعرف؟

الخليفة: أعرفه

عبد القدوس: عرفته ولست بزنديق، وكذلك أقرأه ولست بزنديق..

وهذه الحكاية مجروحة...يومها كان بن عبد القدوس قد شارف التسعين.. هل بصره حديد؟

هكذا صار الخليفة قاضيا، وأصدر الحكم ونفذ حكمه سريعا برجل على مشارف التسعين: بن عبد القدوس..

هل احتز رأس الشيخ لموقفه الفلسفي؟ أم لنشاطه السياسي والإجتماعي في.. البصرة؟

أليس هو القائل.. (بقينا في بهائم راتعات تجول ولا إلى عقل تؤول

فأن حدثت عن سمك وبقل فأنت لديهم رجل نبيل

وإن حدثت عن أبواب علم فأنت لديهم فدم ثقيل)

هكذا كان مركز الخلافة يتعامل مع الأطراف.. وما يزال... وما يجمعه السراج لا يبدده سيف الخليفة.. في كل ليلة أراهم يجتمعون.. كل ليلة وأنا ادلف في (الكطانة) الزقاق المجاور لمحلات أحذية باتا في بصرة 1973

في هذا الزقاق بقايا دار عامل الحسبة علي بن يقطين.. وعلى مبعدة منه بيت بشار، .. في منتصف ستينات القرن الماضي، بشفلات تم التحاور مع هذه البيوت ومشتقاتها.. ليمتد لسان مسفلت باسم شارع بشار...ها أنا استروح صوت أبي بصير بشار بن برد.. أستروح صوته ممزوجا بنكهة البيض المقلي للتو، وهو ينشد ويناشد جاريته..

(رباب ربة البيت تقلي البيض بالزيت

لها سبع دجاجات وديك حسن الصوت)..

هاهم العشرة كلهم في مجلس واحد يجتمعون: الخليل بن أحمد الفراهيدي / سني المذهب /والسيد محمد الحميري الشاعر العلوي/ وبن عبد القدوس/ مثنوي./.سفيان بن مجاشع / صفري./ .بشار بن برد: شاعر خليع ماجن/ حماد بن عجرد:زنديق...وابن راس الجالوت: شاعر يهودي/ وابن نظير النصراني:متكلم.. / عمرو ابن أخت المؤيد المجوسي وابن الحراني، صابئي..

وما يزالون على اجتماعهم وصحبتهم وصفوهم ووداهم.. يجتمعون.. رغم التفخيخ والقتل على الهوية وتساقط أئمة المساجد والصحفيون والنساء العراقيات غير المحجبات والمحجبات وانتشار السيلاثيميا والمدارس الثلاثية وغيبة التيار الكهربائي والتهجير والتوظيف بشروط حزبية وتحويل القطن من فم المواطن الى إذني الحكومة.

حقا يامحمد أركون.. إن كهنة السلطة (هم الذين يحددون في كل عصر الحدود الفاصلة بين الإيمان الصحيح والزندقة) كما جاء في كتابك: نزعة الأنسنة في الفكر العربي/ ص48

ولهذا سوف يغتاض الأمام الشافعي.. من أهل الكلام ويفتي (حكمي في أهل الكلام، أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء

من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام).

*عدت الى البيت.. وتفوح مني رائحة عطاب.. رائحة لحم بشري مفحم.. عدت... وسخام يملأ روحي وذاكرتي... كم يحتاج الوحش من ضغينة حتى يفترس.. كل هذه الأحلام الإنسانية المزدحمة في شارع عبد اللّه بن علي..

لم الق التحية...من التلفزيون اسمع صوتا مرتبكا.. اعرفه... يوصل الكارثة الى (الشرقية)..

هل كان الصديق (أمجاد هجول) يتكلم.. أم يبكي.؟؟ في نبرته المتحشرجة عبرة كاتمة صوت تضغط مخارج الحروف تعمدت.. لم أحج الى شارع عبد اللّه بن علي إلا في اليوم الثالث: فضاء من السخام.. صور.. تستغيث على الحيطان.. صور نساء.. أطفال...شباب... صور تصرخ: ابحثوا عنا... ليست هناك مقبرة جماعية في هواء طلق؟

تذكرت ذلك المعوق.. كان يبيع الأرصدة.. وذات مساء رصدوه هو والأرصدة متزامنين مع لحظة الأفطار في رمضان شارع عبد اللّه بن علي خال... أقبلوا كقطيع وبكل شهامتهم...وقعوا.. بمخالبهم الحديدية في الجسد المقعد.. انتهبوا... الأرصدة والنقود، وتركوه برعاية كرسيه المتنقل يتقطر دما... فجأة ندت عني شهقة.. وأنا أتذكرهما: هو بقميصه المقلم.. في منتصف العقد الثالث وهي بأناقتها الباذخة وقامتها السيف.. وأنفها الياباني وهلالا حاجبيها.. صادفتهما أكثر من مرة.. رغم فاصله شفيفة بينهما وهما يتبضعان.

كنت وحدي الذي يرى أصابع كفيهما متداخلة.. مرة وأنا جالس اشرب عصير كوكتيل فواكه.. رأيتهما يدخلان.. ويجلسان جواري.. كانا يتهامسان.. طلبا عصير رمان.. كان الفتى يمد يده ويخرج من كيس النايلون قميص النوم.. يضحكان.. يعيده .. يخرج دمى تبتسم هي.. يخرج سكاكين ملونة المقابض يخرج أكواباً ملونة.. انظري.. يعرض لها لوحة الخياطة المرسومة بريشة فيصل لعيبي.. تهمسه: بلاغة المفاجأة لك وحدك.. تحيرني بأعراسك الصغيرة.. باللّه عليك من يطلع الوحش الذي فيك أحيانا؟؟ يبتسم ويغني بصوت مهموس (للغيرة سبايب على فراك الحبايب) كان يحاكي عوض دوخي في أغاني أم كلثوم.. هي بعينيها تحتضنه فيغمض هو عينين دامعتين.... كانا لا يريان سواهما.

عاشقان اقبلا من زمن، هواؤه لم يستعمل.. لهما روح عذراء.. همسته: علينا أن نسافر.. أكمل الفتى: للمريخ وارتشف رشفة من كأس عصيرها.. ابتسمت له.. أنا ارتبكت.. رأيتني فضوليا رغم عمومية المكان.. فجأة خاطبني الفتى بأدب جم:.. أستاذ من أين اشتريت هذا الكتاب؟ رفع الكتاب وعرضه عليها، ابتسمت هي... قلت له أعجبك؟.. أعجبني عنوانه.. وأكيد الكتاب: حلو...

*ابتسمت لهما.. بحنو مابي من أبوة، وأضفت: زين.. سأهديكما الكتاب..

صدق...؟..

ثم استدركا معا: لكن...هو من حصتكما....

لم اخبرهما بأن المؤلف هو...

وهكذا صارت هذه النسخة من (زهرة

الرمان) لهما وليست للهادئ الجميل القاص والمترجم نجاح الجبيلي. ألآن وأنا أتفقد... كم أخاف عليهما.. أغمض عيني كي لا أرى.. ثم سرعان ما افتح عيني خوفا عليهما...

أتوقف عند مديرية التربية..أستدير صوب مدرسة الجمهورية النموذجية.. أراني في السادس الأبتدائي.. أتجول في شارع عبد اللّه بن علي:

شارع صامت.. باستثناء أصوات الزائرات لضريح عبد اللّه بن علي وأصوات طلبة الثانوية المركزية وهي تتعالى مع كرة القدم.. أو أصوات الطلبة المتسللين من السياج..

ها أبو مسعود...

يعيدني هذا الصوت الى الأن...

أحد الباعة/ الأصدقاء.. أعانقه متحمدا له السلامة.. يومها لم افتح.. تصور؟! يقول لي البائع.

البائع خريج كلية الزراعة/ 1980 له ثلاثة أشقاء ثلاث زهرات رمان في المقابر الجماعية.. لكن لامزاج لدوائر الدولة لتوظيفه وهو مثقل بثلاثة شهداء لا ينسجم مع عراق المستقبل/ هكذا يعلق هو مبتسما.

إذن هذه السوق سوق شارع عبد اللّه بن علي من صناعة سنوات الحصار.. أسوة بسواه من الأسواق ذات الهبوط الأضطراري...

في البيت أفتح سجل زفاف عبد الكريم قاسم.. في منتصف صفحة بيضاء.. بسباتي أخط.. ما أن انتهي من كتابة السطر التالي: ألأربعاء الدامي /شارع عبد اللّه بن علي / 25/ آب/ 2010

تتحول الورقة... شارعا داميا صارخا.. كل شيء فيه يتشظى أمامي.. ملابس الأطفال في البسطات ترتمي لائذة بملابس النسوة.. وما أن تطير.. تتشظى صارخة ينفجر الدم من ملابس النسوة وهي تحتضن ملابس الأطفال المتشظية..

السكاكين ذات المقابض الملونة تغرز في صدور الفتيات وعيونهن.. زجاج واجهة الصيدليات ينفجر في أقفية الرجال.. في أرجلهم سقف خفيض من نار حامية تلتهم من في السوق وما في السوق.. النار.. الصريخ.. صلافة الموت ووحشيته المعدنية

تغلق ممرات النجاة، بالصريخ والصريخ وحده تحاول البقية أن تهدم سدا من النار وتخترقه..

*هذا الفصل.. خص به الأستاذ مقداد مسعود مجلة (الثقافة الجديدة)، في حين نشرت ثلاثة فصول من هذه الرواية في (موقع النور) و(رابطة الكتاب العراقيين) و(الناقد العراقي).

الفاعليات البنيوية في القصيدة الحادية
اشتغال إجرائي على (القطار) لـ الفريد سمعان

بشير حاجم

بشير حاجم من مواليد (1968) ببغداد، حاصل على بكالوريوس في اللغة العربية، كلية الأداب وهو عضو في اتحاد الأدباء والكتاب في العراق واتحاد الأدباء العرب، نشر عشرات المقالات والدراسات والبحوث النقدية في الأدب والتشكيل والمسرح في الصحف والروايات العراقية والعربية، مشرفا على المحاور النقدية لمهرجان المربد في جميع دوراته بعد 2003.وأصدر كتابين في النقد الأدبي هما: زمن الحكي.. زمن القص / تقنية الحوار في الرواية العراقية (1993)، و النص النسقي والنص المتني /في الحركتين المتضافرتين للقصيدة (الانبناء / الأنهدام) (2010). وله تحت الطبع كتاب ثالث بعنوان: رأي الشاعر... رؤية القصيدة/ العقدان الحياتي والفني للجيل التسعيني.

1: منذ الشكلانيين حتى الظاهراتيين، مرورا بالإسلوبيين واللسانيين، ثمة حراك النقديات البنيوية الغربية (1). عبْر تمثلها بأعلام من روسيا وفرنسا وأميركا، غالبا، كان حراكها، هذا، قد دار حول عدة من المفاهيم الأساسية للبنية. أبرزها حراكيا، تآلفا "و/ أو" تخالفا، مفاهيم: المهيمنة/ الأنتظام/ النسق. ذلك لأن كل واحد منها، ثلاثتها، ذو تأثير قوي في "طبيعة التحليل البنيوي"، = الفاعلي، ومن هنا أبرزية الحراك الدائر حولها.

2: يعتقد بنيويون عرب، = لا عراقيين/ مشارقة خصوصا، أن تناول الجوهر الشعري غير متناسب مع طبيعة التحليل البنيوي. ذلك، لتمرير هذا الأعتقاد، استنادا إلى رولان بارت - في المقام الأول - منذ بواكيره (2). إذ أنه، في تلك البواكير، كان، كما هو معروف، قد وصف تحليلا كهذا - بنيوي المنهج - بـ ؟الفاعلية البنيوية؟. أما هم، بدورهم، فرأوا أن في اكتناه الرؤيا الجوهرية للقصيدة - أية قصيدة - خروجا على طبيعة

فاعلية كهذه.

1-2: كمال أبو ديب، مثلا، حاول، مطلع الثمانينات، أن يقوم باكتشاف أولي لوظيفة الأنساق، البنيوية، من حيث علاقاتها ـ تحديدا ـ بتنامي القصيدة ورؤياها الجوهرية (3). حينها، قبيل بدئه بالمحاولة، تنبّه، أو نبّه، إلى أن في استحضار هذه الرؤيا "ما قد يبدو خارجا على طبيعة التحليل البنيوي". ثم استأنف، فورا، أن استحضارها (هنا) مختار (بعناية). وعلل اختياره، هذا، بأنه يسعى لـ ؟تطوير التحليل البنيوي بحيث يطمح في النهاية إلى تحديد الرؤيا الجوهرية للعمل الأدبي ووضعها في سياق بنية الثقافة؟.

2-2: في الوقت نفسه، هناك، أشار أبو ديب إلى أن مصطلح ؟الرؤيا الجوهرية؟ عنده (لا يتطابق تماما) ومصطلح ؟رؤية العالم؟ عند لوسيان غولدمان (4). بيْد أنه، كأنما شوَّش هذا اللا تطابق؟!، أقر بأن المصطلح الأول متشابك مع المصطلح الثاني (إلى حد بعيد)!!! الغريب، أخيرا، أنه ذهب ـ بعد تلك الأشارة وهذا الأقرار ـ إلى (أن التمييز بين المصطلحين، الأن، ليس ذا أهمية حاسمة).

3: في دراسة سابقة (5)، أيضا بنيوية، بحثتُ الفاعليات "القرائية/ الشعرية/ الأسلوبية" للقصيدة.

1-3: حاولت من خلال بحث كهذا، في الفاعليات، أنْ أفنِّد الأعتقاد البعضي بـ "أنَّ تناول الجوهر الشعري رؤياويا غير متناسب مع طبيعة التحليل البنيوي فاعليا" قدر الأمكان (6). كنت بتلك المحاولة، التفنيدية، أروم الوصول، إجرائيا، إلى أن اكتناه الرؤيا الجوهرية لقصيدة ما، استحضارا لرؤيا كهذه، ليس فيه أي خروج على الطبيعة الفاعلية للتحليل هذا. لقد أردت عند وصولي لذلك النفي، حتما، برهنةَ أنْ لا صنويّة لمصطلحي ؟رؤيا الجوهر؟ و؟رؤية العالم؟.

2-3: وقد برهنت، هكذا أزعم هنا الأن، أنهما، ذاتيا وغيريا على السواء، ليسا متطابقين، لا (تماما)... ولا تقريبا، ثم ليسا متشابكين، لا (إلى حد بعيد)... ولا إلى حد قريب، بالضرورة. أي ميزت بين المصطلحين، هذين، تمييزا يؤكد أن الأول (كفاعلية رؤياوية للجوهر) شيءٌ والثاني (كتكوينية رؤيوية للعالم) آخر. ذاك التمييز، البيني، كان تطبيقيا، لا تنظيريا، على ثلاث قصائد: تناظرية ـ تناظرية/ أحادية ـ أحادية (7).

4: في الدراسة الحاضرة، هنا، أحاول الذهاب أبعد، بكثير؟، مما ذهبت إليه، هناك، في الدراسة الماضية. أسعى للإجهاز على سوءِ فهمٍ، شائعٍ عند بعض البنيويين العرب (8)، بين "رؤيا الجوهر"، النصية/ الداخلية، وبين "رؤية العالم"، السياقية/ الخارجية، في نقد الشعر. سأكتفي، في هذا السعي، بقصيدة أحادية، فقط واحدة، = (القطار)، لـ الفريد سمعان، أبحث فيها خمس فاعليات، لبنيتها، هي، تراتبيا، الإيقاعية/ الأسلوبية/ الدلالية/ اللسانية/ الشعرية.

1-4: تتمثل الفاعلية الإيقاعية، أولا، في نمو المتن، ذي العشرة مقاطع، على الرجز (9)، تشكّلاً/ وحدات/ نوى، منذ مقطعه الأول. سيما أن هذا المقطع، استهلالا للمتن، يبتدئ بتزحيف الوحدة الأصلية "مستفعلن"، خبناً، إلى وحدة فرعية، هي "متفعلن"، مرتين متتاليتين. يعقبه، مباشرة، تدوير، عروضي يتماهى معه آخر معنوي، لـ"مستفعلن"، حيث السطر الأول، ولوحدة فرعية أخرى، هي "مستعلن"، حيث السطر الثاني. ثم يحدث، حيث السطر الثالث، تنويع للوحدات، من "متفعلن" فـ"مستفعلن" إلى "مستعلن"، باتجاه "مستفعلان". التزحيف فالتدوير ثم التنويع، ثلاثتها، تتسق مع سفر (القطار) هذا:

مسافر مع المتاهات/ قطار الحقد والأحزان والخوف/ وأصداء الوعيد. مع ارتعاشه، لاحقا، يتسق تزحيف "مستفعلن"، طيا هذه المرة، إلى "مستعلن". ولكونه "يشق"، وهو "مرتعش"، ثمة وحدتان فرعيتان أُخريان "فعل. فعولن": يشق عبر غابات النخيل دربه. يعاضد هذه الكينونة، له، تدويران متصلان. أولهما، بـ " مستفعلن" لمرتين اثنتين، هنا: يرش بالتراب أجواء/ البساتين/ وجدران البيوت. وثانيهما، بـ "متفعلان" لمرة واحدة، هنا: كأنها غمائم هائمة من/ الضباب. أما: ويستعير من عش النواقيس/ نداءات الرحيل، بعدهما، فيعود التدوير بـ "مستفعلن". كذلك هو، لمرتين اثنتين، هنا: تحملها أشرعة الأمجاد/ والمرافئ الحمراء/ تشتد بها سواعد المناضلين. وأيضا، لمرة واحدة، هنا: ترصدهم بنادق الأرهاب/ ما بين أيادي الحرس/ القومي. لينتهي المقطع، كابتدائه، بتزحيف فتدوير ثم تنويع: رواد المواخير... وأشباه/ الرجال/ وجوقة من اللصوص.

4-2: وتتجلى الفاعلية الأسلوبية، ثانيا، منذ انتصاف المقطع الثاني للمتن، متضامنة مع نظيرتها الإيقاعية، عن طريق (التدويم) (10). فإذ: قطار الموت... والآهات/ يمضي، "تحدو به... متاعب"، ثمة: عاصفة/ تباغت الصمت البليد/ كأنها مطارق من الغضب/ تشق دربها. ولأنها "تشق دربها" كما (القطار) الذي ((يشق دربه))، بمعنى استمرار الدرب، كان متوقعا لهذه الـ "عاصفة"، التي: تمتد ما بين... الغصون الخضراء/ وأشلاء الكرامات، أن تتدوّم. وهو، أي تدويمها، ما سيحدث، لاحقا، عند بداية المقطع الثالث: "عاصفة/ تجمعت فيها عناقيد اللهيب/ تدق أبواب الجناة" ـ "عاصفة/ تداهم الشواطئ الثكلى/ وكثبان الدموع". هذا التدويم، للـ"عاصفة"، كان منطلقا من (القطار) أصلا: قطار الحقد والأحزان والخوف (سطر2/ مقطع1) ـ قطار الموت... والآهات (سطر3/ مقطع2). لذا، تعويضيا، سينطلق منه، من تدويم الـ "عاصفة"، تدويمان اتصاليان. ثمة، تراوحيا، : وأقسمت أن تثار الأوجاع/ والحزن الدفين من طراوة/ الجلاد وشلال الجراح/ وأقسمت/ أن ترتدي الموت (مقطع3). وثمة، تتابعيا، : ليورق الورد الذي يعشقنا/ ليورق الحب الذي ننشده/ ويورق الفجر الذي ترصده (مقطع4). فضلا عن تدويم انفصالي في (مقطع4)، ذاته، يحدث لسطره الرابع "وتكتم الأوهام أنغام الرجاء" بسطره قبل الأخير "وتكتم الأوجاع نشوة النصر".

4-3: لذلك تأتي الفاعلية الدلالية، ثالثا، متصنونة مع الفاعلية الأسلوبية، صياغيا وإيحائيا (11)، منذ بداية المقطع الخامس: تتأهب العجلات. لقد سبقها، سبق هذه البداية، أن كان: ينساب صرير العجلات، حيث: ترتفع الأنفاس، عند بداية المقطع الرابع. هناك... فورا، إثر انسياب الصرير، يحدث أن: تحمل الأشياء ظل بعضها/ وتكتم الأوهام أنغام الرجاء. ثم... في النهاية، نهاية المقطع ذاته، سيحدث أن: تكتم الأوجاع نشوة النصر/ وأشذاء الربيع. أما هنا، الأن، فـ: تتأهب العجلات/ تشهق تحتها القضبان/ يرتفع الضجيج. ولسوف يستغرق تأهب "العجلات" أربعة مقاطع، ما بين البداية لأولها والنهاية لأخيرها، حتى "تتأهب" ثانية. خلالها، خلال هذه المقاطع الأربعة، ثمة، حتما ولا بدّ، ما يدل على مراوحة (القطار) حيث التأهب. أولها، = المقطع الخامس، فيه: ينتشر الدخان ـ تتوزع النظرات ـ تتسابق الخطوات ـ ترتعش الحروف. ثانيها، = المقطع السادس، فيه: أنات امرأة تظل/

يرافق شوقها وجع الجراح/ وصرخة المجهول/ يرعبها فحيح الإنتظار. ثالثها، = المقطع السابع، فيه: ها نحن نشهد. رابعها، = المقطع الثامن، فيه: ها هم/ بكل ما عرفوا به/ زمر تطاردهم مصابيح العدالة/ يتأهبون لنسج أكفان لنا. وأولاء، خصوصا، إذ "يتأهبون"، هنا، إنما: يتوعدون. يتدثرون بعارهم. يبنون من طين الدعارة/ سقف أمجاد ملوثة/ وأبشع ذكريات. بعدهم، مباشرة؟، حيث بداية المقطع التاسع، عند سطره الأول تماما، سوف يحدث أن "تتأهب العجلات" ثانية. إنها عجلات: قطار الموت... والآهات، وهو ذاته: قطار الحقد والأحزان والخوف، ذلك الذي "يمضي/ مع شوارد الليل البهيم". ثم أن مسيّريها، أولئك، هم الذين: لم تمض بهم خطواتهم/ نحو الغد الوردي والأشذاء. لذلك، إذن، فـ: إنها تمضي بدون حقائب/ وبلا طعام/ وبدون أغطية/ تقيها من البرد المؤجل في الضلوع.

4-4: كذلك تظهر الفاعلية اللسانية، رابعا، متصنونة مع الفاعلية الأسلوبية ذات (التدويم) فضلا عن تصنونها مع الفاعلية الدلالية المتصنونة أصلا مع صياغية سابقتها وإيحائيتها. ظهورها، هنا، عبر (التناص) (12)، خصوصا، عند الثلث الثالث ـ تحديدا ـ من المقطع السادس. تسبقه، الظهور هذا، في الثلث الأول، منذ بدايته، دلالةُ لمراوحةِ "القطار" المتأهب: أنات امرأة تظل/ يرافق شوقها وجع الجراح/ وصرخة المجهول/ يرعبها فحيح الإنتظار. بعدها يحدث في الثلث الثاني، اتصالا مع "كيف نغادر" و"ماذا نقول" في الثلث السابق له، تدويمٌ تراوحيٌّ: هل نرتدي ثوب المهانة والنواح ـ هل تنحني راياتنا للأشقياء السائبين. فيظهر، من ثم، حيث بداية الثلث الثالث، كما سبق القول، تناصٌّ لسانيٌّ، صياغي وإيحائي، على دفعتين متواشجتين. أولاهما تدويمية، وإنْ بتتابعية، ثلاثيا: هيهات تبعدنا ذئاب الغدر/ عن واحاتنا/ هيهات تخذلنا الرؤى السوداء/ والدم والمنايا/ هيهات تركع للسياط خيولنا. وثانيتهما دلالية، تراوحت مع سابقتها، أحاديا: لن نترك الأعصار يجلدنا/ ويقتلع النسائم من ثرانا/ هيهات يطوينا هدير الذعر/ أو تكبو بنا الطرقات/ والمتعجرفون.

5-4: أما الفاعلية الشعرية، خامسا، فهي تتخلل جميع تلكم الفاعليات الأربع، السابقة لها؟!، مركّزة بـ (الانزياح) (13)، تخصيصا، على "القطار"، أولا وأخيرا، ضمن مقاطع أربعة. في أولها (مقطع1)، تخلّلاً لفاعلية الأيقاع، هو "مرتعش" لكنه "يشق عبر غابات النخيل دربه" بحيث "يرش بالتراب أجواء/ البساتين" بعدما "يستعير من عش النواقيس/ نداءات الرحيل". وفي ثانيها (مقطع2)، تخلل لفاعلية الأسلوب، تراه: يمضي/ مع شوارد الليل البهيم/ تحدو به متاعب/ دامية الأوصال تخذل/ الخطى/ تسير مثلما/ تهيم في الفضاء أسراب/ الفراشات. ثم في ثالثها (مقطع5)، تخلل لفاعلية الدلالة، حين يحدث إثر التأهّب الأول لعجلاته أن: تشهق تحتها القضبان. بعده في رابعها (مقطع9)، تخلل لفاعلية اللسان، حيث عند تأهّبها الثاني "تمضي" لكن "بدون أغطية/ تقيها من البرد المؤجل في الضلوع". وإذ تركزت فاعلية الشعر في هذه المقاطع الأربع، هنا، فإنَّ لتركّزها هذا ذروةً في المقطع الأخير (مقطع10). ذلك لأن فيه من هو: مشحون بصندوق الحديد، ذلكم "الذي حبست/ به أنفاسنا" في (مقطع9)، حتى "تغادر" صدره "الأنفاس" مختنقا بـ: الأحزان... والحسرات... والذكرى. هنالك... حيث: تاريخ تكبله السجون والأصفاد/

والغضب الدنيء، = تاريخه هو، تحضنه: المروج والطرقات/ وأذرع الفقراء/ والغد/ والحياة.

5: واضح، مما تقدم، أن في (القطار)، لـ الفريد سمعان، خمس فاعليات: إيقاعية/ أسلوبية/ دلالية/ لسانية/ شعرية. يُستشف من هذا الوضوح، في الفقرة (4:) كلها، أن أقواها ((الدلالية)) فـ ((الإيقاعية)) ثم (الاسلوبية + الشعرية) فيما أضعفها (اللسانية). واستشفاف كهذا، حيث الفاعليات الخمس متذبذبة في القوة والضعف وما بينهما، قد يؤشر مؤاخذة فنية على هذي القصيدة. لكنه، رغم ذلك، ليس مؤثرا على اتسامها الأساسي، الرئيسي، وهو أنها قصيدة ذات بنية علائقية لا جزئي(4).

توضيحات:

(1) تفاصيل هذا الحراك، لمن شاء الأطلاع عليها، استهللت بها كتابي الثاني: النسق النصي والنسق المتني ـ في الحركتين المتضافرتين للقصيدة "الانبناء/ الإنهدام"، الأتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق ـ بغداد، ط١/ 2010/ ص5ـ ص10

(2) البنيوية، هنا، لا الوجودية ولا الماركسية... إذ أن بارت، الذي مر نتاجه بعدد من المراحل، كان "قد تقلب بين الوجودية والماركسية والبنيوية" ((راجع، عنه، أديث كيرزويل: عصر البنيوية ـ من ليفي شتراوس إلى فوكو، ترجمة ـ جابر عصفور، دار آفاق عربية ـ بغداد، 1985/ ص177ـ ص206))

(3) كذلك، قبل هذا التحديد، أولا "من حيث كونها دالة أو غير دالة" وثانيا "من حيث فاعليتها الكلية في البنية" ((تنظر، تعيينا، دراسته: الأنساق والبنية، فصول ـ القاهرة، العدد٤/ يوليو 1981))... وكان أبو ديب، ذاته، قد ترجم مقالة رولان بارت "الفاعلية البنيوية" في: مواقف ـ بيروت، العدد41/ ربيع 1981

(4) قال بفكرة الفاعل الجماعي، أو الإجتماعي، على أساس أن النقد، الأدبي طبعا، يتبلور في صورة منهجية سوسيولوجية، وفلسفية، لإضاءة البنيات الدالة، أولا، مع تحديد مستويات إنتاج المعنى عبر أنماط من رؤية للعالم، ذات وعي جمعي، فضلا عن ارتباط تحول الأشكال الأدبية ـ وتطورها ـ بالتحولات الإجتماعية على المستويين الأقتصادي والسياسي (راجع، لتفاصيل أكثر، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ترجمة ـ محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت، ط1/ 1984/ ص55 وما بعدها... أيضا، ينظر، عبدالحق منصف: الأسس العامة للبنيوية التكوينية عند غولدمان، أقلام ـ الرباط، العدد56/ أبريل 1982)

(5) رؤيا الجوهر لا رؤية العالم ـ دراسة في الفاعليات: القرائية/ الشعرية/ الأسلوبية، الكلمة ـ ألكترونية، العدد33/ سبتمبر 2009

(6) الدراسة أعلاه، في التوضيح " (5)"، تطوير لدراسة سابقة، قبلها بنحو عامين، هي: نصوص الجوهر الشعري واستثنائية القصيدة ـ الفاعليات "القرائية/ الأسلوبية"، الزمان ـ بغداد، العدد16/2747 تموز 2007

(7) التناظرية، أولا، مطولة طرفة بن العبد (إعتمدت نصها الشائع، الرائج، كما أورده محمود عبداللّه الجادر، مثلا، ضمن: نصوص من الشعر العربي قبل الأسلام، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ـ بغداد، 1990/ ص236ـ ص304))... والتناظرية/ الأحادية، ثانيا، هي "إقبال والليل" لبدر

شاكر السياب ((تنظر، تحديدا، في ديوانه: إقبال وشناشيل ابنة الجلبي، دار الطليعة - بيـــــــروت، ط3/ 1967/ ص147- ص151))... أما الأحادية، أخيرا، فـ"عرس القمر" لماهر عياد عبدالنور (منشورة، حديثا، في: المؤتمر - بغداد، العدد1210/ 8 تشرين الأول 2006)

(8) أنظر عنهم، مجتمعين، سعيد عبد الهادي المرهج: تحليل النص الشعري - دراسة ما وراء نقدية في البنيوية العربية، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ط1/ 2008/ ص363- ص448

(9) لعله يحمل أكثر "التشكيلات العروضية": السائغة/ المقبولة/ اللائقة، = غير النابية، التي يفيد منها الشعراء المتمكنون في قصائدهم الأحادية ((أنظر، عنه، محسن اطيمش: تحولات الشجرة - دراسة في موسيقى الشعر الجديد وتحولاتها، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ط1/ 2006/ ص113- ص122))

(10) تكرار النماذج الجزئية أو المركبة بشكل متتابع أو متراوح، بغية الوصول بالصياغة إلى درجة عالية من الوجد الموسيقي والنشوة اللغوية، عندئذ تتصاعد البنية الموسيقية لتسيطر على المستوى التصويري وتصبح رمزا تتكثف حوله دلالة الشعر ويتمركز معناه، وتصبح الصياغة هي محور القوة التعبيرية ونقطة التفجير الشعري ((صلاح فضل: ظواهر أسلوبية في شعر شوقي، فصول - القاهرة، العدد4/ يوليو 1981))

(11) يرى منذر عياشي، مثلا، أن "الشاعر يستطيع بتكرار بعض الكلمات أن يعيد صياغة بعض الصور من جهة كما يستطيع أن يكثف الدلالة الأيحائية للنص من جهة أخرى"... أنظر، أكثر، كتابه: مقالات في الأسلوبية، إتحاد الكتاب العرب - دمشق، ط1/ 1990، ص83 بدءا

(12) ثمة، حيث هو "عمومي" بحسبهم، من يرونه ذا دلالة فضفاضة ((أنظر، عنهم، يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح - في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت/ منشورات الأختلاف - الجزائر، ط1/ 2008/ ص405 خصوصا))... لذا أحيل القراء، كي يتبينوه بأنفسهم، إلى كل من "أ" محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري - إستراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي - بيروت/ الدار البيضاء، 1992 "ب" أحمد مجاهد: أشكال التناص الشعري - دراسة في توظيف الشخصيات التراثية، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، 1998 ((وينظر، أيضا، عبد اللّه إبراهيم: المتخيل السردي - مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، المركز الثقافي العربي - بيروت/ الدار البيضاء، 1990))

(13) هو مجلى الأدبية وعلامتها، وموطن الشعرية ودلالتها، وكلتاهما - أدبية النص وشعريته - لا تتم إلا به ومن خلاله ((نعيم اليافي: أطياف الوجه الواحد - دراسات نقدية في النظرية والتطبيق، إتحاد الكتاب العرب - دمشق، ط1/ 1997/ ص92))

(14) فالبنية، عندي، إنما هي، تلك، التي توصف بأنها تجاوز، لا بد منه، للجزئيات بالعلائقيات "= للمضمون بالشكل"...
يراجع، في هذا الوصف، ترنس هوكز: البنيوية وعلم الأشارة، ترجمة - مجيد الماشطة/ مراجعة - ناصر حلاوي، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ط1/ 1986/ ص14- ص15 (وينظر، إجرائيا، كتابي: النسق النصي والنسق المتني، سابق، ص60 وما بعدها)

فؤاد التكرلي وسرّ عقدة أوديب

نجاة تميم

نجاة تميم أستاذة الأدب الفرنسي، حصلت على ماجستير بالأدب الفرنسي عام 2006و ماجستير بطرق تدريس اللغة الفرنسية عام 2009من جامعة ليدن في هولندا وشهادة الدولة ترجمة هنغاري- فرنسي والعكس من معهد اللغات في هنغاريا عام 1989درّست اللغة الفرنسية في المغرب وهنغاريا وهولندا. صدر لها كتاب باللغة الفرنسية بعنوان "الهويات في صراع". نشرت العديد من المقالات عن السرديات و مراجعات الكتب في الصحف والمجلات العراقية والعربية.

دور الأدب، بشكل عام، لا يقتصر على كونه أحد أعمدة العلوم فقط وإنما يشارك في تكوينها وإعدادها. وأفضل مثال على ذلك، حسب غتاري، أن أحسن خرائط التحليلات النفسية كانت من أعمال بروست، وبيكيت، وجويس وأرتو وليس فقط من أعمال فرويد، وجونغ ولاكان (1). علما أن التحليل النفسي ينبني حول بطل الأدب أوديب، المتحدر من التراجيديا اليونانية، وأن دقة التحليلات النفسية تعود إلى الأدب كما إلى علم الأعصاب (2).

تقول أسطورة الملك أوديب لسوفوكليس، التي اعتمد فرويد بطلها الأدبي في التحليل النفسي، أن منجما حذر حكام (تيب) ليوس وجوكاست بأن ابنهم سيقتل أباه وسيتزوج أمه. فبعد ولادته تخلص الوالدان منه وعثر عليه حكام (كورينت) بوليب وميروب في غابة. تبنوه وأصبح وريث العرش الوحيد. عندما عرف أوديب بما يهدد مستقبله ترك فورا كورينت ووالديه. أراد بذلك تجنب عواقب تنبؤات المنجم. ففتح البلاد تلو الأخرى إلى أن وجد في طريقه أباه الحقيقى فقتله ودخل مدينة (تيب) منتصرا وتزوج أرملة الحاكم، أمه البيولوجية.

هناك قصة أخرى تحمل نفس المغزى تروي أن باسل، ملك بولونيا، استشار الأبراج لمعرفة مستقبل ابنه سيسكمون مباشرة بعد ولادته وتبين له، من خلال المنجمين، أن ابنه سيصبح أعنف ملك عرفته البلاد وأول عمل مشين سيقوم به هو هزم وإخضاع والده الملك. فهذا الأخير وضع ابنه في قلعة معزولا عن العالم ما عدا مدرسه، كلوتالد، الذي

يزوره. عند ما بلغ الأبن سن الرشد، قدمه أبوه الملك إلى أهل القصر ليوم واحد وذلك لكي يجرب مصداقية الأبراج. العشرون سنة من السجن جعلت الأبن يثور ويغضب بشدة. وقد خلصته انتفاضة شعبية من هذه القلعة وهو في حالة مرتبكة لا يعرف أيصدق أم لا أنه سيفلت من سجنه. فعند قيادته لهذه الأنتفاضة هزم أباه الذي ركع أمامه لطلب الرأفة والرحمة. لكن بعد تحقيق صحة التنجيم حصل شيء غير متوقع هو أن حكمة سيسكمون وشكّه في الواقع جعلته يعيد أباه إلى منصبه (3).

هاتان القصتان تشملان على وحدات مشتركة: أولها؛ أن ما اعتقده أوديب وسيسكمون أنه واقع وحاولا الهروب منه وتفاديه لكي يتقيا شره كان مجرد وهم. هربا من واقع إلى واقع آخر أو بالأحرى إلى الواقع الحقيقي. لأن الأول لم يكن إلا شبيها له. وهذا ما سنراه في قراءة الرواية الموسومة " بصقة في وجه الحياة" (2001) لفؤاد التكرلي. فالراوي كما الكاتب حاولا الهروب إلى الكتابة للتخلص من الواقع الموهوم إلى الواقع الوهم.

هذا النوع من القصص يجعلنا نطرح أسئلة عن ما هو واقع وما هو وهم. إن أوديب كما سيسكمون كانا يعتقدان أنه الواقع لا محالة. لذلك حاولا أن يتجنبا الوقوع في الخطأ. فكانت النتيجة ارتكاب حماقة. حسب روسي فإن للحماقة مضمون وشكل. المضمون هو عبارة عن إظهار التشبث بمواضيع ساخرة. أما الشكل فهو نوعان مختلفان: في الحالة الأولى فإننا نتقبل الموضوع بشكل عام كأنه من وحي الموروث أو الوسط الثقافي، دون أن نطرح المشكلة العامة للحماقة، أي أن نعرف إذا كان الموضوع جيدا أم لا: فهذه حماقة من الدرجة الأولى طائشة وعفوية. أما في الحالة الثانية، فإن الموضوع لا يُقبل إلا بعد إمعان ناضج؛ بمعنى أننا نعي مشكلة الحماقة، ونعرف جيدا أننا يجب أن نتجنبها. وعلى ضوء هذه الحيرة، اتخذنا منحا ذكيا. فهذا المنحى ليس إلا الحماقة بعينها، و يمكن أن نستشهد بقول هيغل: "أن الحماقة، في هذه الحالة، أصبحت واعية بنفسها" (4).

أما الوحدة المشتركة الثانية والأهم هي العنف الذي يصيب أوديب وكذلك سيسكمون. في هاتين القصتين، تعرض الأبناء لعنف قاسٍ من طرف آبائهم وذلك خوفا وتفاديا لعنف الأبناء على الأباء. هذا التخبط مع عقدة أوديب نلاحظه في روايات فؤاد التكرلي منها "الوجه الأخر" 1960 "خاتم الرمال" 1995، وقصصه "همس مبهم" (1950)، "القنديل المنطفئ" (1954)، "الساعة لم تكن الخامسة" (1990)، "الحائط والحكايات الحزينة" (1998) وكذلك في مسرحية "أوديب الملك السعيد" (1987).

عند قراءتي للرواية "بصقة في وجه الحياة"، صدمتني الكتابة القاسية في أسلوب بين الواقع والوهم كما شدتني الأفكار الفلسفية عن الإنسان والحياة والوجود. لكن ما لفت نظري هو الجرعة الفظيعة من العنف والتذمر التي تستحوذ على النص من بدايته إلى نهايته. هذا النص الذي" يرتفع بناؤه الهجين متحديا كل القيم المتوارثة من خلال التمرغ العشوائي في المحرمات لكي يتواصل أخيرا إلى هدم بنائه بنفسه صارخاً مثل شمشون "علي وعلى

أعدائي". ص11 ويقول دريدا أن النص لن يكون نصا إلا إذا أخفى لأول وهلة ولأول قارئ قانون تكوينه وقاعدة لعبته" (5). لكن يبقى كل تأويل هو" فقط" لحظة واحدة في صيرورة واحدة وبذلك لا يمكن رفض أي تأويل آخر" (6) "فالنص بنية دلالية يجب على القراءة النقدية أن تنتجها" (7). يجب أن نكون متعددين لكي نستطيع أن نلاحظ. أما" الكتابة فهي غير ممكنة دون عملية الكبت" (8).

ولد فؤاد التكرلي في بغداد عام 1927 وفارقنا عام 2008 كتب روايته الأولى" بصقة في وجه الحياة" عام 1949 وكتب روايته الأخيرة " اللاسؤال واللاجواب" عام 2007 وبين 1949 و2007، مر؟ العراق بأحداث كثيرة وعصيبة. أر؟خ الكاتب أوضاع العراق من الحرب العالمية الثانية إلى تاريخنا المعاصر.

البنية السردية

المستوى الأول:

الراوي أب متقاعد. يتحدث بالضمير المتكلم "أنا" ويروي لنا ما حدث معه في فترة زمنية تتراوح بين شهري نيسان وأيلول فترة أربعينيات القرن العشرين X194 كان البطل الرئيس معاون شرطة، متزوج وله ثلاث بنات؛ صبيحة، وماجدة وفاطمة. يحس بالعوز والضيق لأنه لا يستطيع أن يعيل عائلته.

المستوى الثاني: كتابة المدونات

كتب الراوي يومياته في 14 مدونة تحت تواريخ محددة وبفارق زمني مختلف. تقع أحداث المدونات السبع الأولى ما بين شهري نيسان وآب، ماعدا شهر تموز، أما بقية المدونات فكتبت في شهر أيلول. الراوي هو ذاك الأب الذي لا يستطيع أن يفتح فمه ليتفوه بشيء، يشك في أمر بناته ولكن لا حول ولا قوة له. الزوجة تحاول أن تجد لبناتها عرسان على طريقتها وتخفي عن زوجها ما يجري حوله وما تعمل بناتها خارج البيت. حتى إذا تأخرن خصوصا ساجدة وفاطمة فإنها تداري عليهما. يبدو أن الأب حاضر\غائب. فهو لا يستطيع مواجهة بناته ولا حتى يسألهن أو يعاتبهن. ناهيك عن منعهن من الخروج ليلا والتأخر خارج البيت بدون مبرر. لكنه في نفس الوقت يشفق عليهن وخصوصا فاطمة الأحب إلى قلبه؛ ابنته المفضلة.

إن رواية " بصقة في وجه الحياة" التي يعتبرها النقاد رواية زنا المحارم والتي خصها الكاتب بمقدمة تحت عنوان "مقدمة نص ملعون" هي في رأيي أنضج بكثير من مجرد كسر حاجز التابوهات. ففي هذه المقدمة الفريدة، نلاحظ أن الكتابة هي "الأمل الوحيد والطريق المنفرد والطريقة الصحية الفذة التي اتبعها للخروج دون أي أذى كبير جدا من هذه الأزمة ذات الجوانب المتعددة التعقيد".ص 17 وإن ظروفا اجتماعية، اقتصادية وسياسية كانت هي الدافع الحقيقي لكتابة هذه الرواية ببغداد ما بين شهري حزيران 1948وآب 1947

يقرأ جنيت بأن الكاتب\المؤلف الذي اكتشفه من خلال نصه هو الصورة التي يوحي لي بها هذا النص؛ المؤلف متورط كصورة له في النص (9). أما هذه الرواية فهناك عدة عوامل تتداخل في تحليلها؛ أولها الهروب من الواقع المرير ثم مشروع الكتابة بحد ذاته.

الواقع الموهوم أم الواقع الوهم؟

هكذا تبدأ الرواية بثلاث دقات رهيبة معلنة اقتراب الصباح. إن الراوي" ذاك الأب المسكين" يعاني من الأرق. يحاول أن يتبين كلمات يومياته على ضوء المصباح الضئيل البعيد. يكتب عن حياته اليومية المرة والعوز الذي جعله يسكت عن ما يجري داخل بيته. يرقب الفجر ويخاطبه:" دعني أتعلم السكون منك، ... فما حياتي إلا سكوت.. وسكوت.. وسكوت."ص22" إنه على هذا الحال منذ تقاعده قبل خمس سنوات. إن سلوك زوجته وبناته تعيد له ذكرياته؛ لا يختلف الأمر كثيرا بينه وبين بناته في السلوك المشين. تذكر مفوض الشرطة وهو يضع الرشوة في الدرج. ويتساءل: "ألم تكن أفعال المفوض المستوحاة من سكوتي... مشينة تلوث الأسم؟" ص 20 ينظر إلى ابنته فاطمة ويتألم للتعب الذي يراه في عينيها. يتطلع إليها فيعجب بها لا كابنته وإنما "كأجنبية" عنه، ثم يستيقظ من غفوته ويجد نفسه قد وضع القلم زمنا طويلا يرقب النجوم التي تخفق قبل قدوم الصباح. صور هذه الغفوة يطلق عليها سارتر الرؤية النعاسية. وأحد المميزات الأساسية للصور النعاسية أنها لا تقيِّمها المعرفة. فإننا نرى (فجأة) فعلا وجها... وقبل هذا لم ننتبه لذلك ولم نحترس منه. الرؤية النعاسية لا تحتوي على توضيح أي توضيح الشيء المشاهد. بل فجأة تبدو دراية، واضحة كبداهة محسوسة. في الوعي النعاسي لا يُطرح الشيء كأنه ظاهر أو قد ظهر وإنما نعي فجأة أننا نرى وجها. فهذه الميزة لهذه الوضعية هي التي تعطي، قبل كل شيء، للرؤية النعاسية مظهرا عجائبيا. فهي تطرح نفسها كبداهة حقيقية وتختفي بنفس الطريقة (10). إن البطل الرئيس لا يكتب يومياته إلا ليلا وقد ينقلها غالبا بعد شرود ذهني أو غفوة يستفيق منها.

إنه مرتبك ومحتار في أمره؛ مع هذا لا يعرف هل سيبقي على ما كتب أم سيحرقها كما سبق أن حرق سابقتها. لكنه هذه المرة فهو مصَر على أن يبقيها "علني أفيد شيئا.. شيئا يشبه العزاء"ص22 فبعد اثنتي عشر يوما وبالضبط يوم 28نيسان عاد وقرأ ما كتب يوم12 نيسان. هذا اليوم لم يخرج قط من البيت. فما آله هو طلب شخص لابنته على التلفون. فالشكوك تجعله ينحدر إلى أسفل الهاوية. إنه يرى في جمال ابنته جمال الكون والشيء الوحيد الذي يواسيه. يعود إلى وعيه فجأة ويقول "تنبهت إلى سخافة أفكاري وبعدها عن المنطق والعقل". ص25 " أحسست أنني أقاد معصوب العينين إلى هاوية سوداء". ص 26 إن هذيان الراوي وتقليده لمشاهد من اللاوعي تصدمه لدرجة أنه يحس بالذنب لمجرد التفكير في ذلك: "تألمت لما عملت إنها الحياة القاسية حتى الموت التي تظهر لبصري الطريق الفظيعة البشعة وتجبرني على السير فيها". إنه في وضع لا يحسد عليه. إحباط شخصي ووضع اقتصادي واجتماعي مزريين (الفقر، المحسوبية والرشوة) وكذلك سياسي إذا أخذنا بعين الأعتبار ما جاء في مقدمة الرواية. فما من مفر!! يبدو أن هناك طرقاً عديدة لرفض الواقع: عن طريق الرفض الجذري أو عن طريق الجنون. كما يقول (إي): لا يجن المرء إذا أراد (أن لا يجن).ويستعرض تحليله لذلك: لتعويض التوازن الذهني نحصل على حصانة فعالة نسبيا لمواجهة الواقع وذلك بالابتعاد المؤقت

عن الواقع في حالة الكبت حسب شرح فرويد (آثار الواقع تبقى عالقة في اللاوعي) واستتار كامل في حالة السقوط حسب لاكان. نستطيع أخيرا ودون أن نضحي بشيء من حياتنا ومن وضوحنا أن نقرر عدم رؤية الواقع الذي نعي جيدا وجوده: وهو تصرف عمياوي طوعي كفقه أوديب لعينيه في نهاية أوديب الملك (11).

يستمر البطل الرئيس في هذيانه. " فظيع.. فظيع حقا؛ إنني أخشى من الأفكار التي تريد أن تولد في ذهني، الأفكار التي حبلت بها عواطفي زمنا وهي الآن على وشك الوضع". ص26. إن اضطرابه النفسي وعجزه الجنسي يجعلانه يعاني أكثر. وهذا ما يسبب له الأرق." لم أستطع النوم حتى هذه الساعة من الليل."فانزويت في غرفتي أكتب هذه الكلمات المعذبة بلهف وشوق وأنا أشعر أنني أضمد جراحي ذات السموم."ص 27.

لم يكن يريد أن يكتب شيئا يوم 10 مايس. لكن الأحساس بالخوف هو الأحساس الأقوى الذي جعله يكتب هذه المدونة. الكتابة هي الحل الوحيد لكي يستطيع أن يواجه نفسه. كما أنه بصعوبة ينظر إلى دخائل نفسه. (بتاي) يقول أنه يكتب لكي لا يجن، وهذا ما يعنيه، إنه يكتب الجنون، وقد يعني ذلك، أكتب لكي لا أخاف؛ ناهيك عن أن الكتابة تخيف (12). "ثلاثة عشر يوما (الفترة التي تفصله عن المدونة السابقة) والشك الفاتك السام يخزني كل لحظة من لحظات النهار وكل ساعة من ساعات الليل، وأنا صابر على ذلك لا أريد أن أنظر في دخائل نفسي إلا إذا دفعتني الظروف إلى ذلك دفعا." ص29 فيستطرد: "علمت بالأمس أن الطريق مهما بدت شنيعة مؤلمة قاتلة فخير لي أن أرى هذا وخير لي أن أكاشف به نفسي."ص29 الأحباط والإحساس بالخيبة تجعله عاجزا عن إشباع رغبته الجنسية." فمن الصعوبة بمكان أن أشبع هذه الرغبة، فحاولت إلا أني فشلت."ص30 إنه غاضب وحانق لكنه تائه في نفس الوقت." يخيل إلي أنني حانق على أشخاص مجهولين"ص31فيتساءل" ماذا أستطيع أن أعمل؟ إنني مجبر، إنني مقيد."ص32قيوده الكثيرة والمتعددة تسيطر عليه؛ الوضع من حوله، العائلي والإجتماعي، يبدو له كل شيء ناقص، يحس بفراغ كبير. "هذا الخلو في حياتي، في حياة الإنسان، كل إنسان، بدا لي دون فائدة للبشر، هؤلاء الحيوانات المطلقة؛ وخطر لي أن هذه الحياة الناقصة التي نعيشها لابد أن تكون من صنع شيء ناقص أيضا.. شيء لا يدري ماذا ينقصه."ص33 إن هذه الأفكار قد رفهت عنه شيئا ما. كان يتمنى أن يتوقف القلم به كما توقفت أفكاره لهنيهة لكن هذه الأخيرة لا تقف إلى الأبد، " لم تقف غير هنيهة قصيرة ثم استمرت بعدها جارية إلى الأمام جريئة.. محطمة، لا تلتفت إلى الخلف.. لا تلتفت قط."ص33فيتيه بعدها في شوارع بغداد. بالرغم من الفراغ والحيرة من أمره فإنه يرى هدفا في حياته. "هناك أمامي الشيء الذي أبحث عنه، ولقد أضعته زمنا ولا أزال كذلك بفرق واحد هو أنني في أثره الأن، ولن أفقده مطلقا هذه المرة."ص33 فهو متجه نحو غاية يسعى إليها "لأنني أقوى لا أخشى.. لا أخشى الحياة."ص35 يخاطب المتلقي وربما القارئ: "من يدرك ويتصور حالتي وأنا أكتب هذه الكلمات؟ إنني

أضحك، اضحك بسخرية وهزأ، أضحك بوحشية وفظاعة لا حد لهما. من كان يمكن أن تتشكل الحياة على شكله، كما أردت؟ آه.. بودي أن أمزق هذه الصفحات وأنا.. أنا أضحك بتفجع."ص٣٦

هنا نرى الشخصية الرئيسة ينطبق عليها مفهوم الخصي، حسب لاكان، الذي يعني "النقص الرمزي لشيء خيالي" وهو عكس الحرمان الذي هو النقص الخيالي لشيء واقعي والفقدان الذي هو النقص الواقعي لشيء رمزي. الراوي يهلوس ويكتب عن ابنته فاطمة "تلك الأبنة الحنون" التي نزلت من سيارة بيضاء طويلة لامعة كالمرآة.. يجلس في محل السائق منها شاب أنيق غامض الملامح وبالقرب منه.. بالقرب جدا، الأبنة العزيزة.. الملاك السماوي".ص36وهو في هلوساته كاد أن يرتكب حماقة تودي بحياته. قفز مندفعا من الباص وارتطمت سيارة بهذا الأخير. إنه في حالة نفسية يرثى لها. إنه يرى أن العالم يضحك ويهزأ منه. "ولم ولم أقل لأني فزع، جبان، ركيك، متهافت، شيخ، كلب، حشرة؟؟...فهو يسخط على الكل."أيتها القاذورات، أيتها السموات، اضحكن علي فإنني أنا السخرية الحق."ص38 يبدو أن حياته أقسى من كتابات هذيانه. "رباه، لم أكن عائشا على الأرض في جو طلق؛ كنت في دهاليز تحت طبقات الأرض السفلى. تحيطني الظلمة الخانقة ويلفني الهواء اللزج السام."ص41 " لو أردت أن أكتب حوادث حياتي، لوجب أن أسطر هنا أحلامي، ولعلها كوابيس قبل أن تكون أحلاما، التي تراءت لي ليلتئذ؛ إلا أنني –وكما يجب أن يعلم دائما– لا أريد أن أحدد سير نفسي في طريق أجهلها."ص39 إن ابنته التي يصب غضبه الجنسي إذا صح التعبير عليها هي كل شيء في حياته؛ " إنها ملكة، إنها سلطانة، إنها دكتاتورة، إنها ابنة السماء، إنها اللّه."ص42يبدو أن ابنته هذه هي الأمل وهي الحياة بالنسبة له. "وهكذا انقضت الساعات، ومضى اليوم التالي، ولم يحدث لي شيء سوى أن الخوف قوى وتضخم حتى أجبرني فأمسكت بالقلم. آه هذا القلم المتعب الذي يخشى وتأخذه رعدة من الكلمات التي تجول في ذهني والتي أريد أن أخطها به. وها إني أكاد ألمح الصباح يعلن وجوده في نبضات النجوم القلقة المضطربة، فمتى أيتها الكائنات جميعا أعلن وجودي مثله؟" ص 42 من كل هذا الهذيان فإن الراوي يبحث بالدرجة الأولى عن إنسانيته، وجوده وعن كيانه فينتقم لنفسه في عالمه الأخر، عالم الضياع والحرمان.

بعد أربعة أيام أي يوم 17 مايس تذكر الراوي حادثة الشبح" التعيس" الذي عاش بين الناس دون أن يعرفوا عمله المشين مع ابنته. إنه يتذكره هذه الأيام كثيرا لأنه يحس بوضعه ولأنه يعيش مثله "على هامش الحياة، بين أناس لا أشعر أنني منهم ولا يشعرون هم ذلك؛ أقضي ساعاتي كما لو كنت غائبا عنهم لا أراهم ولا يرونني بفرق واحد قد يبدو بسيطا هو أني أراهم... أجل، عدت إلى ذلك السكون المميت الذي فارقني زمنا، فعاد فسيطر علي سيطرته السابقة المطلقة، وعدت معه ولا عمل لي سوى أن أعيش وألاحظ... ولكن أي معنى يحمل هذا السكون وهذا الصمت؟ أنا لا أعلم، وليست لي هواية خاصة في أن أعلم؛ فما الفرق بين أعمى وبصير، ما دام الأثنان مساقين إلى هوة لا محيد لهما عنها؟ فلنرح أنفسنا إذن، أليس

كذلك؟"ص 43في هذه المدونة يبدو أن الراوي يخاطب صديقا حميما. إنه يحس أن ابنته تشعر بالذنب وتحاول تجنبه (الأب). "ويخيل لي يا صديقي، أننا يمكننا أن نستنتج ببساطة كذلك..؟.. وقد لاحظت أن فاطمة.. مهملة لشأني.. يدفعها إلى ذلك عاطفة تشبه تأنيب الضمير وإن كانت قريبة من الشعور بالإثم، الشعور بالخطأ. وكان يبدو عليها أحيانا كأنها تحاول أن تخفي قلقا باطنيا عميقا أو فكرة لاتني تتردد على ذهنها فتؤديها أو تزعجها على الأقل... " ص46 الراوي يتعاطف مع ابنته فاطمة وفي نفس الوقت يعاتب صبيحة وساجدة؛ صبيحة تحاول تقصي أخبار شبان من أبناء الجيران لتنسج علاقة عاطفية، أما فكرة الزواج فقد تخطر ببالها. ساجدة تستغل سذاجة فاطمة و"تقوم بدور الدافع الأصيل". أما الأم فما هي" إلا كائن بشري ذو بشرة سمراء محترقة.. تجري الحوادث أمامه كأنها حلم لا يستطيع له تبديلا"ص47 تلك الأم عاجزة على فعل شيء". أما الراوي فهو أيضا يتساءل عن مدى قدرته على تغيير الوضع الذين هم عليه." تبديل! تبديل! ترى هل أستطيعه أنا؟ هل أستطيع هذا الأمر؟ هل أستطيع؟ هل أستطيع؟ هل.. "ص47

فبعد أربعة أيام أي يوم21 مايس، بدأت الأم تحس بوادر التغيير على زوجها محِي (ذكر اسمه مرة واحدة). لقد خطا الخطوة الأولى لاتخاذ موقف. "هذا هو الأمر الذي أشعرني أنا شخصيا متبدل حقا، متبدل في الظاهر على الأقل، أما الداخل فأترك الكلام عنه". لقد لاحظت صبيحة ذلك: "إن أبي هذه الأيام كالرجل الذي لم يعرفنا من قبل". فيجد الراوي أن قولها "في الحق مرير كالحياة لكنها مرارة لا تشعرن بطعمها أيتها المخلوقات النتنة فإن الألم الذي تبعثه مرارة الواقع لفي حاجة قصوى إلى نفوس رفيعة سامية لتستطيع إدراكه."ص51

أما يوم 2 حزيران فكان ضيق نفسي بسيطاً يتملك الراوي في الأيام الأخيرة لتفكيره في تفاهة حياته وهو مضطجع على الكنبة وكان الوقت مساء. إنه أصبح متفرجا ودخل مرحلة اللامبالاة ولم يعنيه أن يفكر في أن يقوم بواجب الأب أم لا؟ فهنا تطرح فكرة الأب، رب الأسرة، القائد الغائب الحاضر. دخل مرحلة مرض الأعصاب. أحيانا يعود إلى وعيه ويتساءل عما يجري له: "كانت حالتي غريبة، ولقد بقيت دقائق لا أدري هل كانت تلك الظواهر والعواطف تتلاعب في باطني أم باطن شخص آخر؟" ص56بدا التعب يسري في أطرافه. أحس بالبكاء للمرة الأولى منذ وفاة والدته من سنتين؛ "أحسست.. لحنا حزينا ينبعث من مكان يجاورني، لعله قلبي أو لعلها دمائي، لحن يدعوني بلسانه إلى البكاء معه.. البكاء لأجل البكاء وليس لشيء آخر.. أجل لا لشيء."ص56 إنه يسمع ابنته صبيحة تناديه. ولكن " فإذا دفعني سوء الحظ أن أمعن النظر في (حياتي) ظهرت كما هي.. سنبلة ينخرها الدود في محيط يسع الأرض والسماء." ص53 مع هذا فإنه ما زال يبحث عن غايته." هناك شيء لا زال أمامي. أجل إني متيقن ولقد بلغ هذا اليقين عندي أقصاه في دقائق معدودة قبل يومين اثنين، حتى لكأني كدت أراه رأي العين لو لم تقطع علي سلسلة خواطري تلك." ص54 وفي تأملاته تلك يرى اللذة والحياة في جمال ابنته صبيحة."كان الليل كأنه يقبض على الدنيا

بيدين سوداوين فيخفي عنها وجه السماء، ولم يكن شخصاً منفرداً كالثعبان المتجمد.. هو أنا. ولكن من يصدقني؟؟ لا أحد. إني أعلم ذلك، غير أن هذا لن يمنعني أن أكتب ما أريد وليقولوا "لقد كان دنيئا شريرا" فهل يبدل قولهم فيما جرى؟؟" ص 57 "أنا مثلا، كنت أتصور نفسي وأنا جالس وحدي، أنني إن لم أكن بطلا فأنا بمقدار ضئيل. أهواء صبيانية. ولكن لماذا؟؟ ولم اعتقدت في نفسي البطولة.. هذا الأعتقاد الأجوف؟؟" ص 58 فبعد تقرب ابنته منه لإغرائه؛ كما يبدو له. فجأة سمع "لا" صوت أجش يفجر هذه الكلمة في أذنيه." لا، قف، حذار، إياك، كل شيء كان يصرخ...ثم شعرت برأسي يرتمي إلى الوراء فجأة بحركة مخيفة وكأن هناك من يجذبني من شعري بأقصى قوته.. وكان أن سقطت صبيحة على المرآة وتكسرها فأرفع راحتي أسد بهما فوهتي عيني الجاحظتين محاولا إيقاف الدوي العظيم القاسي الذي أمسكني على حين غرة فأحالني حيوانا..." ص59 " كان دويا هائلا.... يملأ سمعي سؤال غامض يهمس به صوت مشوه النغمات صادر من أعماق عميقة لا قرار لها– لم لا أنام؟ أريد أن أنام. يجب أن أنام... كنت أحلم، لا بد أني أحلم، في كابوس مريع؛.. ثم سكن كل شيء...وما عدت أسمع صوتا. لا شيء سوى السكون، سكون الموت، سكون الكون، سكون اللّه. وكنت رجلا مرتعبا مذعورا." ص 60فهذه المرة يستيقظ على صوت مومس التي تسأله إذا كان السكر هو سبب هلوسته. لم يكن كذلك. وهو يخاطب صديقه في مدونته لإخباره أنه كان في بيت "قحاب". إن شكوكه في سلوك بناته جعله يستحضر اللاوعي لكي يحاور المومس ويتعاطف معها. أشار إليها أن تسكت بإشارة لطيفة. إن أجوبتها الصريحة والمباشرة جعلته يفكر بطريقة أخرى." كانت جلستي مع هذه المخلوقة كافية لقطع الشعرة الرقيقة التي كانت تربطني بالعالم."ص63خرج من عندها، يسير على غير هدى.. "فتذكرت السماء مرة أخرى ورفعت نظري إليها ثم ضحكت بسخرية.. وضحكت بألم.. وضحكت بيأس. فراغ يحكم فراغا!.. أيها الآله الموهوم، إني قريب منك في القداسة والوهم؛.. أيها العالم البعيد، .. إنني فريد في جوهري لأنني ضيعت كل شيء ولأنني انفصلت عنك إلى غير رجعة."ص 63

بدأت مرحلة جديدة في حياة الراوي؛ بحثه واقترابه أكثر من غايته وفي نفس الوقت انشغاله بالبحث عن الذات. "من قال إنا نعيش بأمان بين أقرب الناس إلينا؟؟ كلنا عوالم في حروب، عوالم لها مسالك هجوم ولها مواقع دفاع. لكنها، واآسفاه، حروب غير منظمة، لا بل هي حروب صدف وقضاء وقدر. أما أنا الذي أوشكت أن أكشف عن سر كياني". ص65" ففي الحق ماذا يجدي أن أفكر بعمق في كنه الآلهة أو حقيقة الحياة أو طريق الصواب أو سبيل السعادة، إن لم تستطع أن تدعني أبصق في وجه الحياة متى ما مست نواة وجودي؟؟...لأن قيمة محاولاتي الوحيدة هي أن تكون وأن تخلق.. لا غير".ص66 "ماذا دار في ذهن الأهل الأعزاء، لنترك قليلا مجال الأراء، بعد إذ تكشفت لهم عن شخصية جديدة ظريفة محبوبة خلال هذه الأشهر الماضية؟؟ لا أعلم تمام العلم، لكنني لا أخالهم غير مندهشين". ص67ويخاطب المقابل:" حسنا، لا تظنوا أني

أنتظر جوابا". لم يخطر بباله أنه سيغير رأيه فيما يخص موضوع فاطمة. لكنه تجرأ هذه المرة وكان له فعل واضح لما يجري حوله؛ لقد بصق في وجه الحياة. لم يعد مستسلما لضغائن هذه الحياة لقد أصبح جاهزا للمواجهة. أصبح الأب صديقا لبناته وأخذ يشاركهن سهراتهن خارج البيت. يتمرد على مجتمعه وتقاليده. ويحس بالارتياح لطرده لآبائه وأجداده من حظيرة نفسه التي سكنوها سنوات طوال. "وكان أول شخص اهتممت به اهتماما خاصا.. هو فاطمة... هذه الفتاة العابثة اللعوب، هي الحياة بكل معانيها وهي اللذة بأدق صورها وأجملها".ص 71

فبعد حادثة صبيحة يوم 2 حزيران ذهب مع فاطمة وساجدة إلى السينما يوم 10 حزيران: تحول كبير. ففي خلوته يرفع رأسه إلى السماء وقلبه خافقا ولم ير إلا ظلاما بهيما.".الظلام البهيم دائما"ص74 هذه الليلة أيضا لم يستطع أن ينام. يرقب السماء وينصت إلى موجات نفسه الثائرة الحبيسة. "فما جدوى كل ما أعمل من كتابة إلى تذكر وتخيل وتحسر؟؟" ص74 "ولأيام مرت بعد ذلك، كان يبدو علي كما أخبروني، القلق والانزعاج بصورة جلية قوية جعلتني معظم ساعات النهار ساهيا عن نفسي ضاربا في عوالم غريبة لا تصلها إلا نفوس فقدت كل إيمان واعتقاد".ص 75

هنا بدا واضحا أن الراوي تذكر السبب الذي جعله في هذه الحالة النفسية السيئة. فاسترجاع قصة الشيخ الذي قتل زوج ابنته عندما منع الزوج الشيخ من معاشرة ابنته يشغل عقله الباطني. إنه يعترف، فبغيته لم تكن بعيدة ولم تكن في عقله الباطن. فما يبحث عنها وجدها كما كان متوقعا.".. مريعة جذابة، مخيفة فاتنة، فظيعة رائعة؛ كانت هي. أجل، هي فاطمة.. ".ص79

حقيقة الواقع أم الواقع الحقيقي؟

إيقاع الجزء الثاني من الرواية أسرع من الأول. ففي 3 أيلول بدأ الصراع الحقيقي مع الحياة وقسوتها. حاول جهده معها: " قاسية هذه الحياة، قاسية هذه الرغبة؛ ولئن تذوق المر العلقم أحلى من أن تواجه أشياء سخيفة ركيكة أقوى منك." ص81 ويستمر في هذيانه وصراعه مع قسوة الحياة فيرى القمر شاحبا كوجه الميت وشعاعه كالكفن الأصفر. علما أن الكفن يكون دائما أبيض اللون. يحس بوحدة شديدة؛ عذاب، حرمان وأرق. "الجميع نيام، وهم أيضا كالأموات." ص 84

في 11 أيلول، تذكر مرة ثانية قصة الشيخ؛ الشيخ الجيفة النتنة وفي نفس الوقت يعتبره الشخص الذي يملك بطولة إنسانية. خطرت بباله كلمة جديدة، استغرب تلفظها؛ الحرية." آه.. ما هذه الكلمة الغريبة عن ذهني المتعب.. عن روحي المتعبة؟؟" ص85

ففي يوم 15 أيلول، يجد أخيرا حريته، لكنها لم تكن يوما غاية فقط بل وسيلة أيضا لنعيش حياة إنسانية حقة. "أنا من الحياة مقبل شغوف.. في المادة المكونة لإقبالي وشغفي، حرية رفض كل شيء، في البصق في وجه الحياة، في احتقارها والانفضاض عنها بأسرع من لمح البرق، حين تمس جوهر شخصيتي الإنسانية.. حريتي."ص 87 ها هو يبصق للمرة الثانية في وجه الحياة.

كان النوم، يوم 17 أيلول، كالعادة قد فارق جفنيه. وهو جالس في فراشه وحيدا

وعندما يصبح البشر إلا أشباحا وصورا في ذهنه يبدأ يفكر في بعض النقاط السوداء في حياته؛ ومن ضمنها مفهوم حريته الإنسانية. يخاف من أن ينبش في أعماقه الدفينة المظلمة لكي يجد أجوبة لأسئلة عن وجود الذات وعن مفهوم الحرية. لكنه يخشى الأنتحار، إذا ما وجد زيفا وفراغا في داخله. كان الوقت يوم19 أيلول باكرا، قبل الفجر بالتحديد، أيقظ عائلته وهو يصرخ بهستيريا: لقد وجدها ومن يصدق ذلك؟ "– لقد وجدتها. عرفتها. عرفتكم يا أعزائي. عرفت نفسي كلها."ص91 ظن الجميع أنه جن. لكنه يعتقد غير ذلك. "لم أكن سوى إله...

وبعد هذا من رأى منكم بصقة في وجه الحياة؟؟.. أنا المنطلق الوحيد الذي سيضع قدمه في العالم المخيف". ص91 لقد تحرر أخيرا من قيوده وبصق في وجه الحياة للمرة الثالثة. قضي الأمر وقد قضاه بمفرده. بصق على قيوده فنثرها أشلاء.

قتلها على طريقته، تخلص منها على الورق، عن طريق الكتابة. كان مطمئنا مسيطرا.

لم يأبه للعواقب. إنه مستعد للمواجهة وعواقبها ولتقبل نتيجة اختياره." لقد أتوا أظنهم سيقتلونني. حسنا."ص93. وكان ذلك يوم 23 أيلول .194Xإن رواية " بصقة في وجه الحياة" تحمل بصمات عميقة في التحليل الإنساني النفسي والأهم من ذلك أنها عبرت عن معاناة إنسانية عكست الوضع الإجتماعي والاقتصادي والسياسي. فكاتبنا واكب ورصد تاريخ العراق في أعماله بأسلوب سلس وجمالية عالية. وهذا ما نلاحظه كذلك في رواياته " الرجع البعيد" والمسرات والأوجاع" وفي باقي أعماله التي أكدت أن الكتابة يمكنها أن تفتح الباب على مصراعيه لتأويلات عديدة، تسمح للناقد كما للقارئ أن يستشف الغاية التي يسعى إليها من خلال تشفيره للنص.

(1) Félix Guattari, Les Trois Ecologies, Galilée, Paris, 1989, p.26
(2) Anne Sauvagnargues, Le magazine Littéraire, nr. 508, 2011,p.26
(3) Clément Rosset, Le réel et son double,1976, p.31
(4) Ibid, p.108
(5) Jacques Derrida, La dissémination, 1972, p71
(6) Els Schroever, De taal van Oedipus, Lacan, Derrida en het "Unheimliche" van Literatuur, 1989, p.197
(7) Derrida, op. cit., p. 227
(8) Ibid, p.334
(9) Genette, Nouveau Discours du récit, p.97
(10) Paul Sartre, L'imaginaire, 1940, p.58
(11) Rosset, op.cit., p.9
(12) Roland Barthes, Le plaisir du texte, 1973, p.78

جماليات البحث عن الحرية
في رواية
(الميتة الثالثة والأخيرة لعبد شويخ البدوي)

كاظم ناصر السعدي

جوهر وجود الإنسان هو حريته التي تعيش معه فلا كرامة للإنسان إذا لم يمارس حريته التي اختارها لتأكيد وجوده الحقيقي لهذا فأن حرية الذات للروائي هي التي تحفزه على الأهتمام بالوجود الإنساني حين يولي الروائي اهتماماً خاصاً بذاته أي أن يكون ذاته ليتمكن من فهم العالم ويتصور حقيقة الأخرين ومن ثم تكون لديه القدرة على تصور أفضل للعالم والأشياء المحيطة به، وبتعبير آخر أن الروائي يستطيع بنصوصه السردية الجديدة أن يؤسس وعياً جمالياً جديداً.

في روايته (الميتة الثالثة والأخيرة لعبد شويخ البدوي) يؤكد الكاتب أسعد الهلالي قدرته على تناول الحدث الماضي وجعله فنياً راهناً ومقبلاً لأن كل حاضر هو ماضٍ في اللحظة ذاتها وكل آتٍ هو حاضر في الصيرورة الزمنية والفنان هو الذي يستطيع تناول الماضي ومنحه حق الحياة للأزمنة المقبلة إذ أن الرواية تقدم رؤية تتجاوز زمن الحدث لأنها تنطبق في دلالتها على كل زمن. إن كفاح الإنسان ومواجهته لكل أشكال الظلم والقهر والتسلط والاستعباد وثباته أمام كل ذلك أمر مطلوب في كل وقت ولهذا فإن كفاحه وثباته راهنان في دلالتهما. وقد نجح كاتب هذا النص الذي تناول أحداثاً وقعت في زمن الإحتلال البريطاني للعراق وفي فترة الحكم الملكي... في جعلها أحداثاً راهنة الدلالة.

في هذه الرواية تتداخل شتى الصور والتجارب في عمل تجتمع فيه لغة السرد والسينما والدراما في فعل نصي موحد حتى ليجد المتلقي نفسه في وضع كلي مع الحقيقة التي ينقلها الكاتب ويتمثلها خيالاً ينفتح على أفق لا سبيل لإيقاف أبعاده ومساحاته الشاسعة.

وما أن يختم الرواية بهذه الكلمات: (عبقت رائحة النعناع... تسللت الى الأنوف المحمرة... لفحها عبقها فانتصب حماس الرجال ظلالاً باردة غرزت البيرق في ركن مرتفع من طبر السيد واصطفت تحته في هدوء بسط لسيل الأمطار نهراً من أعين أهاجها الظفر فطفرت من جوفها دموع حبيسة احتملت جفافها أربعين سنة كي تهطل بسخاء..) حتى يجد المتلقي نفسه في حالة رغبة لإعادة ما قرأ من جديد وفي مثل هذه الأعادة التي يسكنها الألم الكلي، يجد المرء نفسه في قلب الأحداث وفي عمق المحنة ويسعى لتمثل تجربته مع هذه التجربة الإنسانية الغنية بالمعاني والدلالات والقيم والرؤى.

قال حمد..

– سنواجهه فجر الغد يا أحمد... هذا ما قررناه جميعاً...

– من تعني؟

– دامس البرغوث..

انهالت بغتة الأف من (الخيزرانات) على أجساد حبيبة كتمت صرخاتها جدران سميكة لسجون تكدس فيها شباب عُدت أصواتهم جرائم أودت الى سلسلة من أدوات التعذيب اجتزت إنسانيتهم وأحالتهم الى كائنات هائمة تدور دونما هدى أو الى رصاصات جندلتهم أو مشنقة تدلت منها أجسادهم الفتية... لينتهوا الى حفر غالباً ما تكون مجهولة تستصرخها قلوب أهالي القبور المكلومة لتبدي لهم ما يدلهم على ما يشير لمستقر بقايا الجسد الحبيب لولدهم... فكر أنه كان سيغدو واحداً من هؤلاء أن ظل في بغداد... وتذكر انه اقسم أن يحيل (أم دهلة) الى صرخة تزلزل كرسي عمه فخري الحامد وأعوانه... فنهض منتصب الجسد... ضاغطاً بكفه على اكف الرجال المشدودة... خاطب وجوههم مباشرة ودونما تردد... لدى بندقية سلمها لي دامس البرغوث لأحمي نفسي والمدرسة حين وصلت القرية... لم أكن أظن أني سأحتاجها يومذاك... لكني سأحتاج إليها الآن...) ص 262–263.

بهذا الأحساس العميق وهذا الثقل الكبير من الألم والحزن والمرارة والعذاب يجسد الروائي اسعد الهلالي حالة مواجهة الظلم والقهر والاستعداد للثورة على سالبي حرية الإنسان وجعل تلك الحالة ظاهرة تعنينا جميعاً فنحس معه ونجد أنفسنا نشاركه همومه ولا تكون للكاتب مثل هذه المشاركة الصميمية لو لم يكن قد نقل إلينا تلك الوقائع بتفاعل حي وإحساس أَسر يجعلنا في ضميره وهذا هو الغنى الحقيقي في الأبداع عندما ينقل إلينا تجربة ذاتية ويجعل منها تجربة إنسانية تعنينا جميعاً فالكتابة تفحص طويل لأعماق الذات وسعي للغوص عميقا في النفس الإنسانية عبر غوصه في أعماق نفسه.

يعّبر نص (الميتة الثالثة والأخيرة لعبد شويخ البدوي) فنياً عن الأزمات الحادة والمصيرية التي واجهها الإنسان العراقي في ظل تفتت القيم واهتزاز الثوابت والأبنية الإجتماعية والاقتصادية والسياسية بفعل الإحتلال البريطاني للعراق وسلبه إرادة شعبه وانتهاك حقه في الحياة الحرة الكريمة، وبفعل استبداد الساسة عملاء الأنكليز وقمعهم لحريات وتطلعات الجماهير يساندهم الإقطاعيون والبرجوازيون من المتواطئين مع

الأجنبي وسياسته الأستعمارية لضمان مصالحهم الشخصية على حساب حرمان الكادحين والمناضلين والمثقفين من حقوقهم المشروعة وممارسة إنسانيتهم بعيداً عن التهديد والاضطهاد. جاء في كلام السارد عن المعلم والسياسي احمد الحامد ص187.

ربما ذرعت قد ما أحمد الحامد أرض الحجرة الطينية الأف المرات منذ احتوته قبيل الغروب... حاذى السبورة... خربش فوقها كلمات لم تبدُ له مفهومة قط إلا إنها كانت حادة وغاضبة... كانت غرفته أشد برداً من كل ليلة... وقد زادها جدبها برداً... فراشه البسيط انزوى متكوراً في زاوية الحجرة بينما غطت طبقة رقيقة من القش أرضها الباردة... إنها الغرفة الوحيدة في المدرسة كما انه المعلم الوحيد فيها... يشغلها في الليل مرقداً وفي النهار صفاً لطلابها القليلين الذين اعتاد أن ينسحب أحدهم مبرراً انسحابه بالبرد... ويُسحب أحدهم بعنف ودونما تبرير... لكنه كان قد قرر أن يعلمهم كل ما يستطيعون إدراكه... حدثهم عن القرامطة وثورة الزنج وصعلكة عروة بن الورد... عن كومونة باريس وثورة فلاحي روسيا وضباط مصر الأحرار.. عن القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاغي... عن ثوره مايس ورشيد عالي الكيلاني... عن بكر صدقي ورهطه... وحدثهم كثيرا عن مفاسد العلية وشروطهم... عن الظلم والظالمين... وكان صباح سيتعلم أن يشير الى الظالم حين يراه ويجاهره بظلمه قبل أن يغرقه الفرات.. ضرب أحمد الحامد الجدار الطيني بقوة..

– كان السريون سيسجنوني لكلام كهذا في بغداد.. وهنا ألست سجيناً؟.. أليست حجرتي هذه أكثر بؤساً من سجن؟... ما فائدة أن يتعلم الصبية صفات الظالم دون أن يتمكنوا من الأشارة إليه..

وجاء كذلك ضمن المشهد ذاته: (سجن.. سجن.. سحقا لك يا فخري الحامد.. ياعمي... جنبتني سجن بغداد لتسجنني هنا.. فتحقق مآربك جميعا... لا شيء سيلوث سمعتك أمام الوصي ورجال الوزارة.. فاحمد الحامد الذي صرت تراه دملة في أسرتك (لابد) من اجتثاثها غدا بعيداً لتنتهي بابتعاده النكتة التي كنت تراها سمجة... خطوبته لابنتك نجوى... غامت عينا أحمد بعيدا فاستحضرتا ملامح نجوى المرتبكة واستكان الشاي الدافئ كدفئها... آه يا نجوى... يالدفئك المشتهى يا ابنة العم... كلماتك الرقيقة كوجهك الكريستالي والحنو النافر منها كشرارات تخترقني فأغرق في الدفء... نظراتك المبتسمه وهي تتجه نحوي بعمق محبب فتصب في عيني سيلا من الحنان يغلف قلبي فينبض مزهواً بك... كنت دفئي يا نجوى... وها انذا أغوص سجيناً في الصقيع... يجب أن أراك... أحتاج كثيراً الى حريتي ودفئي... أحتاجك..) ص189.

تشي هذه الرواية بجرأة الكاتب في معالجة المشكلات الجوهرية وتفصح عن عمق تجربته ونضجه الفني كما تفصح عن قدرته الأستشرافية ونجاحه في صياغة نصه في إطار من التشويق والإمتاع والكشف والتعرية. ينطوي عنوان الرواية على مفارقة غريبة إذ كيف يموت الإنسان ويظهر ويموت ويظهر ثم يموت للمرة الثالثة ميتته الأخيرة؟؟ إن عبد شويخ البدوي من الشخصيات

المحورية الرامزة، يرد ذكرها في كثير من الأحداث المصيرية ليشكل حضوره المشع في ضمير المظلومين الخائفين واليائسين بارقة أمل بالتغيير والخلاص والعبور الى ضفة الحرية والكرامة من خلال العمل على تحرير الذات... وهذا العنوان الغريب ينبئ بالعالم الروائي فالرواية تصور عالما حافلاً بالاضطراب والانفعالات المنوعة المختلطة والمندغمة بعضها ببعض بعرى وثيقة، فنلاحظ تداول عواطف الحب والأمل واليأس واللقاء والإبعاد والرواية توظف الأساليب السردية الحديثة كالرمز والمفارقات والسخرية والتذكر والاسترجاع والتداعي وتيار الوعي، الذي يجسد التوتر الناتج عن التضاد بين الواقع الخارجي وما يجول داخل النفس.

إن هم الرواية الأول يكمن في تجسيد كفاح الإنسان العراقي ضد القهر الإجتماعي والاضطهاد السياسي وفضح جرائم الإحتلال الأنكليزي وأدواته القمعية المتمثلة بعملائه الإقطاعيين والبرجوازيين.

إن نص (الميتة الثالثة والأخيرة لعبد شويخ البدوي) غني بأفكاره وأحداثه وشخصياته وتقنياته وهو ينطوي على قيم فنية جديدة كما يجسد توازنا دقيقا بين الفني والسياسي يتكون بناؤه الروائي من مشاهد لا يفصل بينها عنوان أو رقم أو إشارة، ما يوحي بالصلة الخفية بين المشاهد فكأن الرواية مشهد واحد أو كأن المشاهد كلها تنبع من أصل واحد. ويتكون المشهد من ومضات ولقطات مبعثرة في الظاهر وتضم أسماء كثيرة ووقائع متنوعة وأزمنة متوازية ومتداخلة وقفزات مكانية مستمرة وأحيانا مستويات لغوية متعددة... والمشاهد في تناثرها وتبعثرها وتوازيها وتقاطعها وتشابكها إنما تدل على بحث الإنسان الدائب عن الحرية والعدل.

إن صور (الميتة الثالثة والأخيرة) ولقطاتها وومضاتها تمثل مناخا قاتما وكئيبا يخيم عليه الرعب والقلق واليأس والحيرة والإحباط ونزيف الدم ورصد الأنفاس والخضوع والقهر وسحق الإنسان وهو مناخ روائي يعكس العلاقات الغامضة المعقدة بين الواحد والمتعدد والحاكم والمحكوم والسلطة والناس والقهر التأريخي واستلاب إنسانية الإنسان. في أكثر مشاهد الرواية نرصد تكرار مفرده التفتت وهو تكرار مقصود ودال يحيلنا الى العنوان الفرعي للرواية (وقائع آيلة للتفتت) والمثبت في الصفحة الداخلية الثانية، كما نلاحظ هيمنة الممارسات الجنسية على بعض أجزاء النص ولقطاته وتستحوذ هذه اللقطات على اهتمام السارد إذ يصفها ويصورها بدقة واحتراف ويبدو أن الغاية من الأهتمام بها قد يرتبط بثنائيات من قبيل: الجسد/ الوعي/ الجسد/ الروح، الجسد/ الحرية. تتضمن مشاهد الرواية صوراً وصفية سردية متنوعة وتتخلل هذه الصور إشارات ورموز واستلهامات تاريخيه وإشارات معاصرة واستثمارات للشعر الفصيح والشعر الشعبي من مثل الأبوذيات والهوسات كما تتضمن صورا من الفلوكلور العراقي.

هذه الكتابة الجديدة تتوخى الكشف عن علاقه خفية معقدة وجديدة بين الإنسان والعالم المعيش واستناداً الى هيمنة الصور الوصفية الخالصة والسرد الأفتراضي

وتعدد الرواة وتنوع الضمائر والتمرد على القيم الجمالية التقليدية.

ويمكن القول: إن النص يهدف الى تجسيد حقيقة نوعية تتمثل في رصد تحولات منظومات القيم وأثرها..

هذه التحولات التي أدت وتؤدي الى تهميش الذات الإنسانية أو تفتيتها وأحسب أن هذا الهدف هو الذي وسم هذه الكتابة بصفات نوعية مميزة.

وأخيراً فإن رواية (الميتة الثالثة والأخيرة لعبد شويخ البدوي) لوحة فنية رائعة رسمت بالدموع والآلام والعذاب والحرمان والتوجع وحب الأرض وعشق الحرية ورفض القهر والخنوع والتمسك بالحياة.

مطبوعات وصلتنا

- **دراسات اشتراكية في النظرية التعاونية، تأليف الدكتور كارل برنيتسه –تعريب مجيد مسعود ومراجعة الدكتور بدر الدين السباعي.**
- **دليل المصطلحات التنموية، د.مجيد مسعود، إصدار دار المدى للثقافة والنشر.**
- **مجلة الأقلام، العدد الأول –السنة السادسة والأربعون، كانون الثاني/آذار 2011**
- **مجلة الأقلام، العدد الثاني –السنة السادسة والأربعون، نيسان/ آيار/حزيران 2011**
- **سليم الوردي، غارات الثور المجنح –رواية، دار ميزوبوتاميا.**
- **نعيم نصار، رجل فقد اسمه– رواية، دار نشر فيشون ميديا/السويد.**

نصوص الكاهن

عبدالرزاق صالح

عبد الرزاق صالح من مواليد البصرة عام1952، عضو إتحاد الأدباء العراقيين والعرب. أصدرَ عن دار الينابيع في سوريا كتابين نقديين هما: كشوفات دوستويفسكي (2008 والأسطورة والشّعر (2009). كما أصدرَ عن دار الينابيع كذلك ست مجموعات شعرية: بلاغات الطائر المغربي، الجنوبيون، قُربان الشَّمس، مراثٍ ليست لمدينتي، أغاني القُبَّرات، مُتحولّات. كما أصدرَ صالح مجموعتين شعريتين في البصرة، على نفقته الخاصة وبالاستنساخ المحدود: الجنوبيون (2006)، حوريات الفردوس الأرضي (2007). له قيد الطباعة مجموعتان شعريتان: السُّومري وليلة الهبوب.

1ـ الرائي

رأيتُكِ في منامي
لا أعرفُ أنْ كان رسماً يُبلى
أمْ نحتاً يدوم!
أنتِ لغزٌ أسطوري
سومريةُ القسماتِ
في عينيكِ؛ حيرةٌ
في الظِّلِ؛ شفتاكِ النَّديتانِ؛ رحيقٌ
عمازا تبحثينَ في عيونِ الكونِ؟
الرائي.الجوّال الدرويش
يهتفُ بالجانِ من قبرِ المهرجانِ

الكونُ يَصْغرُ، يتلاشى
لكنَّ القلبَ يعتصرُ الخيبةَ
ينبضُ بسرِّ الرؤيا
علَّ فاتنةَ النقشِ
تحتضنُ الرائي
تفصحُ عن العشقِ
ويتضوعُ مِسْكٌ
يُعَطرُ حلمي
هل الليلُ في قلبِ الشوقِ
أمْ الشوقُ في قلبِ الليلِ؟
غصنٌ غضٌّ في ليلِ الذكرى

يرقصُ
وحيداً يتمطى
تَسْبُقُه ريحٌ، تُطوّقُه ريحٌ
يلتفتُ لريحٍ تُداعبهُ
يتمايلُ طرباً غصنُ الليلِ
الشوقُ تدفقٌ لوصالٍ
مُفعمٌ قلبي
اللذةُ قُبَلٌ
في جنةِ الأحتراقِ
لكنّي.....
رأيتُ غُصنَكِ تكسره الريحُ
في حُلمي
وحينَ هبتْ نسائمُ الفجرِ
توارتْ لذةُ العناقِ
وأصبحتُ مهموماً باللهفةِ!

البصرة
6/ **تموز**/ 2011

2 ـ جوَّال العشقِ

من حُلمٍ إلى حُلمٍ
كفراشةٍ
تحترقُ بلهيبِ القلبِ
أو قصبةِ ريحٍ
بَلْ كريشةٍ
أو كنحلةٍ
تعشقُ الرَّحيقَ
جوَّالُ العشقِ
يُسامرُ رقدتي
لا يرضى أن يفترشَ ظلّي
بَلْ يهمسُ للريحِ
يكشفُ سرَّ الرؤيا
جوَّالُ العشقِ
لا يرضى أن أقطفَ ثمرةً
حتّى في حُلمي
ما أصعبَ أن تعشقَ حُلماً في الحُلمِ
ما أقسى أن تنسى امرأةً في الحُلمِ
ويبقى يتجولُ عشقٌ في.....

***

من حريقٍ إلى حريقٍ
قلبي مليءٌ بالأسرارِ
كحقةِ النقاشِ
كنفرِ فاتنةٍ
لا تكشفَ سرَّ البلوى
يا جوَّالَ العشقِ
حقاً... تشتكي من تجوالِكَ في حُلمي!؟
يا قلبي...

أنتَ مُفعمٌ بالحنين
هل تبخلُ بلهفةِ حائرةٍ؟
أصغي لنبضِكَ !
فاسمعُ ترنيمَ صوتِها الطروب!
في دهشةِ الحُلمِ
يتضوعُ عطرُها الشذيُّ
ويسافرُ شَعرُها الفجريُّ

في كلِّ الحُلمِ
في كلِّ مدنِ الرؤيا
ويظلُّ جوَّالُ العشقِ يهتفُ
هل ينسى الجوَّالُ الجوَّالَ
في ظلِّ الرؤيا؟
أمْ يرقصُ في رقدتِي الأخيرةِ!؟

البصرة
2011/8/2

ثلاث قصائد

لحسينة بنيان

صلّي لأجلي

أيها المسجّى
فوق سرير يتأرجح في ألم الحسرة
وحكايات خضرٍ زارت فوق السبعين
ووشاحٍ عربيٍّ زيّ لونين
والعطر القادم من خلجانٍ ترجو
كلَّ حليم
أراهن فيك زماني
وروحي يائسةٌ
من خطوات كانت تحبو
نحو البدء
لجنوب يتراءى
بين السمك البنّي
ورحيل الأهل
والصور الموسومةِ

بتراتيل اليتم
تسيار..تسيار
لماضٍ لم يعد الماضي
وسويعات خطّت جبلاً
وأزاهير المستقبل
تسيار..أنت..خذيني
أمي
مدّي كل الطرق المطويّة
لأرسو قربك..هناك
عند المأزق
وشرود الذهن
خطوات كفاحٍ
تخطُّ يمينك
بأقصى سرعة
لحدودٍ ماكانت تسمو
إلاّ بشفاعات الجرح

وصدق التاريخ

أبتاه...

خطَّ الفسق بعدك عنّا

وانهارت أشجار التين

بحريقتك الملأى

بالرمل الباكي

وسؤالاتٍ تسري

تحت عيون صغار البيت

وحكايات الجبل الفضي

مازالت تروي خطواتك

من أعلى كردستان

ناعيةً رحلتك الأخرى

لجنوبٍ يحكي خطوات اليتم

لأيّ طريقٍ ترنو

وأيّ سماء.. تسمو

أحلامٌ لم تعد الرؤيا

نحو الواري

لتضمَّ صغاراً رحلوا

منذ زمانٍ

لعليٍّ.. وحليمة

وكلّ القتلى الموعودين

لسديمٍ مسَّ خرائط أهلي

أبتاه.. صلّي لأجلي

من سيرثيك بعدي

أيها الفجر اللاهب

والفسق الواقب

وحبات ملح زابت

قبل مرور سواقي العصر

من سيرثيك بعدي

قد يبقى غصنك

أو يجف الورق الفضي

في أسلاء الكالبتوس

أو يهدمُ حرفٌ

من اسمٍ خطَّ العشق المجنون

بعينيَّ المبحرتين

وأمتاز بكلّ التقنيات

عن روار العشق العشتاري

قد أمضي حيناً.. وآخر امضي

فمن سيرثيك بعدي..؟

قبل ثلاث ظلمات

بين أفول الفجر وبين أول خيط

من وهم سراجٍ

حملتك عيوني

منذ قرون
قبل ثلاثِ ظلمات
وأبيضّت تحت رحيق الصبّار
تحفر في بستان الغيب
وتمدُّ الخطواتِ جسوراً
أأذنتَ برحلة
أم ضيّعت خطوط الجولة
.....
رحيقك.. مازال رحيقاً
وترابك.. المعجزة
ونهرك.. وعدٌ
أعلنه الموجُ نسيباً
طيفك؟ أرقُ الطّيب
لا أناديك اليوم
فلعلَّ الصبحَ يوقظك
من ضيم الحين
شماليٌّ وجهك
وقلبك شرقيٌّ
والجنوبُ.. بخورك
خذني لزهورك
وعلامة نخلتك البنيّة
السرمديُّ انت
والخطوة الأولى

لمدارسنا العصماء
المكسوّة بالرمل
وعيون اليتم
ولفجرٍ بردٍ آتٍ
من مغادرة الدفء
عن أبوابها
شبابك ذاهبون
بعيداً.. دائما راحلون
الى المساطر
وحجر التحقيق
وقذارات الشرطة الوهمية
وزيف الجنة
إنّهم هكذا
مرسومةٌ مشانقهم
منذ الوهام
ومنذ ثلاث ظلمات
ومنذ الحين ..راحلون
الى حيث الواري المتألق
بشهداء العصر الناريّ
عشّاقك.. عشّاق
برغم الوهم
والفسق الجائع
والقبر الجماعي

ورياح العوز ... ولّنا عليك

وقتلى التفحيخ ... شمالك كبوة

رحيقك عرسٌ ... وشرقك إغفاءة

لآخر حسرة ... وليل النكلى جنوبك

ومساءاتك كرنفال ... عشاقك نحن

بالفرح الطفولي ... أين ماتضيع

يحمل لوح الكشفي ... وأين ماترشد

وشعاع الخيمة ... قالها جدي.. بذات الهيجاء

الى أين المسير ... وهل أنا إلاّ من غزيّة ان غوت

خذنا معك ... غويت وان ترشد غزيّة ارشدِ

ضمن سلسلة "حوارات اقتصادية"
صدر عن (الثقافة الجديدة)

1- خارطة طريق لإعادة هيكلة الشركات المملوكة للدولة .

2- الموازنة الاتحادية لعام 2011 .

3- السياسة المالية والسياسة النقدية ودورهما في عملية التنمية الاقتصادية في العراق.